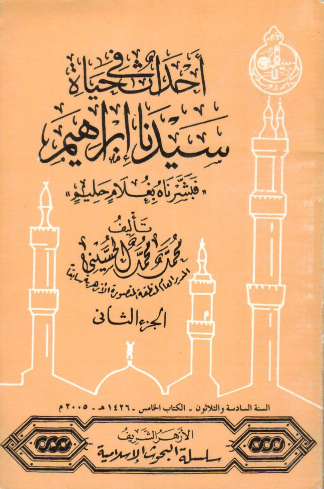
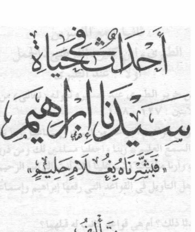


أحداث في حياة
سيدنا إبراهيم
«فبشرناه بغلام حليم»
تأليف
محمد محمد الحسيني
المدير العام لمنطقة المنصورة الأزهرية سابقا
الجزء الثاني
السنة السادسة والثلاثون - الكتاب الخامس - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
الأزهر الشريف
سلسلة البحوث الإسلامية



تأليف

محمد محمد الحسيني
المدير العام لمنطقة المنصورة الأزهرية سابقاً

الجزء الثاني



ثانياً : مع المفسرين

الطبرى - ابن كثير - القرطبى - الجمل

أولاً : عند الطبرى

يقول ابن جرير الطبرى عند تفسيره لقوله (تعالى) من سورة البقرة . الآيتين : ١٢٧ ، ١٢٨ :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾[١]

اختلف أهل التأويل فى القواعد التى رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت :

أهما أحدثا ذلك ؟ أم هى قواعد كانت له قبلهما ؟

(فقال قوم) : هى قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر، بأمر الله إياه بذلك، ثم درس مكانه، وتعفى أثره بعده حتى بوأه[٢] الله إبراهيم (عليه السلام) فبناه.

وحدث عن عطاء بن رباح. قال : « قال آدم : يارب، إنى لا أسمع أصوات الملائكة. قال : بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض، وابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء»

(١) جامع البيان / المجلد الأول / الجزء الأول ص ٤٢٨ - ٤٣٤ .

(٢) بوأه : أى : بيـّن. وأعلم. وأرشده إليه.

فيزعم الناس : أنه بناه من خمس أجبل : من حراء ، وطور زيتا ، وطور سيناء ، وجبل لبنان ، والجودى . وكان ربضه[1] من حراء ، فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم بعد .

وحدَّث عن ابن عباس : قال : « القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك » .

(وقال آخرون) : بلى ، هى قواعد بيت كان الله أهبطه لآدم من السماء إلى الأرض ، يطوف به كما كان يطوف بعرشه فى السماء ، ثم رفعه إلى السماء أيام الطوفان ، فرفع إبراهيم قواعد ذلك البيت .

وحدَّث عن عبد الله بن عمرو : قال : « لم أهبط الله آدم من الجنة ، قال : إنى مهبط معك - أو منزل معك - بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ، ويُصلَّى عنده كما يُصلَّى عند عرشى ، فلما كان زمن الطوفان رفع ، فكانت الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه ، حتى بوأه الله إبراهيم وأعلمه مكانه ، فبناه من خمسة أجبل : من حراء ، وثبير ، ولبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخمر » .

وحدَّث عن معمر ، عن أبان : « أن البيت أهبط ياقوتة واحدة - أو دُرَّة واحدة - حتى إذا أغرق الله قوم نوح رفعه وبقى أساسه ، فبوأه الله لإبراهيم » .

(وقال آخرون) : بل كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القبة ، وذلك أن الله لما أراد خلق الأرض علا الماء زبدة حمراء أو بيضاء ، وذلك فى موضع البيت الحرام ، ثم دحا الأرض من تحتها ،

---

[1] الربض : الأساس المستدير بالبيت من الصخر .

لم يزل ذلك كذلك حتى بوأه الله إبراهيم، فبناه على أساسه وقالوا: أساسه على أركان أربعة في الأرض السابعة.

وحدَّث عن مجاهد قال: « كان موضع البيت على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض مثل الزبدة البيضاء ومن تحته دحيت الأرض ».

وحدَّث عن ابن جريج قال: قال عطاء وعمرو بن دينار: « بعث الله رياحاً فصفقت الماء، فأبرزت في موضع البيت عن حشفة كأنها القبة، فهذا البيت منها (أي من مكة) فلذلك هي - أي مكة - أم القرى ».

قال ابن جريج: قال عطاء: « ثم وتَّدها بالجبال كي لا تكفأ بميد، فكان أول جبل أبو قبيس.

وحدث عن عكرمة، عن ابن عباس قال: « وضع البيت على أركان الماء على أربعة أركان، قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت.

وحدَّث عن عطاء بن أبي رباح، قال: « وجدوا بمكة حجراً مكتوباً عليه (إني أنا الله ذو بكة - بنيته يوم صنعت الشمس والقمر وحففته بسبعة أملاك حفا) ».

وحدَّث عن مجاهد وغيره من أهل العلم قال: « أن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه إسماعيل وأمه هاجر وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا - فيما حدثني - على البراق، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم،

فخرج وخرج معه جبريل فقال : كان لا يمر بقرية إلا قال : أبهذا أمرت يا جبريل ؟ فيقول جبريل : إمضه . حتى قدم به مكة وهى آنذاك عضاة سلم وسمرير ، بها أناس يقال لهم : العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة ، فقال إبراهيم لجبريل : أههنا أمرت أن أضعهما ؟ قال : نعم ، فعد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه ، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ عريشا فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ . «الآية ٣٧ من سورة إبراهيم»

قال ابن إسحاق : ويزعمون ـ والله أعلم ـ أن ملكاً من الملائكة أتى هاجر أم إسماعيل حين أنزلهما إبراهيم مكة قبل أن يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ، فأشار لهما إلى البيت وهو ربوة حمراء مدرة ، فقال لهما : (هذا أول بيت وضع فى الأرض وهو بيت الله العتيق واعلمى أن إبراهيم وإسماعيل هما يرفعانه) فالله أعلم .

وحدّث عن مجاهد قال : خلق الله موضع البيت قبل أن يخلق شيئاً على الأرض بألفى سنة ، وأركانه فى الأرض السابعة .

وحدث عن كعب قال : إن البيت كان غثاءة على الماء ، قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين سنة ومنه دحيت الأرض .

وحدث عن على بن أبى طالب : أن إبراهيم أقبل من أرمينية معه السكينة تدله على تبوىء البيت ، كما تتبوأ العنكبوت بيتها ، قال :

فرفعت عن أحجار تطيقه أو لا تطيقه ثلاثون رجلاً.

قال ابن المسيب الراوى عن على قلت: يا أبا محمد، فإن الله يقول ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد.. ﴾ قال: كان ذلك بعده.

والصواب من القول فى ذلك عندنا: أن يقال إن الله (تعالى ذكره) أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل. رفعا القواعد من البيت الحرام... وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان اهبطه مع آدم، فجعله مكان البيت الحرام الذى بمكة، وجائز أن يكون ذلك مكان القبة التى ذكرها (عطاء) مما أنشأه الله من زبد الماء، وجائز أن يكون ياقوتة أو درة أهبطا من السماء، وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم حتى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل.

ولا علم لنا بأى ذلك كان من أى، لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله (ﷺ) وسلم بالنقل المستفيض، ولا خبر بذلك تقوم به الحجة فيجب التسليم لها، ولا هو إذ لم يكن به خبر على ما وصفنا، مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس فيمثل بغيره ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد، فلا قول فى ذلك هو أولى بالصواب مما قلنا والله أعلم.

قوله (تعالى): ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ يعنى تعالى ذكره: يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

وحدث عن ابن عباس، قال: هما يرفعان القواعد من البيت ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، قال: وإسماعيل يحمل الحجارة على رقبته والشيخ يبنى.

ثم اختلف أهل التأويل فى الذى رفع القواعد بعد إجماعهم على أن إبراهيم كان ممن رفعها . فقال بعضهم : رفعها إبراهيم وإسماعيل جميعاً .

وحدث عن السدى قال : فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة ، فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت ؟ فبعث الله ريحاً يقال لها : ريح الخجوج لها جناحان ، ورأس فى صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة ، وعن أساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران ، حتى وضعا الأساس فذلك حين يقول : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ . فلما بنيا القواعد ، فبلغا مكان الركن قال إبراهيم لإسماعيل : يابنى ، اطلب لى حجراً حسناً أصنعه ههنا . قال : يا أبت ، إنى كسلان تعب . قال : علىَّ بذلك فانطلق يطلب حجراً . فجاءه بحجر ، فلم يرضه ، فقال : ائتنى بحجر أحسن من هذا . فانطلق يطلب حجراً وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة . وكان آدم هبط به من الجنة . فاسود من خطايا الناس . فجاءه إسماعيل بحجر ، فوجده عند الركن ، فقال : يا أبت ، من جاءك بهذا ؟ قال : من هو أنشط منك فبنياه . . .

وقال آخرون : بل رفع القواعد من البيت إبراهيم وحده . وإسماعيل يومئذ طفل صغير .

وحدث عن على قال : لما أمر إبراهيم ببناء البيت ، خرج معه إسماعيل وهاجر فلما قدم مكة ، رأى على رأسه فى موضع البيت

مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه فقال : يا إبراهيم، ابن على ظلى أو على قدرى ولا تزد ولا تنقص فلما بنى[1] خرج وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر : يا إبراهيم، إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله. قالت : انطلق، فإنه لا يضيعنا. قال : فعطش إسماعيل عطشاً شديداً قال فصعدت هاجر إلى (الصفا) فنظرت فلم تر شيئاً ثم أتت (المروة) فنظرت فلم تر شيئاً.. ثم رجعت إلى (الصفا) فنظرت فلم تر شيئاً حتى فعلت ذلك سبع مرات. فقالت : يإسماعيل، مت حيث لا أراك. فأتته وهو يفحص برجله من العطش فناداها جبريل : فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال إلى من وكلكما ؟ قالت : وكلنا إلى الله. قال : وكلكما لكاف... قال : ففحص الأرض بإصبعه، فنبحت زمزم فجعلت تحبس الماء، فقال لها : دعيه فإنها رواء.

وحدث عن خالد بن عرعرة : أن رجلاً قام إلى علىٍّ فقال : ألا تخبرنى عن البيت، أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال : لا. ولكن هو أول بيت وضع فى البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً... وإن شئت أنبأتك كيف بنى ؟ إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض. قال : فضاق إبراهيم بذلك فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج، ولها رأسان فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة فتطوت على موضع البيت كتطوى الحجفة، وأمر

(١) أغلب الظن أن هذا الكلام نسب خطأ إلى على بن أبى طالب، لأنه لا يتفق مع الآية الكريمة :﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾حيث لا يستطيع إسماعيل وهو طفل رضيع أن يشارك أباه فى رفع قواعد البيت الحرام.

إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فبنى إبراهيم وبقى حجر. فذهب الغلام يبغى شيئاً، فقال إبراهيم: لا، إبغنى حجراً كما آمرك. قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه، فقال: يا أبت، من آتاك بهذا الحجر. قال: أتانى به من لم يتكل على بنائك.. جاء به جبريل من السماء فأتمه.

يقول الطبرى: والصواب من القول عندنا فى ذلك: أن قواعد البيت رفعها إبراهيم وإسماعيل جميعاً.. وذلك أن إبراهيم وإسماعيل إن كانا هما بنياها ورفعاها فهو ما قلنا.. وإن كان إبراهيم تفرد ببنائها وكان إسماعيل يناوله فهما أيضاً رفعاها لأن رفعها كان بهما: من أحدهما البناء، ومن الآخر نقل الحجارة إليها ومعونة وضع الأحجار مواضعها.. فمعلوم أن إسماعيل لم يكن تاركاً معونة أبيه: إما على البناء، وإما على نقل الحجارة، وأى ذلك كان منه فقد دخل فى معنى: من رفع قواعد البيت...

وحدث عن أسباط عن السدى. قال: لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بنيان البيت أمره الله تعالى أن ينادى. فقال: ﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾[1] فنادى بين أخشبى ـ جبلى ـ مكة: يأيها الناس إن الله أمركم أن تحجوا بيته. قال: فوقرت فى قلب كل مؤمن وأجابه كل من سمعه من: جبل وشجر أو دابة: لبيك اللهم لبيك، وأتاه من أتاه فأمرالله تعالى أن يخرج إلى عرفات. ونعتها. فخرج فلما بلغ (جمرة العقبة) استقبله الشيطان. فرماه بسبع حصيات يكبر مع

(١) الآية ٢٧ من سورة الحج.

كل حصاة فطار فوقع على (الجمرة الثانية) أيضاً فصده فرماه وكبر فطار فوقع على (الجمرة الثالثة) فرماه وكبر فلما رأى أنه لا يطيقه ولم يدر إبراهيم: أين يذهب. انطلق حتى إذا أتى (ذا المجاز). فلما نظر إليه، فلم يعرفه جاز فلذلك سمي (ذا المجاز). ثم انطلق حتى وقع بعرفات. فلما نظر إليها. عرف النعت. قال: قد عرفت فسميت (عرفات).

فوقف إبراهيم بعرفات حتى إذا أمسى ازدلف إلى (جمع) فسميت (المزدلفة) فوقف بجمع... ثم أقبل حتى أتى الشيطان حيث لقيه أول مرة فرماه بسبع حصيات سبع مرات. ثم أقام (بمنى) حتى فرغ من الحج...

ثم يقول الطبرى عند تفسيره لقوله (تعالى) من سورة إبراهيم الآية ٣٧ [١]: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

قال إبراهيم الخليل هذا القول. حين أسكن إسماعيل وأمه هاجر فيما ذكر مكة.. وحدث عن أيوب عن سعيد بن جبير أنه حدث عن ابن عباس. قال: إن أول من سعى بين الصفا والمروة أم إسماعيل وإن أول ما أحدث نساء العرب جر الذيول لمن أم إسماعيل. قال: لما فرت من سارة أرخت من ذيلها لتعفى أثرها فجاء بها إبراهيم ومعها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت.

(١) جامع البيان / المجلد السابع / الجزء الثالث عشر ص ١٥٢، ١٥٥.

فوضعها ثم رجع فأتبعته . فقالت : إلى أى شيء تكلنا ؟ إلى طعام تكلنا ؟ إلى شراب تكلنا ؟ فجعل لا يرد عليها شيئاً ، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . قال : فرجعت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى . فدعا فقال :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ قال : ومع (الإنسانة) - يقصد هاجر - شنة فيها ماء ، فنفد الماء فعطشت وانقطع لبنها . فعطش (الصبى) - يقصد إسماعيل - فنظرت أىّ الجبال أدنى من الأرض . فصعدت بالصفا ، فتسمعت هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً فلم تسمع ، فانحدرت ، فلما أتت على الوادى سعت ، وما تريد السعى ؛ كالإنسان المجهود الذى يسعى ومايريد السعى . فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض . فصعدت المروة ، فتسمعت هل تسمع صوتاً ، أو ترى أنيساً فسمعت صوتاً . فقالت - كالإنسان الذى يكذب سمعه - : صه ، حتى استيقنت .

فقالت : قد أسمعتنى صوتك فأغثنى فقد هلكت وهلك مَنْ معى ، فجاء الملك فجاء بها حتى انتهى بها إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عيناً ، فعجلت (الإنسانة) فجعلت فى شنتها . . . فقال رسول الله (ﷺ) : [رحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت لكان زمزم عيناً معيناً] .

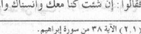
وقال لها الملك: لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد فإنما هى عين لشرب ضيفان الله... وقال: إن أبا هذا الغلام سيجىء فيبنيان لله بيتاً هذا موضعه.. قال: ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل فقالوا: إن هذا الطير لعائف على ماء فهل علمتم بهذا الوادى من ماء؟ فقالوا: لا فأشرفوا فإذا هم (بالإنسانة) فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا معها فأذنت لهم... قال: وأتى عليها ما يأتى على هؤلاء الناس من الموت فماتت، وتزوج إسماعيل امرأة منهم فجاء إبراهيم فسأل عن منزل إسماعيل. حتى دُل عليه فلم يجده ووجد امرأة فظة غليظة فقال لها: إذا جاء زوجك فقولى له جاء ههنا شيخ من صفته كذا وكذا وأنه يقول لك إنى لا أرضى لك عتبة بابك فحولها وانطلق، فلما جاء إسماعيل أخبرته فقال: ذلك أبى. وأنت عتبة بابى فطلقها وتزوج امرأة أخرى منهم.

وجاء إبراهيم حتى انتهى إلى منزل إسماعيل فلم يجده ووجد امرأة له سهلة طليقة فقال لها: أين انطلق زوجك؟ فقالت: انطلق إلى الصيد، قال: فما طعامكم؟ قالت: اللحم والماء، قال: اللهم بارك فى لحمهم ومائهم، اللهم بارك فى لحمهم ومائهم ثلاثاً، وقال لها إذا جاء زوجك فأخبريه فقولى: جاء ههنا شيخ من صفته كذا وكذا، وإنه يقول لك: قد رضيت لك عتبة بابك فأثبتها. فلما جاء إسماعيل أخبرته..

قال: ثم جاء الثالثة فرفعا القواعد من البيت.

وحدّث عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : جاء نبى الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر ، فوضعهما بمكة فى موضع زمزم ، فلما مضى نادته هاجر : يإبراهيم ، إنما أسألك (ثلاث مرات) : من أمرك أن تضعنى بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع ولا أنيس ولا زاد ولا ماء؟ قال : ربى أمرنى .. قالت : فإنه لن يضيعنا .. قال : فلما قفا إبراهيم . قال : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ﴾[1] يعنى من الحزن ﴿ وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء ﴾[2] .

فلما ظمئ إسماعيل . جعل يدحض الأرض بعقبه . فذهبت هاجر ، حتى علت الصفا والوادى يومئذ لاخ (يعنى : عميق) فصعدت الصفا فأشرفت لتنظر هل ترى شيئا؟ فلم تر شيئا فانحدرت فبلغت الوادى - فسعت فيه حتى خرجت منه فأتت المروة فصعدت فاستشرفت هل ترى شيئا ، فلم تر شيئا ، ففعلت ذلك ثلاث مرات ، ثم جاءت من المروة إلى إسماعيل وهو يدحض الأرض بعقبه وقد نبعت العين وهى زمزم ، فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء ، فكلما اجتمع ماء أخذته بقدحها وأفرغته فى سقائها ، قال : فقال النبى (ﷺ) : [يرحمها الله ، لو تركتها لكانت عينا سائحة تجرى إلى يوم القيامة] . قال : وكانت جرهم يومئذ بواد قريب من مكة . قال : ولزمت الطير الوادى حين رأت الماء .. فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادى . قالوا : ما لزمته إلا وفيه ماء .. فجاءوا إلى هاجر فقالوا : إن شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك .. قالت نعم .



(٢،١) الآية ٣٨ من سورة إبراهيم .



فكانوا معها حتى شب إسماعيل.. وماتت هاجر فتزوج إسماعيل امرأة منهم، قال: فاستأذن إبراهيم (سارة) أن يأتي هاجر، فأذنت له وشرطت عليه ألا ينزل، فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس هنا، ذهب يتصيد ـ كان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع ـ فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندى، وماعندى أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له: فليغير عتبة بابه.

وذهب إبراهيم.. وجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه. فقال لامرأته هل جاءك أحد؟ فقالت: جاء شيخ كذا وكذا ـ كالمستخفة بشأنه ـ قال: فما قال لك؟ قالت: قال لى اقرئى زوجك السلام، وقولى له: فليغير عتبة بابه فطلقها، وتزوج أخرى....

فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت ذهب يصيد وهو يجئ الآن إن شاء الله، فانزل يرحمك الله. قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت نعم. قال: هل عندك خبز أو بر أو شعير أو تمر؟ قالت: لا، فجاءت باللبن واللحم فدعا لهما بالبركة.. فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله براً وشعيراً وتمراً، فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك. فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عند شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فبقى أثر

قدمه عليه.. فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شقه الأيسر، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له: قد استقامت عتبة بابك.. فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ فقالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً. فقال لى: كذا وكذا. وقلت له: كذا وكذا وغسلت رأسه وهذا موضع قدمه على المقام.. قال وما قال لك؟ قالت: قال لى إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له: قد استقامت عتبة بابك.

قال: ذاك إبراهيم.

فلبث ما شاء الله أن يلبث وأمره الله ببناء البيت فبناه هو وإسماعيل، فلما بنياه قيل: أذِّنْ فى الناس بالحج، فجعل لا يمرّ بقوم إلا قال: أيها الناس، إنه قد بنى لكم بيت فحجوه. فجعل لا يسمعه أحد صخرة ولا شجرة ولا شىء إلا قال: (لبيك اللهم لبيك).

قال: وكان بين قوله ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾[1] وبين قوله ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾[2] كذا وكذا عاماً، لم يحفظ عطاء..

ثم حدث عن سعيد بن جبير قال للقوم: سلونى قبل أن لا تسألونى، فسأله القوم فأكثروا، وكان فيما سئل عنه: أن قيل له: أحقٌ ما سمعنا فى المقام؟ فقال سعيد: ماذا سمعتم؟ قالوا: سمعنا

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم. (٢) الآية ٣٩ من سورة إبراهيم.

إبراهيم رسول الله حين جاء من الشام كان حلف لامرأته (يقصد سارة) أن لا ينزل مكة حتى يرجع، فَقُرِّب له المقام فنزل عليه، فقال سعيد: ليس كذلك حدثنا ابن عباس، ولكنه حدثنا: حين كان بين أم إسماعيل وسارة ما كان أقبل بإسماعيل، ثم ذكر مثل حديث أيوب غير أنه زاد في حديثه: قال: قال أبو القاسم (ﷺ): [ولذلك طاف الناس بين الصفا والمروة] ثم حدّث وقال: قال أبو القاسم (ﷺ): [طلبوا - يقصد الرفقة من جرهم - النزول معها وقد أحبت أم إسماعيل الأنس، فنزلوا وبعثوا إلى أهلهم فقدموا وطعامهم الصيد يخرجون من الحرم، ويخرج إسماعيل معهم بصيد، فلما بلغ أنكحوه وقد توفيت أمه قبل ذلك].

قال ابن عباس: ثم لبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم جاء فوجد إسماعيل قاعدا تحت دوحة إلى ناحية البئر يبرى نبلا له، فسلم عليه ونزل إليه فقعد معه.

وقال: يإسماعيل، إن الله قد أمرني بأمر. قال إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك. قال إبراهيم: أمرني أن أبني له بيتا، قال إسماعيل: أين؟ قال ابن عباس: فأشار له إبراهيم إلى أكمة بين يديه مرتفعة على ماحولها يأتيها السيل من نواحيها ولا يركبها، قال: فقاما يحفران عن القواعد يرفعانها ويقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [1] ربنا تقبل منا إنك سميع الدعاء. وإسماعيل يحمل الحجارة على رقبته، والشيخ إبراهيم يبني، فلما

(1) الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

ارتفع البنيان وشق على الشيخ تناوله، قرب إليه إسماعيل هذا الحجر. فجعل يقوم عليه ويبني ويحوله في نواحي البيت حتى انتهى... يقول ابن عباس: فذلك مقام إبراهيم وقيامه عليه..

يقول ابن جرير: (فإن قال قائل: وكيف قال إبراهيم حين أسكن ابنه مكة: ﴿ إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ وقد رويت في الأخبار التي ذكرتها: أن إبراهيم بني البيت بعد ذلك بمدة؟ قيل: قد قيل في ذلك أقوال قد ذكرتها في سورة البقرة منها: أن معناه: عند بيتك المحرم الذي كان قبل أن ترفعه من الأرض حين رفعته أيام الطوفان... ومنها: عند بيتك المحرم: الذي قد مضى في سابق علمك أنه يحدث في هذا البلد.

وأغلب الظن أن ابن جرير يرد بهذه الأقوال على ما جاء في كتاب تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري المذكور في هامش صفحات «جامع البيان في تفسير القرآن» فقد جاء فيه: (وفي قوله: ﴿ عند بيتك المحرم.. ﴾ دليل على أنه دعا هذه الدعوة بعد بناء البيت لا في حين مجيئه بهما)[1]...

ولنا على ما نقلناه من «جامع البيان» الملاحظات التالية:

(الملاحظة الأولى): أن البيت الحرام قد يكون بناه آدم بأمر الله له ببنائه، ثم درس مكانه وطمست قواعده فعرّفه الله بها ودله عليها، فرفعها هو وإسماعيل وأتما بناءه..

أو أن البيت أهبطه الله من السماء إلى الأرض مع آدم ثم رفعه الله

(١) هامش ص ١٥٢ في الجزء الثالث. من المجلد السابع. من تفسير جامع البيان.

أيام الطوفان إلى السماء وبقيت قواعده. فرفعها إبراهيم وإسماعيل..

وأقرب إلى المعقول: أن يكون البيت قد رفعه الله بقواعده كما أهبطه من السماء، وعلى هذا الاحتمال فإن إبراهيم وإسماعيل أحدثا قواعد البيت وأتما بناءه في موضع البيت الذى بناه آدم، أو في موضع البيت الذى أهبطه الله من السماء مع آدم، ثم رفعه أيام الطوفان كما ذهب قوم من أهل التأويل.. على أن يكون معنى رفع القواعد: إحداثها مكان قواعد البيت الذى كان... والله أعلم. ومن المسلم به أن البيت الذى بناه آدم وضع قواعده فى الأرض، ولا يمكن أن يكون آدم قد وضعه على الماء...

أما البيت الذى أهبطه الله من السماء مع آدم، فقد يكون الله (سبحانه وتعالى) وضعه على الأرض أو وضعه على الماء بقدرته، وهذا الافتراض يعنى أنه كان يوجد ماء فى هذا المكان بحيرة أو نهراً أو بحراً فى زمن هبوط البيت من السماء مع آدم (عليه السلام) ثم غيض الماء وظهرت الأرض، وبنى إبراهيم وإسماعيل البيت فى مكان على الأرض بجبال المكان الذى كان فيه البيت على الماء، ومع غرابة هذا الافتراض والمبالغة فى تصويره؛ فإنه لا يتأبى على قدرة الله ومشيئته.

وقد أجاز ابن جرير أن يكون البيت هو تلك القبة التى أنشأها الله من زبد الماء الذى كان موجوداً فى هذا المكان... وهذ أكثر غرابة ومبالغة، فكيف يصل إليها المصلون ويطوف حولها الطائفون؟

أو يكون البيت ياقوتة أو درة أهبطا من السماء، إلا أن معنى هذا أن يكون إبراهيم وإسماعيل قد أحدثا قواعد البيت مكان هذه الياقوتة أو الدرة بعد أن رفعها الله إلى السماء.

إننا أمام هذه الافتراضات غير المعقولة لا نملك إلا أن نؤكد ما قررنا من أن ذلك لا يستحيل على قدرة الله وإرادته، وإلا أن نقول كما قال ابن جرير: (ولا علم لنا بأى ذلك كان من أى؟ لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله (ﷺ) ولا خبر بذلك تقوم به الحجة، فلا قول فى ذلك هو أولى بالصواب والله أعلم).

(الملاحظة الثانية) أن ماحدّث به على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وما حدّث به مجاهد غيره من أهل العلم: أن خروج إبراهيم من الشام إلى مكة ومعه هاجر وابنها الرضيع إسماعيل وحملوا فيما قيل على البراق؛ إنما كان لبناء البيت، أى أن الله (سبحانه وتعالى) أمر إبراهيم و إسماعيل برفع قواعد البيت قبل خروجها من الشام إلى مكة، وحين كان إسماعيل طفلاً رضيعاً لا يقوى على رفع القواعد من البيت مع أبيه إبراهيم... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً إلا أن يكون لله سبحانه حكمة فى ذلك.. وإلا أن يكون هناك تفسير لصحته. وإذن فما هو تعليل أن يكون خروج إبراهيم بهاجر وإسماعيل من الشام إلى مكة استجابة لرغبة سارة فى إبعادها عن ناظريها إلى أبعد مكان عنها، بعد أن ملكتها الغيرة من هاجر أم إسماعيل؟ ولقد تكون غيرة سارة ورغبتها فى إبعاد هاجر وإسماعيل إلى أبعد مكان عنها، وأن تكون استجابة إبراهيم لرغبة

سارة، وأن يكون اختيار إبراهيم للرحيل بهاجر وإسماعيل إلى مكة وحيا من الله وإعدادا لتكليف الله إبراهيم وإسماعيل برفع قواعد البيت وإتمام بنائه. ولكن هذا لا يناسبه أن يكون التكليف برفع قواعد البيت قبل ترحيل هاجر وإسماعيل إلى مكة وإسماعيل طفل يرضع ولا يقوى على المشاركة فى رفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم؛ وإنما يناسبه أن يكون ذلك بعد ترحيل هاجر وإسماعيل إلى مكة، وإقامتهما بجوار مكان البيت قرب ماء بئر زمزم، وبعد استقرارهما فى هذا المكان، وبعد بلوغ إسماعيل السن التى يقوى فيها على المشاركة الفعلية فى رفع قواعد البيت كما جاء فى سياق روايات الحديث عن ابن عباس... والله أعلم.

(الملاحظة الثالثة): فى تلك العبارة التى تكررت فى رواية عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وهى:

(أ) (... فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتى هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل).

(ب) (... ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل).

الاستئذان الأول فى أن يأتى إبراهيم هاجر؛ لأن إبراهيم لم يكن يعلم حينئذ أن هاجر قد ماتت، وهو استئذان فى طبيعة البشر معقول.

أما الاستئذان الثانى فى أن يزور إسماعيل فقد كان وحده بعد موت أمه هاجر، فهل وصلت الغيرة بسارة إلى هذه الدرجة الكبيرة من إسماعيل وهو فى أقصى مكان بعيداً عنها؟

فهذا هو غير المعقول وبخاصة من سارة التى كانت من أول من آمن بإبراهيم وبدعوته إلى عبادة الله والتى كانت من أجل إيمانها بالله وبإبراهيم ودعوته محل عناية من الله حين صانها من محاولة الاعتداء عليها من ملك مصر حتى ولو كانت هذه الغيرة قبل أن تنجب سارة (إسحاق) بعد ثلاث عشرة سنة من ميلاد إسماعيل.

ولهذا فإن الشك يتطرق إلى كل ماقيل عن غيرة سارة وعن رغبتها فى إبعاد هاجر وإسماعيل عن عينيها إلى أبعد مكان منها... وعن تعاظم هاجر وتعاليها على سيدتها سارة وعن ترحيل إبراهيم لهاجر وإسماعيل إلى مكة استجابة لرغبة سارة ومن هنا فإن ماحدث به مجاهد وغيره من أهل العلم وما حدث به على بن أبى طالب (رضى الله عنه) من أن خروج إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى مكة من الشام. إنما كان للإعداد لرفع قواعد البيت الحرام بكل الأحداث التى وقعت لإسماعيل وقت البناء قول يمكن تفسيره والتسليم بصحته.

وأضيف إلى هذا أنه قد يكون ذلك أيضاً إعداداً لموضوع الذبيح وما يرتبط به من مناسك الحج إلى البيت الحرام.... والله أعلم..

ثانياً : مع ابن كثير

أما ابن كثير فيقول فى تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين[1]:

وأما قوله تعالى: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾.

فالقواعد هي جمع قاعدة هى السارية والأساس، يقول (تعالى): واذكر يامحمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

وحكى القرطبى وغيره. عن أُبىٍّ وابن مسعود: أنهما كانا يقرآن: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم). قلت: ويدل على هذا قولهما بعده: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ فهما فى عمل صالح وهما يسألان الله (تعالى). أن يتقبل منهما كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خميس المكى عن وهيب بن الورد: أنه قرأ ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا ﴾ ثم يبكى ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك، وهذا كما حكى الله عن

(١) تفسير القرآن العظيم / المجلد الأول الأول ص١٦٧ إلى ص ١٧٤.

حال المؤمنين الخُلَّص فى قوله ﴿ والذين يؤتون مآءاتوا ﴾[1] أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾[2] أى: خائفة أن لا يتقبل منهم.

وقال بعض المفسرين: الذى كان يرفع القواعد هو وإبراهيم والداعى إسماعيل والصحيح: أنهما كانا يرفعان ويقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

قال البخارى (رحمه الله): حدثنا عبدالله بن محمد أخبرنا عبد الرازق أخبرنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب ابن أبى وداعة. عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل...الخ الرواية التى ذكرتها من (فتح البارى) كما فعل غيره من المفسرين والمؤرخين.

ثم ذكروا الرواية الثانية رقم (٣٣٦٥١ فى فتح البارى) وهى:

قال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد، أخبرنا أبو عامر، عبدالله ابن عمرو وأخبرنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (لم كان بين إبراهيم وبين أهله، ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها، حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله فأتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء، نادته من ورائه يا إبراهيم إلى من

(٢،١) الآية ٦٠ من سورة المؤمنون.

تكلنا ؟ قال : إلى الله، قالت : رضيت بالله قال : فرجعت تشرب من الشنة ويدر لبنا على صبيها حتى لما فنى الماء قالت : لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحداً فذهبت فصعدت الصفا فنظرت : هل تحس أحداً. فلم تحس أحداً فلما بلغت الوادى سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطاً حتى أتمت سبعاً[١] ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي. فذهبت فنظرت. فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها. فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحداً فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحداً حتى أتمت سبعاً[٢] ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل فإذا هى بصوت فقالت أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل عليه السلام قال : فقال بعقبه هكذا وغمر بعقبه على الأرض قال : فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر قال : فقال أبو القاسم (ﷺ) : [لو تركته لكن الماء ظاهراً]. قال : فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال : فمر ناس من (جرهم) ببطن الوادى. فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك وقالوا : ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هو بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها.

فقالوا : يا أم إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك؟

فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة...

(١، ٢) هكذا ورد فى تفسير ابن كثير - المجلد الأول - ص ١٦٨، ١٦٩ وربما ذكرت الأولى سهواً.

قال: ثم أنه بدا لإبراهيم (ﷺ) فقال لأهله: إني مطلع تركتي.. قال: فجاء فسلم. فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد.. قال: قولي له إذا جاء: غير عتبة بابك.. فلما أخبرته. قال: أنت ذاك. فاذهبي إلى أهلك...

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم. فقال: إني مطلع تركتي.

قال: فجاء. فقال: أين إسماعيل؟. فقالت امرأته: ذهب يصيد... فقالت ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ فقال ما طعامكم؟ وما شرابكم؟ فقالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم... قال: فقال أبو القاسم (ﷺ): [بركة بدعوة إبراهيم] قال: ثم أنه بدا لإبراهيم فقال لأهله: إني مطلع تركتي فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك (عز وجل) أمرني أن ابني له بيتاً فقال: أطع ربك عز وجل قال: إنه أمرني: أن تعينني عليه فقال: إذن أفعل...

قال: فقام. فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾... يقول ابن كثير: هكذا رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء...

والعجيب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم. رواه في كتابه المستدرك عن أبي العباس الأصم عن محمد بن سنان القزاز عن أبي عليَ عبيد

الله بن الحنفى عن إبراهيم بن نافع. به وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال: وقد رواه البخارى ـ كما ترى ـ من حديث إبراهيم بن نافع. وكأن فيه اختصاراً فإنه لم يذكر فيه شأن الذبح وقد جاء فى الصحيح أن قرنى الكبش ـ الذى فدى الله به إسماعيل الذبيح ـ كانا معلقين بالكعبة وقد جاء أن إبراهيم (عليه السلام) كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة ـ والله أعلم ـ والحديث ـ والله أعلم ـ فيه مرفوع أماكن صرح بها ابن عباس عن النبى (ﷺ).

وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا السياق ما يخالف بعض هذا. كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى قالا: أخبرنا مؤمل. أخبرنا سفيان عن أبى إسحاق عن حارثة بن مضرب عن على بن أبى طالب. قال: لما أُمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر. قال: فلما قدم مكة. رأى على رأسه ـ فى موضع البيت مثل الغمامة. فيه مثل الرأس. فكلمه. قال: يا إبراهيم ابن على ظلى أو قال: على قدرى ولا تزد ولا تنقص فلما بنى. خرج وخلف إسماعيل وهاجر فقالت: هاجر ياإبراهيم، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، قالت: انطلق فإنه لا يضيعنا قال: فعطش إسماعيل عطشاً شديداً قال: فصعدت (هاجر) إلى (الصفا) فنظرت فلم تر شيئاً حتى أتت (المروة) فلم تر شيئاً ثم رجعت إلى (الصفا) فنظرت فلم تر شيئاً ففعلت ذلك سبع مرات. فقالت: يا إسماعيل مت حيث لا أراك فأتت وهو يفحص برجله من العطش. فناداها جبريل. فقال لها: من أنت؟

قالت : أنا هاجر أم ولد إبراهيم . قال فإلى من وكلكما ؟ قالت : وكلنا إلى الله . قال : وكلكما إلى كاف قال : ففحص الأرض بإصبعه فنبعث زمزم فجعلت تحبس الماء فقال : دعيه فإنه روى ففى هذا السياق : أنه بنى البيت قبل أن يفارقها وقد يحتمل أنه كان محفوظاً أن يكون أولا وضع له حوطاً وتحجيراً لا أنه بناه إلى أعلاه حتى كبر إسماعيل فبنياه معا كما قال الله (تعالى) .

ثم قال ابن جرير أخبرنا هناد بن السرى . حدثنا أبو الأحوص عن سماك . عن خالد ابن عرعرة أن رجلاً قام إلى عليّ (رضى الله عنه) فقال : ألا تخبرنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال : لا ولكنه أول بيت وضع فى البركة . مقام إبراهيم من دخله كان آمنا وإن شئت أنبأتك كيف بنى ؟ : إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتا فى الأرض فضاق إبراهيم بذلك . ذرعا فأرسل الله (السكينة) وهى ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه . حتى انتهت إلى مكة فتطوت على موضع البيت . كطى الجحفة . وأمر إبراهيم أن ينبى حيث تستقر السكينة فبنى إبراهيم وبقى الحجر فذهب الغلام يبغى شيئا . فقال إبراهيم : لا ابغنى حجرا كما آمرك . قال : فانطلق الغلام يلتمس له حجرا . فأتاه به فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ؟ فقال : أتانى به من لم يتكل على بنائك ، جاء به جبريل (عليه السلام) من السماء ، فأتماه . . .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى : أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب . عن كعب

الأحبار . قال : كان البيت غثاءة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً ومنه دحيت الأرض . . قال سعيد : وحدثنا على بن أبى طالب : أن إبراهيم أقبل من أرض أرمينيه ومعد (السكينة) تدله على تبوء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتاً . . وقال : فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً فقلت : يا أبا محمد ، فإن الله يقول : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ قال كان ذلك بعد . .

وقال السدى : إن الله (عزوجل) أمر إبراهيم أن يبنى البيت هو وإسماعيل : ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت فبعث الله (ريحا) يقال (الريح الخجوج) لها جناحان ورأس فى صورة حية فكشفت لهما مما حول الكعبة من أساس البيت الأول وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس فذلك حين يقول تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ . ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ . فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن . قال إبراهيم لإسماعيل : يا بنى ، اطلب لى حجراً حسناً أضعه ههنا . قال : يا أبت إنى كسلان لغب . قال : علَىّ ذلك فانطلق يطلب له حجراً . وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند . وكان أبيض . ياقوتة بيضاء . مثل (الثغامة) وكان آدم هبط به من الجنة . فاسود من خطايا الناس فجاءه إسماعيل بحجر ، فوجده عند الركن . فقال : يا أبت من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك . فبنيا وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى إبراهيم ربه فقال : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ وفى هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت

كانت مبنية قبل إبراهيم وإنما هدى إبراهيم إليها وبوئ لها وقد ذهب إلى هذا ذاهبون كما قال الإمام عبد الرازق أخبرنا معمر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: (وإذ يرفع إبراهيم البيت وإسماعيل) قال: القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك..

وقال عبد الرازق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال: قال آدم: إنى لا أسمع الملائكة قال: بخطيئتك ولكن اهبط إلى الأرض فابن لي بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى في السماء فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: حداء، وطور زيتا، وطور سيناء. والجودى وكان ربضه من حداء. هذه أربعة وقد يكون الخامس حداء مرتين أو جبل لبنان. كما مر عند الطبرى. فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم (عليه السلام) بعد وهذا صحيح إلى عطاء ولكن في بعض نكارة والله أعلم.

وقال عبد الرازق أيضا أخبرنا معمر عن قتاده قال وضع الله البيت الحرام مع آدم (حين) أهبط الله آدم إلى الأرض وكان مهبطه بأرض الهند.

وقال ابن جرير أخبرنا ابن حميد أخبرنا يعقوب العمى عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفى عام ثم دحيت الأرض من تحت البيت.

وقال محمد بن إسحاق حدثنى عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد وغير من أهل العلم أن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من

الشام أو خرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر وإسماعيل طفل صغير وحملوا فيما حدثني على البراق ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم وخرج معه جبريل فكان لايمر بقرية إلا قال: أبهذا أمرت يا جبريل فيقول جبريل: أمض حتى قدم به مكة وهى إذاك عضاة وسلم سمر وبه إناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة فقال إبراهيم لجبريل أههنا أمرت أن أضعهما؟ قال نعم فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشا فقال: ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم.. ﴾ إلى قوله: ﴿ ...لعلهم يشكرون ﴾ «الآية ٣٧ من سورة إبراهيم».

وقال عبدالرازق أخبرنا هشام أخبرنا حميد عن مجاهد قال خلق الله موضع هذ البيت قبل أن يخلق شيئا بألفى سنة وأركانه فى الأرض السابعة وكذا قال الليث بن أسلم: عن مجاهد القواعد فى الأرض السابعة....

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا عمر بن رافع أخبرنا عبدالوهاب بن معاوية عن عبدالمؤمن بن خالد عن علباء بن أحمد: أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل فقال ما لكما ولأرضنا فقالا نحن عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة قال فهاتا بالبينة على ما تدعيان فقامت خمسة أكبش فقلن نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران أمراً ببناء هذه الكعبة فقال: رضيت وسلمت ثم مضى

وذكر الأزرقى فى تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم (عليه السلام) بالبيت وهذا يدل على تقدم زمانه والله أعلم . .

وقال البخارى (رحمه الله) قوله (تعالى) : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ . . . الآية القواعد أساسه وإحداها قاعدة : حدثنا إسماعيل حدثنى مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن محمد بن أبى بكر : أخبرنا عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبى (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال : [ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم فقلت يا رسول ألا نردها على قواعد إبراهيم ؟ قال لولا حدثان قومك بالكفر] فقال عبد الله بن عمر لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله (ﷺ) ما أرى رسول الله (ﷺ) ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام .

ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع قال سمعت عبدالله بن أبى بكر بن أبى قحافة يحدث عبد الله بن عمر عن عائشة عن النبى (ﷺ) قال لولا أن قومك حديثوعهد بجاهلية : أو قال بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر . .

وقال البخارى أيضاً عن الأسود قال : قال لى ابن الزبير : كانت عائشة تسر إليك حديثاً كثيراً فما حدثتك عن الكعبة ؟ قال : قالت لى : قال النبى (ﷺ) : يا عائشة ، لولا قومك حديث عهدهم فقال ابن الزبير بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين بابا يدخل منه الناس وبابا يخرجون منها : ففعله ابن الزبير ورواية مسلم فى صحيحه ولجعلت لها خلفاً .

وروایة له أیضـاً عن عائشة : قالت قال النبی (ﷺ) : [یا عائشة ، لولا قومك حدیثوا عهد بشرك لهدمت الکعبة وألزقتها بالأرض وجعلت لها باباً شرقیاً وباباً غربیاً وزدت فیها ستة أذرع من الحجر فإن قریشاً اقتصرتها حیث بنت الکعبة] .

ثم عقد ابن کثیر فصلاً تحت عنوان (ذکر بناء قریش الکعبة بعد إبراهیم الخلیل علیه السلام بمدد طویلة وقبل مبعث رسول الله (ﷺ) بخمس سنین) .

قال فیه : وقد نقل معهم فی الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه علیه دائماً إلی یوم الدین قال محمد بن إسحاق بن یسار فی السیرة : ولما بلغ رسول الله (ﷺ) خمساً وثلاثین سنة اجتمعت قریش لبنیان الکعبة وکانوا یهمون بذلك لیسقفوها ویهابون هدمها وإنما کانت رضماً فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقیفها وذلك أن نفراً سرقوا کنز الکعبة وإنما کان یکون فی بئر فی جوف الکعبة وکان الذی وجد عنده الکنز (دویك) مولی بنی ملیح بن عمر من خزاعة فقطعت قریش یده ویزعم الناس أن الذین سرقوه وضعوه عند دویك وکان البحر قد رمی بسفینة إلی جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقیفها وکان بمکة رجل قبطی نجار فهیأ لهم فی أنفسهم بعض ما یصلحها . وکانت (حیة) تخرج من بین بئر الکعبة التی کانت تطرح فیها ما یهدی لها کل یوم فتشرف علی جدار الکعبة وکانت مما یهابون وذلك أنه کان لا یدنو أحد منها إلا احذألت وکشت

وفتحت فاها وكانوا يهابونها فبينما هى يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها قام ابن وهب بن عمر بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس قال ابن إسحاق والناس ينتحلون هذ الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قال: ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليها وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم.. ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم فى هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننتظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شئ فقد رضى الله ما صنعناه فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس. أساس إبراهيم (عليه السلام) أمضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضا

قال : فحدثني بعض من يروى الحديث بأن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضاً أحدها فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس . . .

قال ابن إسحاق ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن - يعني الحجر الأسود - فاختصموا فيه كل قبيله تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب ابن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا (لعقة الدم) فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناسقوا فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم - وكان عامئذ أسن قريش كلهم قال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل باب هذا المسجد يقضى بينكم ففعلوا فكان أول داخل رسول الله (ﷺ) فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا هذا محمد فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال (ﷺ) هلموا إليَّ ثوباً فأخذ الركن يعني الحجر الأسود فوضعه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده (ﷺ) ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله (ﷺ) قبل أن ينزل عليه الوحى (الأمين) فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب - فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عجبت لما تصوبت العُقاب	إلى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت بكون لها كشيش	وأحيانـاً يـكـون لـهـا وثـاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت	تـهـيـبـنـا الـبـنـاء وقـد تـهـاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت	عقاب تتلئب لها انصباب
فـضـمـتـهـا إلـيـهـا ثـم خـلـت	لنا البنيان ليس لها حجاب
فـقـمـنـا حـاشـديـن إلـى بـنـاء	لـنـا مـن الـقـواعـد والـتـراب

إلى آخر الأبيات...

قال ابن إسحاق: « وكانت الكعبة على عهد النبى (ﷺ) ثمان عشرة ذراعـا وكانت تكسى القباطى ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الحجاج بن يوسف ». قلت ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة سنتين وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير فحينئذ نقضها ابن الزبير. وبناها على قواعد ابراهيم عليه السلام. وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابـاً شرقيـاً وبابـاً غربيـاً ملصقين بالأرض. كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين. عن رسول الله (ﷺ) ولم تزل كذلك مدة إقامته حتى قتله الحجاج فردها إلى ما كانت عليه. بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم فى صحيحه أخبرنا هناد بن السرى عن عطاء.

قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حيث غزاها أهل الشام. فكان من أمرها ما كان تركه ابن الزبير حتى قدم الناس

الموسم . يريد أن يحزبهم أو يجبرهم على أهل الشام فلم صدر الناس . قال : يا أيها الناس . أشيروا على فى الكعبة . أنقضها ثم إبن بناءها أو أصلح ما وهى منها ؟ قال ابن عباس : أنه قد خرق لى رأى فيها أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه . وأحجاراً أسلم الناس عليها . وبعث عليها النبى (ﷺ) . فقال ابن الزبير لو كان أحدهم احترق بيته مارضي حتى يجدده . فكيف بيت ربكم (عز وجل) إنى مستخير ربى ثلاثاً ، ثم عازم على أمرى فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها فتحاماها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة . فلما لم يره الناس أصابه شئ تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض فجعل ابن الزبير أعمدة يسترعليها الستور حتى ارتفع بناؤه .

وقال ابن الزبير : إنى سمعت عائشة (رضى الله عنها) . تقول : إن النبى (ﷺ) قال : [لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر ، وليس عندى من النفقة مايقوينى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه ، وباباً يخرجون منه] قال : فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس . قال فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر . حتى أبدى له أُساً نظر الناس إليه فبنى عليه البناء . . وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً فلما زاد فيه استقصره . فزاد فى طوله عشرة أذرع .

وجعله له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره أن ابن

الزبير قد وضع البناء على أسس نظر إليه العدول من أهل مكة.. فكتب إليه عبد الملك: أما ما زاده في طوله فأقره وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذى فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه..

وقد كانت السُّنة إقرار ما فعله عبدالله بن الزبير (رضى الله عنهما) لأنه هو الذى وده رسول الله (ﷺ) ولكن خشى أن تنكره قلوب بعض الناس؛ لحداثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر ولكن خفيت هذه السُّنة على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله (ﷺ).

قال: وددنا أنا تركناه. وما تولى) كما قال مسلم: قال عبد الله بن عبيد وفد الحارث بن عبيد الله على عبدالملك بن مروان. فى خلافته فقال عبد الملك ما أظن أبا حبيب - يعنى ابن الزبير - سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها... قال الحارث: بلى. أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله (ﷺ): [إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثه عهدهم بالشرك أعدت ماتركوا منه فإن بدا لقومك - من بعدى - أن يبنوه. فهلمى لأريك ماتركوا منه فأرها قريبا من سبعة أذرع].. هذا حديث عبدالله بن عبيد بن عمير... وزاد عليه (الوليد بن عطاء: قال النبى (ﷺ) [... ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض شرقيًا وغربيًا..] وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟] قالت: لا. قال: [تعززا أن لا يدخلها إلا من أرادوا فكان الرجل إذا هو

أراد هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقى حتى إذا كاد أن يدخل، دفعوه فسقط] قال عبدالملك : فقلت للحارث : أنت سمعتها تقول هذا؟ قال : نعم. قال : فنكث ساعة بعصاه . ثم قال : وددت أنى تركت وما تحمل .

... وفى رواية أخرى : (قال : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه ؛ لتركته على مابنى ابن الزبير) .

فدل هذا : على صواب ما فعله ابن الزبير . فلو ترك لكان جيداً ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذ الحال . فقد كره بعض العلماء . أن يغير عن حاله . كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد . أو أبيه المهدى . أنه سأل الإمام مالكاً عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير ؟ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها) فترك ذلك الرشيد .

... ويقول ابن كثير عن تفسيره لقوله (تعالى) من سورة الحج صدر الآية ٢٦ [(١)] .

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ : أى : أرشده إليه . وسلمه له وأذن له فى بنائه ...

واستدل به كثير ممن قال : (إن إبراهيم (عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق . كما ثبت فى الصحيح . عن أبى ذر : قلت : يارسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام : قلت : ثم

(١) تفسير القرآن العظيم / الجزء الثالث ص ٢٠٦ .

أى؟ قال: بيت المقدس. قلت: كم كان بينهما؟. قال: أربعون سنة).

وعن تفسيره لقوله (تعالى) من سورة ابراهيم الآية ٣٧:

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾.

يقول ابن كثير: وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان... بعد الدعاء الأول الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولده، وذلك قبل بناء البيت وهذا كان بعد بنائه. ولهذا قال ﴿ عند بيتك المحرم ﴾.

والدعاء الأول. الذى يشير إليه ابن كثير. هو ماجاء فى تفسيره للآية السابقة ٣٥ ﴿ (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذ البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ (فعرفه [١] لأنه دعا به بعد بنائها[٢] ولهذا قال: ﴿ الحمد الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾[٣] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً. فقال ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾[٤] كما ذكرنا فى سورة البقرة[٥]

---

(١) فعرّفه: عرف لفظ (بلد) بالألف واللام (البلد)

(٢) لا بد أن يكون مراده: (بعد بناء الكعبة)

(٣) الآية ٣٩ من سورة إبراهيم.

(٤) الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

(٥) تفسير القرآن العظيم/ الجزء الثانى ص ٥٢٢.

والذى ذكره ابن كثير فى سورة البقرة. هو:

وقوله (تعالى) إخباراً عن الخليل. أنه قال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾. أى: اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا [1] لأنه قبل بناء الكعبة..

وقال (تعالى) فى سورة إبراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ وناسب هذا هناك [2]. لأنه - والله أعلم - لأنه وقع دعاء مرة ثانية. بعد بناء البيت واستقرار أهله به وبعد مولد إسحاق. الذى هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ولهذا قال فى آخر الدعاء: ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء﴾ [3].

والعبارات كما نرى مضطربة. ولكنا نستطيع أن نأخذ منها مايلى:

أولاً: أن بناء البيت الحرام لم يكن قبل أن يترك إبراهيم هاجر وابنهما إسماعيل فى موضع مكة. ويعود إلى الشام، وإسماعيل طفل يرضع.. وهذا هو المعقول لأن إسماعيل كان طفلاً رضيعاً. حين أتى به أبوه مع أمه هاجر من الشام... وحين تركها وعاد إلى الشام ويلزم من هذا أن يكون إبراهيم وإسماعيل، رفعا قواعد

---

(1) وناسب هذا هناك يعنى: مجئ لفظ (بلد) معرفا بالألف واللام.

(2) تفسير القرآن العظيم / الجزء الأول ص ١٦٦.

(3) وناسب هذا: يعنى: مجئ لفظ (بلد) بدون تعريفا بالألف واللام.

البيت، وأثنا بناءه بعد أن شب إسماعيل وأصبح قادراً على مشاركة أبيه كما هو التسلسل التاريخي في روايات حديث ابن عباس الذي ذكرناه..

ثانياً: أن ابن كثير يقرر: أن دعاء إبراهيم لأهله. ولأهل مكة كان ثلاث مرات ومن المعقول أن يكون الدعاء الأول لإبراهيم عندما ترك هاجر وإسماعيل في مكان - مكة - قبل بناء البيت الحرام وهو ماجاء في قوله (تعالى) من سورة إبراهيم الآية ٣٧.

: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾.

لأن ألفاظ هذا الدعاء: ﴿ أسكنت من ذريتي ﴾ و﴿ بواد غير ذي زرع ﴾ و ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ و﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾. هذه العبارت ترشح هذا وتناسبه. وتتوافق مع مايطلبه سيدنا إبراهيم لأهله ومن ذريته..

أما الدعاء الذي اختاره ابن كثير لهذا الموقف وهو قوله(تعالى) في سورة البقرة الآية ١٣٦:

﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و بيوم الآخر ﴾ فهو دعاء يناسب ما يطلبه لأهل مكة جميعاً، ولا يناسب أن يكون قد دعا به - دون ذاك الدعاء: وهو في غمرة المشاعر الحزينة بترك ابنه البكر الوحيد والذي تمناه وحرم منه طوال سنوات عديدة في هذا المكان القفر الذي لا أنيس فيه، ونرجح أن

يكون قد دعا به . حين جاء من الشام ليطالع تركته . فى مكة بعد زواج إسماعيل فى المرة الأولى . أو بعد زواج إسماعيل فى المرة الثانية وقبل بناء البيت الحرام ويكون الدعاء الثالث لأهل مكة . حين جاء من الشام لتنفيذ أمر الله برفع قواعد البيت هو وإسماعيل . فرفعا القواعد وأتما البناء وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السمع العليم ﴾ ثم يدعو إبراهيم بعد هذا بقوله :

﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام ﴾ . .

وربما كانت عبارة ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ فى الآية الكريمة ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ هى التى جعلت ابن كثير كما جعلت غيره يقرر أن هذا الدعاء كان بعد بناء البيت ولكن تأويلها ميسور معقول كما فعل غيره من المفسرين . . والله أعلم . . .

ثم لنا على ما جاء فى تفسير ابن كثير الملاحظات التالية :

الملاحظة الأولى : أفاد ابن كثير أن بعض المفسرين ، يقولون : إن الذى كان يرفع القواعد هو إبراهيم . أما إسماعيل . فكان يدعو الله فقط .

وعلى هذا القول . فإن معنى الآية الكريمة عندهم يكون هكذا :

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل [يقول] ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) . .

وقد رد ابن كثير على هذ بقوله : والصحيح أنهما كانا يرفعان

ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) واستدل على رده هذا بملحظ جميل . حين قال : (فهما فى عمل صالح وهما يسألان الله (تعالى) أن يتقبل منهما) . .

وأضيف إلى دليل ابن كثير . دليلاً آخر جاء فى حديث ابن عباس حين قال : (ثم إنه بدا لإبراهيم فقال : إنى مطلع تركتى . فجاء فوافق إسماعيل وراء زمزم يصلح نبلا له فقال لأهله : يا إسماعيل ، إن ربك (عز وجل) أمرنى أن أبنى له بيتاً ، فقال : أطع ربك (عز وجل) . فقال : أنه قد أمرنى أن تعيننى عليه ، قال : إذن أفعل) . .

ولا يعقل أن تكون معونة إسماعيل لأبيه فى رفع القواعد من البيت هو مجرد الدعاء كما قال هذا البعض من المفسرين وبخاصة حين تكون المعونة أمرا من الله (عز وجل) لإسماعيل . .

(الملاحظة الثانية) : ترتبط بالملاحظة السابقة نراها فى كلمات لإبراهيم ، قالها لإسماعيل حين كانا يبنيان البيت الحرام ، وذلك فى خبر (هناد بن السرى عن على بن أبى طالب) :

(الكلمة الأولى) . . . (فبنى إبراهيم وبقى الحجر ، فذهب الغلام يبغى شيئاً ، فقال إبراهيم (لا أبغنى حجراً كما آمرك) . . .

(الكلمة الثانية) : (فانطلق الغلام يلتمس له حجراً فأتاه به فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه . فقال يا أبت : من أتاك بهذا الحجر ؟ فقال (أتانى به من لم يتكل على بنائك) جاء به جبريل (عليه السلام) من السماء فأتمه .

ونراها كذلك فى كلمات لإبراهيم وإسماعيل، حين كانا يبنيان البيت... رواها ابن جرير عن السدى. وهى: (قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى اطلب حجرا حسنا أضعه هنا) قال: (يا أبت إنى كسلان لغب) قال (علىَّ ذلك) فانطلق يطلب له حجرا وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند وكان آدم هبط به من الجنة.. فجاءه إسماعيل بحجر، فوجده عند الركن. فقال: يا أبت، من جاءك بهذا؟ قال: جاء من هو أنشط منك... فبنيا وهما يدعوان..)...

فهذه الكلمات تقرر أن إبراهيم وإسماعيل. بنيا معا البيت وأتماه.. ولكن عبارة (فبنى إبراهيم) فى الكلمة الأولى وإن كانت تفيد أن الذى كان يبنى هو إبراهيم. فإنها ليست قاطعة فى ذلك إلى جانب أن بقية الكلمة تؤكد أن إسماعيل كان يعاونه بنقل الأحجار إليه.. ورفع القواعد لايتم إلا بنقل الأحجار والبناء كما أوضح بعض المفسرين..

وعن الحجر الأسود قيل فى الكلمة الثانية: أن جبريل أتى به من السماء.

وقيل فى الكلمة الثالثة: أن جبريل أتى به من الهند. وكان آدم هبط به من الجنة. ولم يحاول ابن كثير أن يفسر هذا الاختلاف..

ثم إن عبارات: (لا أبغنى حجراً كما آمرك) و(أتانى به من لم يتكل على بنائك).. (علىَّ ذلك) و(جاء به من هو أنشط منك) التى قالها إبراهيم لإسماعيل وهما يبنيان.. وقول إسماعيل لأبيه

إبراهيم وهما يبنيان: (يا أبت إني كسلان لغب)...

هذه العبارات.. لا يسلم العقل تماماً. أنها قيلت من الأب لابنه، ومن الابن لأبيه لأنها تتناقض تماماً.. مع موافقة إسماعيل على أن يعين أباه إبراهيم في بناء البيت حين طلب منه إبراهيم أن يعينه على ذلك.. وتتناقض أيضا مع أمره الله سبحانه.. بأن يعين إسماعيل أباه إبراهيم كما جاء في الحديث. وهذا التناقض. يرجح أنها لم تكن.. والله أعلم.

الملاحظة الثالثة: سبق أن أشرنا إليها على ماجاء في تفسير الطبرى. عن على بن أبي طالب وعن مجاهد وغيره من العلماء... فقد نقله ابن كثير وأضاف إليه قول السدى (إن الله (عز وجل) أمر إبراهيم أن يبنى البيت هو وإسماعيل.. فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة. فقام هو وإسماعيل. وأخذا المعاول... الخ) وقد قلنا: (إن الله (تعالى) لا يكلف إسماعيل وهو طفل رضيع بمعاونة أبيه في هذا البيت.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ولو أن الله (سبحانه وتعالى) أراد هذا لهيأ لهذا الطفل الرضيع من الأسباب والقدرات ما يحقق بها هذا التكليف بمعاونة أبيه.. ولكن هذا لم يحدث. ولم يرده الله (عزوجل سبحانه) ولهذا فإن من المعقول إذا كان هذا التكليف قد حدث. فإنه يكون تكليفا يطلب الله تنفيذه بعد بلوغ إسماعيل وحين يصبح قادرا على رفع القواعد مع أبيه ويكون صدور هذ التكليف وإسماعيل طفل يرضع. للإعداد لأمر جليل. وهو بناء البيت الحرام.. والله أعلم.

وقد رد ابن كثير على ماجاء في رواية علي بن أبي طالب : بقوله : (ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما وقد يحتمل أنه كان محفوظاً : أن يكون أولاً وضع له حوطاً وتحجيراً ، لا أنه بناه إلى أعلاه . حتى كبر إسماعيل فبنياه معاً ، كما قال الله تعالى . . .) .

أما القرطبي فيقول عند تفسيره للآية الكريمة:

﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[1].

قيل: إن القواعد كانت قد اندرست فأطلع الله إبراهيم عليها.

واختلف الناس فيمن بنى البيت أولاً وأسسه؟

فقيل: الملائكة، روى عن جعفر بن محمد. قال: سئل أبي وأنا حاضر عن بدء خلق البيت؟ فقال: إن الله (عزوجل) لما قال: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾. قالت الملائكة ﴿ ... أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (الآية ٣٠ من سورة البقرة) فغضب عليهم فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى رضى الله عنهم. وقال لهم: ابنوا لي بيتاً في الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بني آدم، ويطوف حوله، كما طفتم حول عرشي فأرضى عنه كما رضيت عنكم فبنوا هذا البيت.

وقيل: بناه آدم. ذكر عبد الرازق عن ابن جريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهما: أن الله (عز وجل). أوحى إلى آدم: إذا هبطت. ابن لي بيتاً، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشي الذي في

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الأول / الجزء الثاني ص ١٢٠: ١٢٥

السماء. قال عطاء: فزعم الناس أنه من خمسة أجبل من حراء ومن سينا ومن لبنان ومن الجودى ومن طور ذيتاً، وكان ربضه من حراء. قال الخليل: (والربض هاهنا: الأساس المستدير بالبيت من الصخر) أى: مثل السور الذى يحيط بالبيت أو بأى مبنى.

وذكر الماوردى عن عطاء عن ابن عباس. قال: لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له الله (عز وجل): يا آدم، اذهب فابن لى بيتاً وطف به. واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة. تصنع حول عرشى. فأقبل آدم يتخطأ وطويت له الأرض وقبضت له المفاوز فلا يقع قدمه على شئ من الأرض إلا صار عمراناً. حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام. وأن جبريل (عليه السلام) ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أُس ثابت على الأرض. وقذفت إليه الملائكة بالصخر: فما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلاً.

وقد روى فى بعض الأخبار: أنه أهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده حتى رفعه الله فصار فى السماء. وهو الذى يدعى: (البيت المعمور) روى هذا عن قتادة: ذكره الحليم فى كتاب (منهاج الدين) له. وقال: يجوز أن يكون معنى ما قاله قتاده: أى أهبط معه مقدار البيت المعمور: طولاً وعرضاً وسمكاً.. ثم قيل له: ابن بقدره.. ويجوز أن يكون (بحياله) فكان (حياله) موضع الكعبة. فبناه فيه... فتتفق هذه الأخبار فهذابناه آدم (عليه السلام) ثم بناه إبراهيم (عليه السلام).

قال ابن جريج : وقال ناس : أرسل الله سحابة . فيها رأس فقال الرأس : يا إبراهيم إن ربك يأمرك . أن تأخذ بقدر هذه السحابة فجعل ينظر إليها ويخط قدرها . ثم قال الرأس : أنه قد فعلت فحفر فأبرز عن أساس ثابت في الأرض .

وروى عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : أن الله (تعالى) لما أمر إبراهيم بعمارة البيت . خرج من الشام . ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر وبعث معه السكينة ـ بفتح فكسر ـ : ريح خجوج . أي : سريعة المر ـ لها لسان تتكلم به : يغدو معها إبراهيم إذا غدت ويروح معها إذا راحت . حتى انتهت به إلى مكة . فقالت لإبراهيم : ابن على موضعي الأساس . فرفع البيت هو وإسماعيل . حتى انتهى إلى موضع الركن . فقال لابنه : يابني ابغني حجراً أجعله علماً للناس . فجاءه بحجر فلم يرضه . وقال : أبغني غيره . فذهب يلتمس . فجاءه وقد أتي بالركن . فوضعه موضعه . فقال : يا أبت من جاءك بهذا الحجر ؟ قال من لم يكلني إليك . . .

قال ابن عباس : صاح (أبو قبيس) اسم الجبل المشرف على مكة ـ يا إبراهيم ، ياخليل الرحمن إن لك عندي وديعة . فخذها . فإذا هو بحجر أبيض . من ياقوت الجنة كان آدم قد نزل به من الجنة [1] . فلما رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت . جاءت سحابة مربعة فيها رأس فنادت : أن ارفعا على تربيعي . فهذا بناء إبراهيم عليه السلام .

(1) هذا الحجر الأبيض من ياقوت الجنة . هو الحجر الأسود . أسود فيم بعد من عمل الناس كما سيأتي .

وروى أن إبراهيم وإسماعيل لما فرغا من بناء البيت أعطاهما الله (الخيل) جزاء عن رفع قواعد البيت.

روى الترمذى الحكيم عن ابن عباس. قال: كانت الخيل وحشاً كسائر الوحوش فلما أذن الله لإبراهيم وإسماعيل. برفع القواعد. قال الله (تبارك اسمه): إنى معطيكما كنزاً ادخرته لكما. ثم أوحى إلى إسماعيل: أن اخرج إلى أجياد. فادع بأنك الكنز. فخرج إلى أجياد - وكانت وطناً ولا يدرى ما الدعاء. ولا الكنز فألهمه الله فلم يبق فرس بأرض العرب. إلا جاءته فأمكنته من نواصيها. وذللها له. فاركبوها واعلفوها فإنها ميامين وهى ميراث أبيكم إسماعيل: فإنما سمى الفرس عربياً لأن إسماعيل أمر بالدعاء. وإياه أتى[1]...

وروى عبد المنعم بن إدريس، عن وهب بن منبه. قال: أول من بنى البيت بالطين والحجارة شيث (عليه السلام). وأما بنيان قريش له فمشهور وخبر الحية فى ذلك مذكور وكانت تمنعهم من هدمه إلى أن اجتمعت قريش عند المقام فعجوا إلى الله (تعالى). وقالوا: (ربنا لم ترع أردنا تشريف بيتك وتزيينه. فإن كنت ترضى بذلك. وإلا فما بدالك فافعل فسمعوا خواتاً من السماء - والخوات: حفيف جناح الطير الضخم: فإذا هو بطائر أعظم من النسر أسود الظهر أبيض البطن والرجلين فغرز مخالبه فى قفا الحية ثم انطلق بها تجر ذنبها أعظم من كذا وكذا حتى انطلق بها نحو أجياد... فهدمتها قريش

(١) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا. وقد ذكر هذه الرواية ابن حجر فى (فتح البارى المجلد الثالث ص ٤٤١).

وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي تحملها قريش على رقابها فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً.

(وشارك النبي (ﷺ). قريشاً في ذلك وكان يحمل الحجارة من أجياد على عاتقه)[1].. وكان بين بنيان الكعبة وبين ما أنزل عليه (ﷺ) خمس سنين وبين خروجه وبنائها. خمس عشرة سنة. حتى إذا بنوها وبلغوا الركن.

اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه حتى شجر بينهم. فقالوا نحكم أول من يطلع علينا من هذه السكة. فاصطلحوا على ذلك فأطْلَعَ عليهم رسول الله (ﷺ) وهو غلام عليه وشاح نمرة - وشاح نمرة: كل شملة مخططة من مآذر العرب - فحكموه. فأمر بالركن. (وواضح أن الركن هذا هو الحجر الأسود). فوضع في ثوب ثم أمر سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب. ثم ارتقى هو. فرفعوا إليه الركن فكان هو يضعه (ﷺ).

قال ابن إسحاق: وحدثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود فإذا فيه (أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتهما بسبعة أملاك حفاً لا تزول حتى يزول أخشباها - الأخشبان: الجبلان المطغيان بمكة وهما أبو قبيس والأحمر - مبارك لأهلها في الماء واللبن.

(١) هذه العبارة اختصار لسطور ذكرها القرطبي ص ٢٣

وعن أبى جعفر محمد بن على . كان باب الكعبة على عهد العماليق وجُرهم وإبراهيم (عليه السلام) بالأرض . حتى بنته قريش . . .

خرج مسلم . عن عائشه (رضى الله عنها) قالت : سألت رسول الله (ﷺ) عن الجدر (الجدر : بفتح الجيم ، وإسكان الدال ـ حجر الكعبة ـ بكسر الحاء) : أمن البيت هو ؟ قال : نعم . . قلت فلم لم يدخلوه فى البيت . قال : [إن قومك قصرت بيهم النفقة] .

قلت : فما شأن بابه مرتفعاً ؟ قال : [فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، ولولا أن قومك حديث عهدهم فى الجاهلية ، فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابه بالأرض] .

وخرج عن عبدالله بن الزبير (رضى الله عنه) قال : حدثتنى خالتى ـ يعنى عائشة رضى الله عنها ـ قالت : قال النبى (ﷺ) : [يا عائشه ، لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة ، فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين شرقياً وغربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً اقتصرتها حين بنت الكعبة] .

وفى البخارى : قال هشام بن عروة : لما غزا أهل الشام عبدالله بن الزبير ووهت الكعبة من حريقهم . هدمها ابن الزبير . وبناها على ما أخبرته عائشه ، وزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى أساس نظر الناس إليه فبنا عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة أذرع و جعل لها بابين

أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه.. كذا في صحيح مسلم وألفاظ الحديث تختلف.

وذكر سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد. قال: لما أراد ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيه[1] قال الناس: اهدموا. قال: فأبوا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب قال مجاهد فخرجنا إلى منى. فأقمنا بها ثلاثا ننتظر العذاب.. قال: وارتقى ابن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه.. فلما رأوا أنه لم يصبه شئ اجترءوا على ذلك قال فهدموا فلما بناها جعل لها بابين وزاد فيه مما يلي الحجر ستة أذرع وزاد في طولها تسعة أذرع وذكر (الواقدى): أول من كسا البيت (أسعد الحميرى) وهو (تبع الآخر)[2]..

قال ابن إسحاق: كانت تكسى (القباطى)[3] ثم كسيت البرد وأول من كساها الديباج (الحجاج) قال العلماء: ولا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شئ فإنه مهدى إليها.. ولا ينقص منها شئ روى عن سعيد بن جبريل: أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به وكان إذا رأى الخادم يأخذ منه قفدها قفدة[4] لا يألو أن يوجعها. وقال عطاء: كان أحدنا إذا أراد أن يستشفى به جاء بطيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه. قوله (تعالى): ﴿ ربنا تقبل منا

(١) كذا في الأصل ولعل تذكير الضمير، على معنى: البيت.
(٢) علم يطلق على الملك في حمير = سبأ = باليمن قديما.
(٣) القباطى: جمع قبطية بضم القاف. ثياب من كتان. بيض رقاق. تعمل بمصر. وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس.
(٤) القفد (فتح فسكون) صفع القفا ببطن الكف.

إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾[1] المعنى : ويقولان ربنا . فحذف .

وتفسير إسماعيل : (اسمع يا الله) لأن (إيل) بالسريانية ، هو الله فقيل : (إن إبراهيم لما دعا ربه ، قال : اسمع يا إيل . فلما أجابه ربه ورزقه الولد . سماه بما دعاه) .

﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ . اختلف العلماء فى المراد بالمناسك هنا . فقيل : مناسك الحج ومعالمه قاله قتادة والسدى .

وقال مجاهد وعطاء وابن جريح : المناسك : المذابح . أى مواضع الذبح . .

وقيل : جميع المتعبدات وكل ما يتعبد به إلى الله (تعالى) : يقال له منسك ومنسك والناسك العابد . .

وعن زهير بن محمد . قال : لما فرغ إبراهيم عليه السلام . من بناء البيت الحرام . قال : أى رب قد فرغت فأرنا مناسكنا فبعث الله تعالى إليه . جبريل فحج به حتى إذا رجع من عرفه . وجاء يوم النحر . عرض له إبليس . فقال له أحصبه . فحصبه بسبع حصيات ثم الغد ثم اليوم الثالث . ثم علا ثبيراً [2] فقال : يا عباد الله أجيبوا فسمع دعوته من بين الأبحر ممن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقال لبيك اللهم لبيك .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة البقرة . عقب الآية ١٢٧ ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ .

(٢) ثبير : أعظم جبل بمكة بينها وبين عرفة .

وعن أبي مجلز. قال: لما فرغ إبراهيم من البيت، جاءه جبريل (عليه السلام) فأراه الطواف بالبيت.

قال: وأحسبه قال: والصفا والمروة.

ثم انطلقا إلى (العقبة)[1] فعرض لهما الشيطان. فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات فرمى وكبر وقال لإبراهيم: ارم وكبر فرميا كبر مع كل رمية حتى أفل الشيطان.

ثم انطلقا إلى (الجمرة الوسطى) فعرض لهما الشيطان. فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات. وقال ارم وكبر. فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان..

ثم أتيا (الجمرة القصوى) فعرض لهما الشيطان فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات. وقال ارم وكبر. فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان..

ثم أتى به (جمعاً) المزدلفة فقال: هاهنا يجمع الناس الصلوات.

ثم أتى به (عرفات) فقال: عرفت؟ فقال: نعم: فمن ثم سمي عرفات... وروى: أنه قال له: عرفت... عرفت... عرفت؟ أي: منى. والجمع. وهذا... فقال: نعم فسمي ذلك المكان.. عرفات..

وعن خصيف بن عبدالرحمن: أن مجاهد حدثه. قال: لما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أرى: (الصفا والمروة) وهما من شعائر الله بنص القرآن ثم خرج به جبريل. فلما مر بجمرة

(١) يعني جمرة العقبة.

العقبة. إذا إبليس عليها: فقال له جبريل: كبر وارمه. فارتفع إبليس إلى الوسطى. فقال جبريل: كبر وارمه. ثم فى الجمرة القصوى كذلك.

ثم انطلق به إلى المشعر الحرام..

ثم أتى بـه عرفة. فقال له: هـل عرفت ما أريتك. قال: نعم. فسميت عرفات لذلك فيما قيل...

قال: فأذن فى الناس بالحج. قال: كيف أقول؟ قال قل: يا أيها الناس أجيبوا ربكم ثلاث مرات ففعل.. فقالوا: لبيك اللهم لبيك.. قال: فمن أجاب يومئذ فهو حاج..

وفى رواية أخرى: أنه حين نادى استدار فدعا فى كل وجه فلبى الناس فى كل مشرق ومغرب.. وتطأطأت الجبال حتى مُدَّ صوته

وقال محمد بن إسحاق: لما فرغ إبراهيم (خليل الرحمن صلوات الله عليه) من بناء البيت الحرام. جاءه جبريل عليه السلام فقال له: طف به سبعا فطاف به سبعا وهو وإسماعيل (عليهما السلام) يستلمان الأركان كلها فى كل طواف... فلما أكملا سبعاً صليا خلف المقام ركعتين.. قال: فقام جبريل فأراه المناسك كلها.

قال : فلما دخل منى . . وهبط من العقبة تمثل له إبليس فذكر نحو ماتقدم قال ابن إسحاق : وبلغنى أن آدم (عليه السلام) كان يستلم الأركان كلها . قبل إبراهيم (عليه السلام) وقال : حج إسحاق . وسارة أمه من الشام . . .

وكان إبراهيم (عليه السلام) يحجة كل سنة . على البراق وحجه بعد ذلك الأنبياء . والأمم . .

وروى محمد بن سابط . عن النبي (ﷺ) أنه قال : [كان النبى من الأنبياء إذا هلكت أمته . لحق مكة . فتعبد بها . هو ومن آمن معه . حتى يموتوا . . . فمات بها : نوح . . . وهود . . . وصالح . . . وقبورهم بين زمزم والحِجْر] .

وذكر ابن وهب : أن شعيبا مات بمكة . هو ومن معه من المؤمنين فقبورهم فى غربى مكة بين دار الندوة . وبين بنى سهم . . .

وقال ابن عباس : فى المسجد الحرام . قبران . ليس فيه غيرهما : قبر إسماعيل . وقبر شعيب (عليهما السلام) فقبر إسماعيل فى الحجر وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود . . . وقال عبد الله بن ضمرة السلولى : ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبياً . جاءوا حجاجاً فقبروا هنالك . . صلوات الله عليهم أجمعين) . .

ثم جاء عند تفسيره لقوله (تعالى) من سورة إبراهيم الآية ٣٧ [(١)]

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾.

(وقد روى: أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل. خرج بها إبراهيم (عليه السلام) إلى مكة فروى أنه ركب البراق. هو وهاجر والطفل. فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة. وترك ابنه وأمه هنالك. وركب منصرفاً من يومه... فكان ذلك كله بوحي من الله (تعالى) فلما ولى دعا بضمن الآية)..

وجاء أيضاً: (لما أراد الله تأسيس الحال. وتمهيد المقام وخط الموضع للبيت المكرم والبلد المحرم. أرسل الملك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء وفي الصحيح: أن أبا ذر (رضي الله عنه) اجتزأ به ثلاثين من يوم وليلة... قال أبو ذر: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم..

وروى الدارقطني. عن ابن عباس. قال: قال رسول الله (ﷺ): [ماء زمزم لما شُرب له: إن شربته تشتفى به. شفاك الله. وإن شربته لشبعك. أشبعك الله. وإن شربته لقطع ظمئك قطعه.. وهي هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل].

وروى عن عكرمة. قال: كان ابن عباس إذا شرب من زمزم. قال

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الخامس ص ٣٧٠، ٣٧١.

:(اللهم إني أسألك علما نافعًا . ورزقًا واسعًا وشفاء من كل داء) . . قال ابن العربي : (وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة . لمن صحت نيته . وسلمت طويته . ولم يكن به مكذبا ولا يشربه مجربا وروى عن عبد الله بن عمرو : (وإن فى زمزم عينا فى الجنة . من قبل الركن) . .

وقوله تعالى : ﴿ ومن ذريتى ﴾ من للتبعيض : أى أسكنت بعض ذريتى . يعنى إسماعيل وأمه . لأن إسحاق كان بالشام . . . وقيل : هى صلة : أى أسكنت ذريتى . . .

. . . وقول القرطبى : (واختلف الناس فيمن بنى البيت أولا وأسسه ؟ فقيل الملائكة روى عن جعفر بن محمد . قال : سئل أبى وأنا حاضر . عن بدء خلق البيت ؟ قال : إن الله (عز وجل) لما قال ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . قالت الملائكة ﴿ . . . أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (الآية ٣٠ من سورة البقرة) .

فغضب عليهم . فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى رضى عنهم وقال لهم : ابنوا لى بيتًا فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه . من بنى آدم ويطوف حوله . كما طفتم حول عرشى فأرضى عن . كما رضيت عنكم . فبنوا هذا البيت) .

هذه الرواية لجعفر بن محمد . تضيف رأيًا جديدًا . إلى الآراء التى أتى بها ابن كثير والطبرى وهو أن الملائكة أول من بنى البيت

الحرام وأسسه . . . وهي إضافة منه في تكريم البيت الحرام . ورفع شأنه . إلى جانب تكريمه بأن الله أهبطه من السماء إلى الأرض مع آدم على رأي . . . أو بأنه كان ياقوتة من ياقوت الجنة . .

وفي هذه الإضافة منحة ربانية من الله (عز وجل) لعباده وبخاصة من سخط الله عليهم في الطواف بالبيت الحرام . . . والصلاة فيه والتعوذ به ليس فقط استجابة لأمر الله (تعالى) في أداء فريضته وإنما أيضا طلبا لعفوه ورضاه . في غير أوقات الحج والعمرة ثم روى القرطبي عن علي بن أبي طالب : (فرفع إبراهيم البيت هو وإسماعيل حتى انتهى إلى موضع (الركن) فقال لابنه : يا بني أبغني حجرا أجعله علما للناس فجاءه بحجر فلم يرضه . وقال : أبغني غيره . . فذهب يلتمس . فجاءه وقد أتى (بالركن) . فوضعه موضعه فقال : يا أبت . من جاءك (بهذا الحجر) ؟ فقال من لم يكلني إليك) . . .

ونضيف إلى هذ ما صرح به الطبري عن السدي : (. . فلما بنيا القواعد . فبلغا (مكان الركن) قال إبراهيم لإسماعيل : يا بني أطلب حجرا . فجاءه إسماعيل بحجر .

هذ الكلام لعلي بن أبي طالب . والسدي يوضح مدى حرص سيدنا إبراهيم على العناية الكاملة ببناء البيت . وبذل غاية الجهد في إتمامه . على أكمل وجه يقدر عليه إبراهيم حتى في اختيار مواد البناء . . .

ونوضح ـ كذلك ـ حرص إسماعيل على طاعة أبيه فى العناية الكاملة ببناء البيت وبذل غاية الجهد والإخلاص فى البناء حتى وهو (كسلان تعب) . .

وذلك فى حوار أبوى . بين أب وابنه . . أليس هذا أمر الله ببناء بيت الله؟ غير أن العبارة الأخيرة فى كلام على بن أبى طالب : (من لم يكلنى إليك) وإن كانت تضاف إلى مثيلاتها التى قالها إبراهيم لإسماعيل وهما يبنيان البيت . . . والتى أشرنا إليها ضمن ملاحظاتنا على نقلنا من ابن كثير إلا أنها ههنا . لا تناسب المشاعر الأبوية فى هذا الحوار . . .

وما قاله القرطبى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ومن ذريتى ﴾ من (إن إسحاق كان بالشام) فيه نظر . لأن إسحاق لم يكن قد ولد بعد . . حيث أن سيدنا إبراهيم . دعا بهذا الدعاء على أصح الأقوال وإسماعيل طفل رضيع وإسحاق ولد بعد إسماعيل . بثلاث عشرة سنة كما ذكر المؤرخون ونقل عنهم المفسرون والمحدثون . . ولكن (سارة) زوجة إبراهيم هي التى كانت فى الشام . . . وكان مما يليق لو أن إسحاق كان موجوداً بالشام أن يذكر معه اسم (سارة) أمه . . . كما ذكر اسم (هاجر) أم إسماعيل . . . وفى اعتقادنا أن القرطبى أراد (سارة) بدلا من إسحاق ، وإن كان قوله (كان بالشام) بدلا من (كانت بالشام) لا يرشح هذ الاعتقاد . . نقول هذا . لأن القرطبى كما عرفنا فيما قاله كان يرى أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء . حين ترك هاجر وابنها إسماعيل فى هذا المكان القفر .

وعاد إلى الشام حين كان إسماعيل طفلاً رضيعًا ولم يكن إسحاق قد ولد فى هذا الوقت . .

ولكن أهم ما يضيفه القرطبى - إلى ماذكره ابن كثير والطبرى : هو قيام سيدنا إبراهيم لأول مرة مع جبريل (عليه السلام) بكل مناسك الحج ماعدا الهدى .

وتسجيل مشاهد هذه المناسك ميلادها والحكمة الإلهية فى كل منها . . . وعلة المسميات فيها . . . كما حدثت أول مرة وذلك بإحاطة تهم كل من يريد الحج أو العمرة أو الصلاة فى البيت الحرام والتعوذ به والطواف حوله . . .

أما الهدى فقد كان منسكـًا من مناسك الحج أضيف إليها بعد ذلك . حين بلغ إسماعيل السعى ورأى أبوه إبراهيم فى المنام أن يذبحه وبعد أن امتثل إبراهيم لتنفيذ أمر الله واستجاب إسماعيل لما أمر الله به أباه إبراهيم وتحققت منهما الطاعة الكاملة لله .

وإخلاصهما لعبادته (سبحانه وتعالى) فافتداه الله بذبح عظيم . . .

وإذا كان منسك الطواف بالبيت قد أراه جبريل لإبراهيم بعد أن فرغ إبراهيم من بناء البيت فإن موقف الملائكة - وهم يتعوذون بعرش الله بعد أن غضب الله عليهم ويطوفون حول عرشه سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى رضى عنهم وقال لهم : ابنوا لى بيتـًا فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم . ويطوف حوله كما طفتم حول عرشى فأرضى عنه ، كما رضيت عنكم فبنوا هذا البيت .

هذا الموقف المتذلل من الملائكة لعظمة الله (سبحانه وتعالى) :
ينبغي أن لا يغفل المسلم عن تذكره والتأمل فيه واستحضار روعته.
وهو يطوف بالكعبة المشرفة..

رابعاً : من الفتوحات الإلهية

أما الفتوحات الإلهية فسوف نأخذ منها ومن تفسير الجلالين على هامشها مايلى :

أولاً : قوله (تعالى) من سورة البقرة الآية ١٢٥ : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[(١)]

﴿ من مقام إبراهيم ﴾ هو الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت أى الذى كان يقف عليه عند البناء وأصله من الجنة كالحجر الأسود.

وفى الخبر : الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا ما مسهما من أيدى المشركين لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب.

﴿ مصلى ﴾ مكان الصلاة بأن تصلوا خلفه ركعتى الطواف... ويقال فى التعبير بالخلف نظر لأن الحجر مربع متساوى الجهات فى نحو ذراع طولاً وعرضاً وسمكاً فلعل التعبير بالخلف بالنظر لما أحدث هناك من شباك حديد دائر به له باب يقابل المصلى الذى يقف هناك . وقد ذكر القليوبى على الجلال : وإن كان (الآن)[(٢)] يصير مقابلا له...

ثانياً : قوله تعالى . من سورة البقرة الآية ١٢٧ : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[(٣)].

---

(١) الفتوحات الإلهية / المجلد الأول ص١٠٤

(٢) الآن : فى زمن صاحب الفتوحات ـ المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ.

(٣) الفتوحات الإلهية / المجلد الأول ص ١٠٦ / ١٠٧.

وقصة بناء البيت ـ أن الله (تعالى) خلق موضع البيت قبل الأرض بألفي عام مكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله فأنزل الله (عز وجل) البيت المعمور وهو ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر: باب شرقي وباب غربي... فوضعه على موضع البيت ـ وقال يا آدم إني أهبطت إليك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي وأنزل الله (تعالى) عليه الحجر الأسود فتوجه آدم من الهند ماشياً فأرسل إليه ملكاً يدله على البيت فحج آدم البيت فلما فرغ قالت الملائكة بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام..

قال ابن عباس: حجه آدم أربعين حجة من الهند ماشياً على رجليه وبقي هذا البيت إلى زمن الطوفان: فرفعه الله (تعالى) إلى السماء الرابعة... وهو البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه[1] وبعث الله (تعالى) جبريل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قيس. صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم... ثم إن الله (تعالى) أمر إبراهيم ـ بعدما ولد إسماعيل وإسحاق ببناء بيت فسأله الله (تعالى) أن يبين له موضعه: فدل عليه وعلى الحجر الأسود الذي كان قد خبأه جبريل فبنى البيت هو وإسماعيل وفي القسطلاني على البخاري مانصه:

(... وبنيت الكعبة عشر مرات).

(١) جاء هذا الخبر أيضاً في سيرة ابن هشام نقلا عن سيرة ابن إسحاق كما ورد في فتح الباري شرح صحيح البخاري في حديث المعراج برواية أبي سعيد الخدري: وبرواية أنس ابن مالك عن مالك بن صعصعة عن رسول الله (ﷺ) في كتاب (بدء الخلق).

(الأول) : بناء الملائكة روى أن الله (تعالى) أمرهم أن يبنوا فى كل سماء بيتـا . . . وفى كل أرض بيتـا . . . قال مجاهد : هى أربعة عشر بيتـا وروى : أن الملائكة حين أسست الكعبة انشقت الأرض إلى منتهاها وقذفت الملائكة بينها حجارة كأمثال الإبل فتلك القواعد من البيت التى وضع عليها إبراهيم وإسماعيل بناءها . . .

(الثانى) : بناء آدم ، روى : أنه قيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس .

(الثالث) : بناء ابنه (شيث) بالطين والحجارة ، فلم يزل معموراً به وبأولاده ومن بعدهم حتى كان زمن نوح فأغرقه الطوفان وغير مكانه . .

(الرابع) : بناء إبراهيم . . . وقد كان المبلغ له ببنائه جبريل عن الملك الجليل ومن ثم قيل ليس ثم فى هذا العالم . أشرف من الكعبة لأن الآمر ببنائها الملك الجليل والمبلغ والمهندس جبريل والبانى الخليل والمعين إسماعيل .

(الخامس) : بناء العمالقة . . .

(السادس) بناء جرهم والذى بناه منهم . هو الحارث بن مضاض الأصغر .

(السابع) : بناء قصى : خامس جد للنبى (ﷺ) .

(الثامن) : بناء قريش وحضره النبى (ﷺ) وهو ابن خمس وثلاثين سنة .

(التاسع) بناء عبد الله بن الزبير وسببه: توهين الكعبة. من حجارة المنجنيق التي أصابتها. حين حوصر ابن الزبير بمكة في أوائل سنة أربع وستين فهدمها بعد أن استخار واستشار وكان يوم السبت منتصف جمادى الآخرة سنة أربع وستين وبلغ بالهدم قامة ونصفا حتى قواعد إبراهيم فوجدها كالإبل المسنمة وبعضها متصل ببعض حتى أن من ضرب بالمعول طرف البناء تحرك طرفه الآخر. فبناها على قواعد إبراهيم وأدخل فيها ما أخرجته منها قريش من الحجر - بكسر الحاء - وجعل لها بابين لاصقين بالأرض أحدهما: بابها الموجود الآن - يعني في زمن الطبري - والآخر المقابل له المسدود وكان ابتداء البناء في جمادى الآخرة وختمه في رجب سنة خمس وستين ثم ذبح مائة بدنة للفقراء وكساهم.

(العاشر) بناء الحجاج... وكان بناؤه للجدار الذي من جهة الحجر - بكسر الحاء والباب الغربي المسدود. عند الركن اليماني وما تحت عتبة الباب الشرقي وهو أربعة أذرع وشبر... وترك بقية الكعبة على بناء الزبير. واستمر بناء الحجاج إلى الآن: - يعني إلى عصر القسطلاني الذي نقلت عنه الفتوحات -.

وقال ابن عباس: (بنى إبراهيم البيت من خمسة أجبل: من طور سيناء وطور زيتاً ولبنان: جبل بالشام. والجودي: جبل بالجزيرة... وبنى قواعده من حراء جبل بمكة)..

وقوله: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد﴾. المراد برفعها: البناء عليها. فإنها كانت موجودة مبنية من قبل بنائه غائصة في الأرض

إلى منتهاها . . . وإنما بنى عليها ورفع البناء فوقها وبناؤه كان متأخراً عن بناء مكة وكل منهما فى زمن إبراهيم : أما الأول . فبناه إبراهيم وأما الثانى فبناه طائفة من جرهم ـ بعد أن أذنت لهم هاجر بالنزول عندها قرب ماء زمزم ـ .

فنزلوا عندها وأرسلوا إلى أهلهم فبنوا هناك أبياتاً . .

(وإسماعيل) علَم أعجمى وفيه لغتان : اللام ـ إسماعيل ـ والنون ـ إسماعين ـ ويجمعه على سماعلة وأساميع ومن أغرب ما نقل فى التسمية : أن إبراهيم (عليه السلام) لما دعا الله (تعالى) أن يرزقه ولداً كان يقول : إسمع إيل . . . إسمع إيل . . . وإيل هو الله (تعالى) فسمى ولده بذلك) .

ثم ننقل من الفتوحات . عند تفسير قوله (تعالى) من سورة إبراهيم ـ الآية ٣٧ (١) :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ .

هذه القصة كانت بعدما وقع له من الإلقاء فى النار ، وفى تلك لم يسأل ولم يدع بل اكتفى بعلم الله بحاله وفى هذه قد دعا وتضرع ومقام الدعاء أعلى وأجل من مقام تركه اكتفاء بعلم الله كما قال العارفون فيكون إبراهيم قد ترقى وانتقل من طور إلى طور من أطوار الكمال .

(١) الفتوحات الإلهية / المجلد الثانى ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

وسبب هذا الإسكان : أن هاجر كانت جارية لسارة فوهبتها لإبراهيم فولدت منه إسماعيل فغارت سارة منها لأنها لم تكن قد ولدت قط فأنشدته الله أن يخرجها من عندها . . فأمره الله (تعالى) بالوحى : أن ينقلها إلى أرض مكة وأتى له بالبراق فركب عليه هو وهاجر والطفل فأتى من الشام ووضعهما فى مكة ورجع من يومه وكان يزورهما على البراق فى كل يوم من الشام .

﴿ بواد غير ذى زرع ﴾ هو مكة أى فى واد والوادى المنخفض بين جبلين . .

﴿ غير ذى زرع ﴾ أى لا يصلح للإنبات لأنه أرض حجرية لا تنبت شيئا .

﴿ عند بيتك المحرم ﴾ الذى كان قبل الطوفان . . . وإطلاق البيت عليه فى ذلك الوقت باعتبار ما كان قبل الطوفان . . . وأما وقت دعائه . . . فلم يكن . . . وإنما كان تلاً من رمل وأما البيت فقد رفع إلى السماء من حين الطوفان . .

فإن قلت كيف قال عند بيتك الحرام . ولم يكن هناك بيت محرم . وإنما بناه إبراهيم بعد ذلك قلت : يحتمل أن الله (عز وجل) أوحى إليه . وأعلمه : أن له هناك بيتـا قد كان فى سالف الزمان وأنه سيعمره . فلذلك قال : ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ . . .

وقيل يحتمل أن يكون المعنى : عند بيتك : الذى جرى فى سابق علمك . أنه سيحدث فى هذا المكان .

﴿ . . . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ . (وقد استجاب

الله (تعالى) لهذار الدعاء بجرهم وذلك أنه لما جاء بإسماعيل وأمه وضعهما عند البيت. مكان زمزم وليس بمكة أحد. ولا بناء ولا ماء ثم قام إبراهيم منطلقاً. فتبعته هاجر فقالت: أين تذهب وتتركني بهذا الوادى. الذى ليس به إنس ولا شئ فلم يلتفت. فقالت الله أمرك بذلك؟ قال نعم: فقالت: إذاً لا يضيعني... ثم رجعت فانطلق إبراهيم ثم رفع يديه إلى السماء. وقال: ﴿ربنا إني أسكنت﴾ حتى بلغ ﴿يشكرون﴾ وترك عندها جراباً من تمر وسقاء من ماء... فلما نفد الماء عطشت هى وابنها فجاء جبريل وضرب موضع زمزم بعقبه أو بجناحه فخرج الماء فجعلت تشرب منه فمكثوا كذلك حتى مرت بهم قبيلة من جرهم كانوا ذاهبين إلى الشام فعطشوا فرأوا الماء عندها فقالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا: نعم: فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم... فلما شب إسماعيل تعلم منهم العربية وكان أنفسهم وأعجبهم فزوجوه بامرأة منهم. وماتت أمه بعدما تزوج...

وفى البيضاوى: أنهم لما أتوها. قالو لها: أشركينا فى مائك. نشركك فى ألباننا ففعلت...

﴿وارزقهم من الثمرات﴾ وقد فعل [أى استجاب الله (تعالى) لهذا الدعاء] بنقل الطائف إليه...

وبقية دعاء سيدنا إبراهيم: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن﴾.

أى: تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه... والمعنى: أنك تعلم أحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا فلا حاجة بنا إلى الدعاء والطلب إنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك وتخشعاً لعظمتك وتذللاً لعزتك وافتقاراً إلى ما عندك....

وقيل معناه: تعلم مانخفى من الوجد بفرقة إسماعيل وأمه حيث أسكنتها بواد غير ذى زرع... وما نعلن يعنى من البكاء...

وقيل: مانخفى: يعنى من الحزن المتمكن فى القلب... وما نعلن: يعنى ماجرى بينه وبين هاجر عند الوداع. حيث قالت لإبراهيم إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله.. قالت إذاً لا يضيعنا...).

هذا وقد ذكرت «الفتوحات الإلهية» ـ كما جاء فى القسطلانى. على البخارى وكما رواه القرطبى فيما سبق عن جعفر بن محمد: أن الملائكة هم أول من بنى البيت الحرام.

ولكن ما جاء فى الفتوحات. لا يتضمن تلك المنحة الربانية التى منحها الله لعباده وبخاصة من سخط عليهم. بالعفو عنه إذا تعوذوا بالبيت وطافوا حوله... والتى جاءت فى رواية القرطبى...

بينما انفردت رواية «الفتوحات» بأن الله أمر الملائكة أن يبنوا له فى كل سماء بيتاً وفى كل أرض بيتاً... قال مجاهد: هى أربعة عشر بيتاً... (يعنى: فى السماوات السبع وفى الأرضين السبعة).

وجاءت فى الفتوحات أيضاً: أن بناء البيت الحرام. كان متأخراً عن بناء مكة. وكل منهما فى زمن إبراهيم.

وأن إبراهيم وإسماعيل بنياه . بعدما ولد إسحاق . . . وأنه أول بيت وضع للناس أما مكة فقد بناها طائفة من جرهم . . . بعد أن أذنت لهم هاجر بالبقاء إلى جوار الماء .

أما ختام ما نقلنا عن الفتوحات فإنه يكشف عن مشاعر إبراهيم الحزينة فى دعائه . وهو يغادر زوجه هاجر وابنهما إسماعيل إلى الشام . ويتركهما فى هذا المكان القفر الذى لا أنيس فيه ولا ماء ولا طعام . . .

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ﴾ .

أى : تعلم ما نخفى من الوجد . بفراق إسماعيل وأمه . . . حيث أسكنهما بواد غير ذى زرع وما نعلن : يعنى من البكاء .

أو تعلم ما نخفى من الحزن المتمكن فى القلب .

وما نعلن : مما جرى بينه وبين هاجر زوجته عند الوداع . .

ينتهى بذلك ما جاء فى فتح البارى وفى تفاسير الطبرى : وابن كثير والقرطبى والفتوحات الإلهية . .

(١) وخلاصة ما جاء فيها من أقوال . عن بناء البيت الحرام : أن الذى بناه (الملائكة) أو (آدم) .

أو أن الله أنزله من السماء إلى الأرض . مع آدم . . .

أو كان (ياقوتة من ياقوت الجنة) أنزلها الله إلى الأرض . . .

أو كان (غثاءة) فوق الماء فى موضع البيت الآن . . .

ثم رفعه الله أيام الطوفان وبقيت قواعده مطمورة فى الأرض إلى أن أرشد الله إليها إبراهيم وأعلمه بمكانها وأمره هو وإسماعيل فرفعها وأتما بناءه ولكن . كيف تكون للبيت قواعد يرفعها إبراهيم وإسماعيل . إذا كان (ياقوتة من ياقوت الجنة) أو كان (غثاءة) فوق الماء ؟ إلا أن يكون المراد من القواعد هنا . مكانهما الذى كانا فيه قبل أن يرفع الله (الياقوتة) أو تتبدد (الغثاءة) بفعل الطوفان . والله أعلم .

أما عبارات : (حتى وضعها عند البيت) .

و (استقبل بوجهه البيت) .

و (التفت جهة البيت ووقف يدعو بهذه الدعوات) .

و (وكان البيت مرتفعاً عن الأرض كالرابية) . .

فإن المراد هنا هو (مكان البيت) .

لأن إبراهيم لم يكن حينئذ قد رفع قواعد البيت هو وإسماعيل .

بدليل ماتقرره العبارات التالية : (حتى وضعهما عند قواعد البيت)

و (فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها) و (فإن هاهنا بيت الله . يبني هذا الغلام) .

و (فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة ، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فأقام عليه . وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة) . . . .

ولكن متى رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت وأتما بناءه؟

ببديهية أولى : أن إسماعيل الذي شارك أباه إبراهيم في رفع قواعد البيت بنص القرآن الكريم لا يمكن أن تكون منه المشاركة في البناء ورفع القواعد . وهو طفل يرضع ولقد كان إسماعيل طفلاً رضيعاً حين خرج به إبراهيم . وبأمه (هاجر) من الشام إلى هذا المكان القفر قرب مكان البيت الحرام . . .

وكان ما يزال طفلاً يرضع حين تركه هو وأمه في هذا المكان وقفل عائداً إلى الشام فحسبما روى : فإن إبراهيم لم يلبث معهما . في هذا المكان . سوى لحظات ثم تركهما وعاد إلى الشام . ثم بعد أن شب إسماعيل . وأصبح قادراً على المشاركة في رفع القواعد عاد

إليه إبراهيم فى إحدى زياراته، وأخبره بأن الله أمره ببناء البيت وطلب منه أن يساعده فى هذا البناء... كما هو نص حديث ابن عباس فى فتح البارى وكما أشرنا فى ملاحظاتنا على ما جاء فى ابن كثير...

ومؤدى ذلك: أن إبراهيم وإسماعيل. لم يرفعا قواعد البيت ويتما بناءه. حين حضر به وبأمه هاجر من الشام. حسبما روى عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وكما رواه السدى ورواه ابن إسحاق وحدث به مجاهد وغيره من أهل العلم كما أشرنا فى تلك الملاحظات...

ومؤدى ذلك أيضاً: أن قواعد البيت الحرام.لم تكن قد أقيمت وتم بناء البيت قبل أن يدعو إبراهيم بهذا الدعاء:

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾

لأن إبراهيم دعا بهذا الدعاء كما رجحنا فى ملاحظاتنا على شرح ابن حجر حين ترك هاجر وابنها إسماعيل أول مرة فى هذ المكان وهم بالعودة إلى الشام..

ومع أن قول إبراهيم فى هذا الدعاء: ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ أراد به ﴿ عند موضع بيتك المحرم ﴾..

كما أوضحنا فلقد يكون ذلك ما جعل الشيخ عبدالوهاب النجار يقول[1]:

(١) قصص الأنبياء ص١٠٣.

: (ويظهر لى أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء، بعد بناء البيت).

وقد يكون هذا أيضاً ما جعل ابن كثير يقوله: (ويظهر لى أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول. الذى قاله حين ترك ابنه وأمه هاجر وعاد إلى الشام).

وما جعله يقول أيضاً تعقيباً على رواية على بن أبى طالب (ففى هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما) وقد أوضحنا استبعاد ذلك فى ملاحظاتنا عليه...

ثم لما يسلم ابن كثير بترجيح هذين القولين اهتدى إلى رد مقبول على ماجاء فى رواية على بن أبى طالب. فقال: (وقد يحتمل أنه كان محفوظاً أولاً. ثم وضع له حوطاً وتحجيراً لا أنه بناه إلى أعلاه. حتى كبر إسماعيل فبنياه معاً كما قال الله (تعالى)[1]..

(ب) ثم لابد أن تلفت أبصارنا. تلك الأخبار العجيبة الغريبة التى جاءت فى ثنايا تلك الروايات فى فتح البارى والطبرى وابن كثير والقرطبى والفتوحات الإلهية. لا لنرفضها أو نطعن فى صحة حدوثها وإنما نحيل ما بها من غرابة إذا كان صحيحة إلى إعجاز قدرة الله ومشيئته...

فقد جاء فى فتح البارى ما يلى:

(١) (وروى ابن إسحاق. أن الله لما بوأ لإبراهيم مكان البيت. خرج بإسماعيل وهو طفل صغير. وأمه... قال: وحملوا - فيما حدثت - على البراق)....

(١) تفسير القرآن العظيم/ المجلد الأول ص١٩٩.

(٢) (وروى الفاكهي من حديث علي بإسناد حسن: أن إبراهيم كان يزور إسماعيل وأمه على البراق).

(٣) (وفي حديث أبي جهم وحديث عطاء بن السائب: (فقالت - يعني زوجة إسماعيل الثانية - لإبراهيم انزل (رحمك الله) فاطعم واشرب فقال: إني لا أستطيع النزول... قالت: فإني أراك أشعث أفلا أغسل رأسك وأدهنه؟... قال: بلى إن شئت... فجاءته بالمقام. فوضع قدمه اليمنى. وقدم لها شق رأسه وهو على دابته فغسلت شق رأسه الأيمن. فلما فرغ. حولت له المقام حتى وضع قدمه اليسرى وقدم إليها برأسه فغسلت شق رأسه الأيسر... فالأثر الذي في المقام من ذلك ظاهر فيه موضع العقب والإصبع...)

والذي جعل سيدنا إبرهيم يفعل هذا بهذا التكلف والمشقة - إن كان قد حدث - كما روى - أنه كان قد أعطى زوجه (سارة) في الشام عهداً: ألا ينزل عن دابته. إذا وصل بيت إسماعيل... وقد أشرنا في ملاحظاتنا على ماجاء في فتح الباري إلى أنه ليس من المعقول أن تصل الغيرة بسارة من هاجر وإسماعيل بل من إسماعيل وحده بعد أن ماتت هاجر إلى هذه الدرجة. ونضيف إلى ذلك: أنه ليس من المعقول أن يصل سيدنا إبراهيم إلى هذه الدرجة من الطاعة لسارة فلا ينزل عن دابته مع أنه حضر من الشام لكي يرى ابنه وحيده ويجلس إليه ويتحدث معه ويظل على ظهر دابته إلى أن يعود إلى الشام!.

ثم كيف يكون أشعث : يحتاج رأسه إلى الغسيل بالماء والتطيب بالدهن ووسيلة سفره من الشام إلى مكة . كانت (البراق) ؟ . . .

وربما كانت عبارة (وهو على دابته) تنفى أن تكون وسيلة سفر إبراهيم من الشام إلى مكة فى هذه الرحلة البراق فإن كان كذلك فلا مانع من أن يكون إبراهيم أشعث من أثر السفر بالدابة وليس بالبراق . .

(٤) . . . (وروى الفاكهى . عن طريق مجاهد وابن عباس قال : قام إبراهيم على الحجر . فقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فأسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء .

(٥) . . . (وأخرج عبدالرزاق من حديث أبى الطفيل . قال : فأقبلت سفينة من الروم . حتى إذا كانوا قريبا من جدة انكسرت فخرجت قريش لتأخذ خشبها فوجدوا الرومى الذى فيها نجاراً فقدموا به وبالخشب ليبنوا به البيت فكانوا كلما أرادوا القرب منه لهدمه بدت لهم حية فاتحة فاها فبعثه الله طيراً أعظم من النسر فغرز مخالبه فيها فألقاها نحو أجياد فهدمت قريش الكعبة وبنوها[1] أى أن قريشاً كانت تريد بناء البيت ولكنها كانت تهاب تلك الحية مع أن حية يستطيع طائر أعظم من النسر أن يغرز مخالبه فيها ويطير بها ثم يلقيها فى مكان بعيد ، لا تكون بهذه الوحشية التى تخيف

---

(١) هذا الحديث لأبى الطفيل أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الحاكم والطبرانى ذكره ابن حجر فى شرحه لحديث جابر بن عبد الله رقم ١٥٨٢ فى باب فضل مكة وبنيانها فى فتح البخارى المجلد الثالث ص٤٤١ .

قريشاً كلها، وهم أصحاب فنون فى القتال بالسهام والحراب والرماح والسيوف والنبال والمجانيق ولهذا فإن رواية (الزهرى): (لما بلغ رسول الله (ﷺ) الحلم أجمرت امرأة الكعبة فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فتشاورت قريش فى هدمها، وهابوه قال الوليد: إن الله لا يهلك من يريد الإصلاح فارتقى على ظاهر البيت ومعه العباس فقال اللهم لانريد إلا الإصلاح ثم هدم فلما رأوه سالماً: تبعوه)[1] هذه الرواية أجدر بالقبول والتصديق من تلك الرواية الأولى.

(٨) وحدث الطبرى عن خالد بن عرعره، وروى ابن كثير عنه (قال ابن جرير أخبرنا هناء بن السرى حدثنا أبو الأحوص عن سماك. عن خالد بن عرعرة: أن رجلاً قام إلى على (رضى الله عنه) فقال: ألا تخبرنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض فقال: لا. ولكنه أول بيت وضع فى البركة. مقام إبراهيم.. من دخله كان آمناً. وإن شئت أنبئك كيف بنى؟ إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً فأرسل الله (السكينة). وهى: ريح حجوج وله رأسان فاتبع أحدهما صاحبه، حتى انتهت إلى مكة. فتطوى على موضع البيت كتطوى الجحفة، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيم].

فإلى جانب غرابة ما قيل عن (السكينة). فى هذه الرواية فإن بداية تلك الرواية تناقض حديث أبى ذر (رضى الله عنه)

(١) هذه الرواية ذكرها ابن حجر عقب الحديث السابق لأبى الطفيل فى نفس الصفحة.

قال : (قلت : يا رسول الله، أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : [المسجد الحرام]. قال : ثم أى قال : المسجد الأقصى. قلت كم كان بينهما؟ قال : [أربعون سنة] [١] وقد فسر علىّ (رضى الله عنه) رأيه هذا بما قاله فى نهاية حديثة :(ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله. فإن الفضل فيه).

كذلك فسر ابن حجر هذا الرأى لعلى بن أبى طالب. بقوله :[٢] (وهذا الحديث لعلى بن أبى طالب يفسر المراد بقوله (تعالى) ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة﴾ الآية ٩٦ من سورة آل عمران، ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت... وقد ورد ذلك صريحاً عن (على) أخرجه إسحاق بن راهوية وابن أبى حاتم وغيرهما، بإسناد صحيح عنه قال : (كانت البيوت قبله. ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله).

ولربما كان هذا القول لابن حجر مساندة وتقوية لتفسير على بن أبى طالب. فلا يكون هناك تناقض... والله أعلم..

(٨) وجاء فى تفسير القرآن العظيم لابن كثير : قال (ابن أبى حاتم حدثنا أبى : أخبرنا عمر بن رافع : أخبرنا عبدالوهاب بن معاوية. عن عبدالمؤمن بن خالد. عن علباء بن أحمد : أن (ذا القرنين) قدم مكة. فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل. فقال مالكما ولأرضنا؟ فقالا : نحن عبدان

(١) فتح البارى الجزء السادس ص ٤٠٧، ٤٠٠٨.
(٢) فتح البارى الجزء السادس ص ٤٠٧، ٤٠٠٨.



مأموران أُمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا بالبينة على ماتدعيان فقامت خمسة أكبش فقلن نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة فقال: (رضيت وسلمت... ثم مضى)...

فإذا كانت شهادة الأكبش الخمسة قد حدثت بإرادة الله (سبحانه وتعالى) تكريماً لسيدنا إسماعيل وتعظيماً لأمر الكعبة. وإبهاراً لذى القرنين وهو من هو فى قوته وهيبته أفلا يكون هذا أدعى لكى يساعد إبراهيم وإسماعيل فى نقل الأحجار من تلك الجبال الخمسة؟... اللهم إلا إذا كان ذلك لم يكن. حتى يكون الفضل فى بناء الكعبة. لإبراهيم وإسماعيل فقط... والله أعلم...

(٩) وجاء أيضاً فى تفسير ابن كثير: (قال ابن حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم. عن سعيد بن المسيب. عن كعب الأحبار. قال: كان البيت غثاءة على الماء. قبل أن يخلق الله الأرض. بأربعين عاماً ومنه دحيت الأرض قال سعيد: وحدثنا على بن أبى طالب. أن إبراهيم أقبل من أرمينية. ومعه (السكينة) تدله على تبوء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتاً... وقال: فكشف عن أحجار لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً)... ولغرابة هذا الخبر. قال سعيد بن المسيب لعلى بن أبى طالب: يا أبا محمد. إن الله يقول: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ قال: كان ذلك بعد...

(١٠) (وقال السدى: إن الله (عز وجل) أمر إبراهيم أن يبنى

البيت هو وإسماعيل، فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل. وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت؟ فبعث الله (ريحاً) يقال لها (الريح الخجوج) لها جناحان ورأس فى صورة حية فكشفت لهما ماحول الكعبة من أساس البيت الأول)...

فى الرواية السابقة أن (السكينة وهى الريح الخجوج) لها رأسان... وفى هذه الرواية لها جناحان ورأس. فى صورة حية... ثم إن الكشف عن قواعد البيت لا يحتاج إلى هذه الريح الخجوج. فقد (هدى إبراهيم إليها. وبوّء لها) كما قال ابن كثير فى تعليقه على رواية السدى.

(١١) (وقال عبدالرزاق: أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال: آدم: إنى لا أسمع أصوات الملائكة.. قال: بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض فابن لى بيتاً، ثم أحفف به كما رأيت الملائكة تحف بيتى الذى فى السماء، فيزعم الناس: أنه بناه من خمسة أجبل)... وكان تعليق ابن كثير على هذ الخبر: (وهذا صحيح إلى عطاء ولكن فى بعضه نكارة والله أعلم...

وجاء فى تفسير القرطبى مايلى:

(١٢) قال ابن عباس: صاح (أبو قبيس) - اسم الجبل المشرف على مكة -: يا إبراهيم، يا خليل الرحمن، إن لك عندى وديعة فخذها. فإذا هو (بحجر أبيض من ياقوت الجنة) كان آدم قد نزل به من الجنة فلما رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربعة. فيها رأس فنادت: أن ارفعا على تربيعى. فهذا بناء إبراهيم (عليه السلام).

فهذا الحجر بالذات، لماذا اختاره آدم؟.. ولماذا نزل به آدم حين أنزله الله من الجنة؟ وهل كان نزول آدم بهذا الحجر بأمر الله أم كان تصرفاً خاصاً من آدم؟ إذا كان هو (الحجر الأسود) كما جاء في بعض الروايات وكما سنوضحه فيما بعد.. فلقد يكون ذلك تكريما للكعبة المشرفة فإن يوجد في بنيانها جزء من الجنة إن كان كذلك فلابد أن يكون ذلك بأمر الله (عز وجل)... والله أعلم..

(١٣) وروى أن إبراهيم وإسماعيل لما فرغا من بناء البيت أعطاهما الله (الخيل) جزاء عن رفع قواعد البيت، وروى الترمذى الحكيم عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشا كسائر الوحوش.

فلما أذن الله لإبراهيم وإسماعيل برفع القواعد قال الله (تبارك اسمه): (إنى معطيكما كنزاً ادخرته لكما)... ثم أوحى إلى إسماعيل أن اخرج إلى أجياد فادع يأتك الكنز فخرج إلى أجياد وكانت وطناً ولا يدرى ما الدعاء. ولا الكنز، فألهمه الله. فلم يبق فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها. وذللها له)..

الجائزة لإبراهيم وإسماعيل. ولكن بقية الخبر. تعطى هذه الجائزة لإسماعيل. وهذا بكل تأكيد غير مراد. لأن إبراهيم كان موجوداً فى مكة مع إسماعيل فى ذلك الوقت...

ثم أن يكون تذليل الخيل وانقيادها واستئناسها وانسلاخها عن الوحشية فى الجبال أو الغابات جائزة السماء لإبراهيم وإسماعيل لبنائهما الكعبة أول بيت وضع للناس فى الأرض فهذا لا توقف عنده ولكن أن تأتى جميع الخيول من كل أنحاء أرض العرب وهى

فى أعداد لا حصر لها إلى إسماعيل حيث يقيم فى مكة وتجتمع فى صعيد واحد أمام إسماعيل. وتمكنه من نواصيها.. فهذا هو العجيب الغريب. الذى لا يكون إلا بأمر الله وتدبيره (سبحانه وتعالى علواً كبيراً).

وجاء فى الفتوحات الإلهية:

(١٤) قال ابن عباس: حجه آدم أربعين حجة من الهند ماشياً على رجليه وبقى هذا البيت إلى زمن الطوفان فرفعه الله (تعالى) إلى السماء الرابعة. وهو البيت المعمور. يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. ثم لا يعودون إليه)....

وأن يحج آدم البيت الحرام. أربعين حجة. من الهند ماشياً على رجليه، فهذا ممكن وجائز وكم يبلغ عددهم إلى يوم القيامة؟

وكما قلنا فى بداية هذه الملاحظات: إننا نشير إليها لا لنرفضها. أو نشكك فى صحتها.. وإنما نحيل ما فيها من غرابة تحير العقول إذا كانت صحيحة إلى إعجاز قدرة الله ومشيئته والله قادر على كل شئ، ولا يعجزه (جل وعلا) أى شئ، فى الأرض ولا فى السماء. فهو الذى خلق كل شئ، وهو الذى إذا أراد أى شئ ولو كان عجيباً غريباً على أفهامنا وعقولنا أن يقول له: كن فيكون... وسبحان الله والحمد له. ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ويحضرني الآن ما ذكره الدارمي أبو محمد) فى (مسنده) قال حدثنا عبدالله بن يزيد). قال: حدثنى حيوه. قال أخبرنى أبو عقيل. أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: (إن نبى الله (ﷺ) قال:

[من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرات بنى له قصر فى الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بنى له قصران فى الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى له ثلاثة قصور فى الجنة] فقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : إذا لنكثرن قصورنا . فقال . قال رسول الله (ﷺ) : [الله أوسع من ذلك][1] والله أكرم بعباده من عباده ... وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، رب السموات والأرض رب العالمين .

(ج) كذلك فقد وردت فيم نقلنا عن ابن حجر . وابن كثير والطبرى والقرطبى ، والفتوحات الإلهية هذه الكلمات :

(١) البيت الحرام والكعبة .

(٢) الحجر ... والجدر ... والربض ...

(٣) الركن ... والحجر الأسود ...

(٤) المقام .. والحجر الذى طلب إبراهيم من إسماعيل . أن يأتيه به .

أما عن (البيت الحرام . والكعبة) فكل ما قيل عن بناء البيت . قصد به بناء الكعبة مع الفضاء المسور حولهما للطواف .

فالكعبة الآن هى البيت الحرام الذى أمر الله سيدنا إبراهيم أن يرفع قواعده هو وإسماعيل ، وهى قواعد البيت الحرام الذى أنزله الله من السماء أو بنته الملائكة أو بناه آدم ثم رفعه الله أيام الطوفان وبقيت قواعده فرفعها إبراهيم وإسماعيل وأتما بناءه) وقد كان اسمه (البيت) ثم أسماه عرب مكة (الكعبة) لتربيعه أما المسجد

(١) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

المقام الآن فقد بناه ولاة الأمور لمواجهة الزيادة الكبيرة فى أعداد المصلين. كل عام حتى وصل إلى هذه الصورة البالغة الجمال والروعة وفن هندسة البناء فى عهد ملوك الأسرة السعودية.. وخصصت الكعبة للطواف حولها... والصلاة حولها أيضا..

يقول الله (تعالى) فى سورة المائدة (الآية ٩٧) : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس﴾.

ولم يفسرها ابن كثير لأنها فى أغلب الظن لا تحتاج إلى تفسير.

أما الطبرى فقد قال فى تفسيرها[1] : «صير» الله الكعبة البيت الحرام قواما للناس الذين لا قوم لهم. من رئيس يحجر قويهم عن ضعيفهم. ومسيئهم عن محسنهم. وظالمهم عن مظلومهم. والكعبة سميت فيما قيل كعبة لتربيعها... ثم يقول (وأما الكعبة فالحرم كله وسماها الله (تعالى) (حراماً) لتحريمه إياها أن يصاد صيدها أو يختلى خلالها أو يعضد شجرها).

وقد ذكر الطبرى عبارة (جعل الكعبة البيت الحرام) إحدى عشرة مرة دون تفرقة بين الكعبة والبيت.

ويقول القرطبى فى تفسيرها[2] : (جعل هنا بمعنى خلق وقد سميت الكعبة كعبة لأنها مربعة وقيل: سميت كعبة لنتوئها وبروزها فكل ناتئ بارز كعب مستديرا كان أو غير مستدير... والبيت سمى بذلك لأنها ذات سقف وجدار. وسماء سبحانه حراماً بتحريمه إياه

(١) جامع البيان المجلد الخامس الجزء السابع ص ٤٩، ٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن المجلد الثالث الجزء السادس ص٣٢٤، ٣٢٥.

قال النبي (ﷺ) : [إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها للناس] .

ولم يفرق الطبري ومثله القرطبي بين الكعبة والبيت بل إنه كان أكثر تأكيداً لما قرنا حين قال : (وسماها الله (تعالى) حراماً لتحريمه إياها مع أن هذه التسمية ـ في الآية الكريمة ـ للبيت . . .

والفتوحات الإلهية تؤكد ما ذهبنا إليه بتفسير لغوي جاء فيه[1] : قوله ﴿ جعل الله الكعبة ﴾ فيه وجهان : أحدهما : بمعنى (صير) فيتعدى لاثنين أولهما الكعبة والثاني قياماً والثاني : أن يكون بمعنى (خلق) فيتعدى لواحد وهو الكعبة . . . وقياما نصب على الحال . . . وأما البيت فانتصابه على أحد وجهين إما (البدل) . وإما (عطف البيان) وفائدة ذلك : أن بعض الجاهلية وهم (خثعم) سموا بيتاً (الكعبة اليمانية) فجئ بهذا البدل أو البيان : تبييناً له من غيره وقال الزمخشري : البيت الحرام عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح) . . .

أضيف إلى ماتقدم ماجاء في فتح الباري[2] في الحديث رقم (١٥٨٣) : (أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (ﷺ) قال لها : [ألم ترى قومك . لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم] .

وفي الحديث رقم (١١٨٥) عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال رسول الله (ﷺ) : [لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم (عليه السلام)] .

(١) الفتوحات الإلهية / المجلد الأول ص ٥٢٧ .
(٢) فتح الباري / المجلد الثالث ص ٤٣٩ .

(ب) وأيضا ماجاء في شرح ابن حجر لحديث أبي الطفيل الذى مرّ بنا: (فقدموا بالخشب ليبنوا به البيت فكانوا كلما أرادوا القرب منه لهدمه بدت لهم حيّة فاتحة فاها فبعث الله طيراً أعظم من النسر فغرز مخالبه فيها فألقاها في أجياد فهدمت قريش الكعبة وبنوها)...

فى بداية هذا الحديث. وفى الحديث رقم (١١٨٥) جاء التعبير بلفظ البيت.. وفى آخره مع الحديث رقم (١١٨٣) جاء التعبير بلفظ الكعبة. ومثل هذا كثير نراه فى ثنايا تلك الروايات التى جاءت فى تفسير الطبرى وابن كثير والقرطبى والفتوحات الإلهية تذكر لفظ البيت ولفظ الكعبة فى رواية واحدة.... أو تقتصر على ذكر لفظ (البيت) فقط فى رواية. وعلى ذكر لفظ الكعبة فقط فى رواية أخرى... ويؤكد ذلك ابن حجر بقوله: (والبيت اسم غالب للكعبة. كالنجم للثريا)[1].

... فبناء البيت يعنى بناء الكعبة والطواف بالبيت هو الطواف بالكعبة ولهذا رأينا المفسرين والمؤرخين والمحدثين يقولون (طاف بالبيت) وهم يقصدون (طاف بالكعبة) لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة... وما دام الأمر كذلك فإنه يتعين أن يكون المقصد بالبيت: الكعبة فى حديث عطاء بن رباح. الذى ذكره الطبرى: (ولكن اهبط إلى الأرض وابن لى بيتا.. ثم أحفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء وكذلك فى حديث قتادة الذى

(١) فتح البارى/ المجلد الثالث ص ٤٤٠.

ذكره أيضاً ابن كثير : (. . . فقال الله يا آدم . إني أهبطت إليك بيتا . تطوف به . كما يطاف حول عرشي وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي) .

وهذه العبارة الأخيرة : (وتصلي عنده . كما يصلى عند عرشي) تفيد أن الكعبة التي سميت ببيت الله الحرام . . . أو بيت الله الحرام . الذي سمي الكعبة إنما كان للصلاة والطواف معاً أما ما حدث به الطبري عن السدي : فبعث الله ريحاً يقال لها ريح الخجوج فكنست لها ما حول الكعبة (وعن أساس البيت الأول) فإنه وإن كان يشعر بأن هناك بيت أول وهناك كعبة فإن بقية الحديث : (فلما بنيا القواعد فبلغا مبلغ الركن : قال إبراهيم لإسماعيل : يا بني اطلب لي حجراً حسناً أضعه هنا) يقرر أن المقصود بالبيت هنا : الكعبة . لأن الركن لا يوجد إلا في الكعبة حيث وضع فيه الحجر الأسود كما هو حتى الآن . . .

يؤكد هذا : ماجاء في الرواية الأخرى للسدي التي ذكرها ابن كثير : (فبعث الله ريحاً يقال لها : الريح الخجوج فكشفت لهما ما حول الكعبة من أساس البيت الأول وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس) . . . ويزداد التأكد . في رواية ابن أبي حاتم . عن علباء بن أحمد التي ذكرها ابن كثير أيضا : [أن ذا القرنين] قدم مكة . فوجد إبراهيم وإسماعيل . بنيا قواعد البيت . من خمسة أجبل . فقال : مالكما ولأرضنا ؟ فقالا : نحن عبدان مأموران . أمرنا ببناء الكعبة إلى آخر الرواية) . . .

وما جاء فى روايات السيدة عائشة (رضى الله عنها) التى ذكرها ابن كثير كذلك :

(أ) (قال : النبى (ﷺ)لعائشة :[لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية أو قال بكفر لأنفقت كنز الكعبة . فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيه الحجر) .

(ب) (... قال النبى (ﷺ) : [يا عائشة ، لولا قومك حديث عهدهم فقال الزبير بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين بابا يدخل منه الناس وبابا يخرجون منه] .

وهذه الرواية توضح أن الكعبة . كانت للصلاة فيها وللطواف حولها لأنها بيت الله .

(ج) (... قال النبى (ﷺ) : [يا عائشة ، لولا قومك حديث عهد بشرك لهدمت الكعبة وألزقتها بالأرض ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قومك اقتصرتها حين بنت الكعبة] .

(د) هذه الروايات مع رواية عائشة أيضا : (أن رسول الله (ﷺ) قال لها ـ أى لعائشة ـ : [ألم تر أن قومك . حين بنوا البيت . اقتصروا عن قواعد إبراهيم فقلت يا رسول الله : ألا تردها على قواعد إبراهيم؟] .

ولكل هذا . فإن ابن كثير كان فى حديثه عن بناء قريش الكعبة . بعد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) كان حاسما لم يتردد بين لفظى الكعبة . والبيت وإنما اقتصر على اسم الكعبة فقط .

وجاء فى القرطبى مما مر بنا ذكره:

(أ) فى رواية جعفربن محمد: (قال الله للملائكة: (ابنوا لى بيتاً فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم... ويطوف حوله كما طفتم حول عرشى)....

وما يطاف إلا حول الكعبة.. فالبيت الذى طلب الله من الملائكة أن يبنوه فى الأرض إنما هو الكعبة..

(ب) وفى رواية عطاء. وابن المسيب وغيرها: أن الله (عز وجل): أوحى إلى آدم (إذا هبطت. ابن لى بيتاً... ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشى الذى فى السماء)..

ولا يحف إلا بالكعبة فالبيت هنا كما فى الرواية السابقة لجعفر بن محمد. إنما هو الكعبة...

(ج) وروى عن قتادة: (... أنه «يعنى آدم» أهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده حتى رفعه الله فصار فى السماء وهو الذى يدعى (البيت المعمور)....

(د) ونقل عن (الحليمى) الذى ذكر رواية قتادة: (وقال يجوز أن يكون معنى ما قاله قتادة: أى أهبط مقدار البيت المعمور: طولاً وعرضاً وسمكاً... ثم قيل له ابن (بقدره)... ويجوز أن يكون (بحياله) فكان (حياله) موضع (الكعبة) فبناه فيه)....

(هـ) وجاء فى رواية وهب بن منبه: (.. أول من بنى البيت بالطين والحجارة شيث (عليه السلام)... وأما بنيان قريش له

فمشهور. وخبر الحية فى ذلك مذكور... إلى قوله فهدمتها قريش. وجعلوا يبنونها بالحجارة) فذكر لفظ البيت وعاد الضمير مذكراً عليه أولاً. ثم عاد بالضمير مؤنثـا فى آخر الرواية. ويلزم أن يكون ذلك على الكعبة.

(و) ويقول القرطبى: (وذكر الواقدى: أول من كسا البيت أسد الحميرى... قال ابن إسحاق: كانت تكسى القباطى. ثم كست البرد وأول من كساها الديباج الحجاج)..

والكسوة لا تكون إلا للكعبة فالبيت فى رواية الواقدى. هو الكعبة كما صرحت رواية ابن إسحاق...

(ز) وجاء فى القرطبى. عند تفسيره. لقوله (تعالى) فى سورة البقرة: الآية ١٢٥[١]:

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ (أن طهرا بيتى) دخل فيه جميع بيوته تعالى. فيكون حكمها حكمه فى التطهير والنظافة وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها أو لكونها أعظم حرمة والأول أظهر ولعلى أضيف إلى ما ذكره القرطبى قول الله (تعالى) كما جاء فى بعض تلك الروايات: (يا آدم إنى قد أهبطت إليك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى. وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى) لأن عبارة (وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى) تقرر أن الصلاة تكون حولها وليس فيها. بحيث يولى المصلون وجوههم

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الأول / الجزء الثانى ص ١١٤ / ١١٥ / ١١٦.

ناحية أى جدار من جدران الكعبة خارجها. ولكن هذا التوجه شطر الكعبة من الخارج. يتحقق أيضاً بالصلاة فيها. أى داخلها حيث يمكن أن يولى المصلون وجوههم ناحية أى جدار من جدران الكعبة داخلها... إلا أن المظهر العام المرئى لكافة الناس وكذلك الصورة الظاهرة المطلوبة لتجمع المصلين في توجههم نحو الكعبة بيت الله لا يتحقق فى الصلاة داخلها.

وفى تقديرنا: أن الصلاة داخل الكعبة. قد يكون متاحا ميسورا فى أول أمرها حينما كانت من غير سقف. ولم تكن جدرانها مرتفعة كثيرا فقد كانت كما مر بنا (رجماً فوق القامة) وكان عدد المصلين قليلا أما حين ارتفعت جدرانها وسقفت.. حين زاد عدد المصلين هذه الزيادة الكبيرة وخيف على الكعبة بيت الله من التزاحم الرهيب بنى المسجد الحرام لمواجهة هذه الزيادة المتعاظمة وأغلقت الكعبة لمنع المصلين من الصلاة فيها حفاظاً عليها وصونا وتعظيماً لها وليتحقق المظهر العام والصورة الظاهرة المطلوبة لتجمع المسلمين فى توجههم إلى بنيان الكعبة بيت الله الحرام... والله أعلم.

وأكتفى بهذا القدر من أدلة إثبات أن البيت الحرام هو الكعبة والكعبة هى البيت الحرام ولقد أطلت الحديث فى هذا الأمر خشية أن يلتبس الأمر على بعض العامة المسلمين وتوضيحاً لمن يقرأ عن بناء الكعبة أو بناء المسجد الحرام من غير المسلمين والله من وراء القصد ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

أما الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم) فهو مساحة الفضاء حول الكعبة وقد تعرض الحجر للانتقاص منه أحياناً وضمت أجزاء منه إلى الكعبة أحياناً أخرى ثم زيد في مساحته على الصورة الموجودة الآن لمواجهة الزيادة الكبيرة من الطائفين وكان مع صفته هذه جزءاً من البيت.

والجِدْر (بكسر الجيم وسكون الدال) هو الحجر... ووهم من ضبطه بضم الجيم كما نبه إلى ذلك ابن حجر في فتح البارى...

والرَّبْض (بتشديد الراء المفتوحة وسكون الباء) هو الأساس من الصخر المحيط بالكعبة. وهو مثل السور الذى يحيط بالمبنى... وهذا السور يحيط بالحجر والحجر يحيط بالكعبة... وجميع ذلك هو بيت الله.

والحجر الأسود. لا يحتاج إلى تعريف... والركن هو المكان الذى وضع فيه الحجر الأسود كما هو الآن... وقد سمى الحجر الأسود بالركن أحياناً من باب تسمية الشئ باسم مكانه...

وكل الروايات أجمعت: على أن الحجر الأسود ـ الركن ـ من الجنة... نزل به جبريل أو نزل به آدم أو أنزله الله على سيدنا إبراهيم وكان قد رفع مع البيت الأول فى زمن الطوفان...

ثم قيل إنه كان قد رفع مع البيت الأول إلى السماء حين غرقت الأرض بسبب الطوفان...

وقيل كما جاء فى رواية ابن عباس التى ذكرها القرطبى: (أنه كان

وديعة في جبل (أبو قبيس) بمكة) . . . أي أنه لم يرفع إلى السماء . (وأن هذا الجبل صاح : يا إبراهيم . يا خليل الرحمن إن لك عندي وديعة فخذها . فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنة . كان آدم قد نزل به من الجنة) وقد مر بنا تعقيب لنا على هذه الجزئية من الحديث . . .

وفي حديث (أبي جهم) الذي ذكره ابن حجر في فتح الباري : أنه كان بالهند نزل به جبريل وكان قد رفع إلى السماء . حين غرقت الأرض وكان ياقوته بيضاء مثل (الثغامة) وهو طير أبيض كبير) أي أن جبريل نزل بالحجر الأسود من الجنة وتركه في مكان بالهند . ثم حين بدأ إبراهيم يبني جاءه بهذا الحجر من الهند وكان ياقوته بيضاء . وأنه اسود بعد ذلك من خطايا الناس كما أوضحت رواية (السدي) التي ذكرها القرطبي .

أما المقام فهو الحجر الذي وقف عليه سيدنا إبراهيم لكي يتمكن من إتمام بناء الكعبة ثم قيل : إنه الحجر الذي طلب إبراهيم من إسماعيل أن يأتيه به فأتاه به .

جاء في الطبري : (قال ابن عباس : فلم ارتفع البناء وشق على الشيخ تناوله قرب إليه إسماعيل هذا الحجر فجعل يقوم عليه ويبني ويحوله في نواحي البيت حتى انتهى . فذلك مقام إبراهيم وقيامه عليه) .

وقيل : إن المقام . أنزله الله مع الحجر الأسود على سيدنا إبراهيم . . جاء في حديث عثمان الذي ذكره ابن حجر . في فتح الباري :



(أن المقام أنزله الله مع الحجر الأسود من السماء على سيدنا إبراهيم فكان يقوم على المقام يبنى عليه ويرفعه له إسماعيل) . . .

وتفيد هذه الرواية: أن إبراهيم لما انتهى من بناء البيت أخذ المقام فجعله لاصقا بالبيت ولكن رواية (عطاء بن السائب) لحديث ابن عباس الذى جاء فى فتح البارى ورواية (سعيد بن جبير التى ذكرها الطبرى تقول: إن المقام كان أبيض مثل المهاة) وكان ملقى فى بيت إسماعيل . . . وأن زوجة إسماعيل الثانية جاءت لإبراهيم بالمقام لكى تغسل له رأسه من غبار السفر حين حضر من الشام إلى مكة فى إحدى زياراته ليطالع أحوال إسماعيل وأن إبراهيم لم ينزل عن دابته وكانت كما قيل (البراق) فوضع إبراهيم قدمه اليمنى على المقام . . . ثم حولت زوجة إسماعيل المقام إلى الجهة اليسرى حتى وضع إبراهيم قدمه اليسرى عليه . . . وأن الأثر الذى فى المقام من ذلك . . .) . . .

فكيف جاء (المقام) إلى بيت إسماعيل ؟

ولماذا كان فى هذا الوقت قبل أن يكلف الله إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت ؟

وهل كان قيام إبراهيم على المقام. لتغسل زوجة إسماعيل رأسه حدثا جليلا يستحق أن يوجد له المقام فى ذلك الوقت قبل بناء الكعبة ؟

وكيف يكون المقام ملقى فى بيت إسماعيل وهو بهذه المنزلة المكرمة المتمثلة فى كونه ياقوته بيضاء من ياقوت الجنة أنزله الله على إبراهيم أو نزل به جبريل أو نزل به آدم من السماء ؟

وهل. حين نزل بـه جبريل أو نزل به آدم . . . أو أنزله الله على إبراهيم وضع فى بيت إسماعيل لكى يقوم بمهمتين : أن يقف عليه إبراهيم لكى تغسل له زوجة إسماعيل رأسه المغبر من وعثاء السفر ؟ . . وأن يقوم عليه إبراهيم بعد ذلك لكى يتمكن من إتمام بناء البيت الحرام ؟ إن معنى ذلك : أن المقام نزل من السماء حين كان لإسماعيل بيت فى مكة ولكن هذا يعد حدثا جليلاً يستحق تكريم المقام وصيانته وليس لإلقائه فى البيت . .

لكن هذا الغموض . فإن (الطبرى) حدّث عن سعيد بن جبير بما ينفى ما جاء عن المقام فى روايته . . . وفى رواية عطاء بن السائب كما ذكرنا سابقا . . . والله أعلم . . .

كما قلنا سابقاً . فإن قصة الذبيح ذكرت فى القرآن الكريم دون تصريح باسم الذبيح أهو إسماعيل أم إسحاق ؟ اكتفاء والله أعلم بما يدل عليه سياق الآيات القرآنية الكريمة (رقم ٩٩ إلى ١١٢) من سورة الصافات .

﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾

﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾

﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾

﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾

﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم ﴾

﴿ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾

﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾

﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾

﴿ وتركنا عليه الآخرين ﴾

﴿ سلام على إبراهيم ﴾

﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾

﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾

فالآيات الكريمة . تقرر فى جلاء ووضوح . وفى ترتيب زمنى محدد لا لبس فيه . أن إسحاق لم يولد لإبراهيم من سارة إلا بعد رؤيا إبرهيم أن يذبح ولده الذى كان رزق به من هاجر قبل إسحاق . ومحاولة ذبحة وافتداء الله له بذبح عظيم ولم يكن هذا الابن الذى سبق إسحاق إلا إسماعيل ...

ونقلنا عن الشيخ عبدالوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء» أن التوراة جاء فيها أن الذبيح هو الابن البكر الوحيد لإبراهيم ... وأن هذا البكر الوحيد هو إسماعيل ولكن غلاة اليهود حرفوا ماجاء فى التوراة وادعوا أن الابن البكر الوحيد إسحاق ثم جاءت روايات حديث ابن عباس فى فتح البارى : كما نقلناها : فتناولت أحداث حياة إسماعيل فى مكة . إلا أنها تجاوزت قصة الذبيح . فلم تذكرها ضمن الأحداث مما أوجد الشك فى أن الذبيح إسماعيل لدى بعض المفسرين والمؤرخين ......

وجعل ابن كثير . يقول فى تعقيبه على رواية ابن عباس كما نقلنا عنه : (ولم يذكر فى هذا السياق فى قدمات إبراهيم(عليه السلام) إلا ثلاث مرات أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر وكيف تركهم من حين صغر الولد على ماذكر إلى حين تزويجه لا ينظر فى حالهم وقد ذكروا أن الأرض كانت تطوى له وقيل أنه كان

يركب البراق إذا سار إليهم فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة؟

وكأن بعض السياق هنا متلقى من الإسرائيليات)

ويقول أيضا في قصص الأنبياء: (وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشئ من المرفوعات ولم يذكر فيه قصة الذبيح وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات[1]..

ولربما كانت بداية الشك في أن الذبيح إسماعيل: ما جاء في شرح ابن حجر لحديث ابن عباس عند قوله: (فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته﴾ حيث قال ابن حجر: قال ابن التين: هذا يشعر بأن الذبيح إسحاق لأن المأمور بذبحه كان عندما بلغ السعي وقد قال في هذ الحديث (إن إبراهيم ترك إسماعيل رضيعا وعاد إليه وهو متزوج فلو كان هو المأمور بذبحه لذكر في الحديث أنه عاد إليه في خلال ذلك بين زمان الرضاع والتزويج)....

وقد رد ابن حجر على كلام ابن التين هذا بقوله (وتعقب بأن ليس في الحديث نفي هذا المجئ فيحتمل أن يكون قد جاء وأمر بالذبح ولم يذكر في الحديث وقد جاء ذكر مجيئة بين الزمانين في خبر آخر ففي حديث أبي جهم: كان إبراهيم يزور (هاجر) كل شهر على

(١) قصص الأنبياء ص ١٤٠.

البراق يغدو غدوة فيأتى مكة ثم يرجع فيقيل فى منزله بالشام) وروى الفاكهى من حديث على بإسناد حسن نحوه وأن إبراهيم كان يزور إسماعيل وأمه على البراق) فعلى هذا فقوله (فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل) أى بعد مجيئة قبل ذلك مرارا. والله أعلم). وقد ذكرنا فى ملاحظاتنا على كلام ابن حجر . ما يدعم توالى زيارات إبراهيم لزوجه هاجر وابنها إسماعيل. مما يبطل كلام ابن التين...

ونقلنا عن ابن كثير من كتابه «قصص الأنبياء» قوله: (وقد روى أن الخليل كان يذهب فى كثير من الأوقات راكبا البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع إلى أهله بالبلاد المقدسة... والله أعلم...

وأضيف هنا: أن إبراهيم الخليل (عليه السلام) بإجماع المؤرخين بعد أن ترك زوجه هاجر وابنهما إسماعيل الرضيع فى مكة أول مرة وعاد إلى بيت المقدس دأب على أن يزورهما حينا بعد حين فكان يفد إليهما بين الفينة والفينة ليطالع أحوالهما فى مكة. وأن هذه الزيارات تعددت إلى أن بلغ إسماعيل السعى واشتد عوده... واستمرت هذه الزيارات لابنه إسماعيل بعد أن ماتت أمه (هاجر) وقد تم فى خلال هذه الزيارات محاولة الذبح وبناء الكعبة وكلتاهما ـ محاولة الذبح وبناء الكعبة ـ تم فى مكة وليس فى الشام فى بيت المقدس وليس من الضرورى فى تقديرنا أن تكون وسيلة السفر لإبراهيم من البلاد المقدسة مكة البراق وإن كان البراق ـ وهو

وسيلة السفر التى سخرها الله (سبحانه وتعالى) فى مكة وليس فى بيت المقدس بالشام . . .

ومناسك الحج وهو ركن من أركان الدين الإسلامى دين إبراهيم إسماعيل ودين المسلمين أحفاد إسماعيل من أحداث حياة إسماعيل وأبيه إبراهيم . والطواف حول الكعبة تقديراً وتذكيراً بما كان يفعله إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة ويدوران حولها . .

ولمس الحجر الأسود الذى أنزله من السماء وكان ياقوته بيضاء من ياقوت الجنة فاسود من أفعال الناس ومعاصيهم ووضعه إبراهيم بوحى من الله فى مكانه المحدد فى الركن بجدار الكعبة حين كان يبنى وفرغ هو وإسماعيل من البناء ولم يبق إلا مكان هذا الحجر .

والسعى بين الصفا والمروة تلخيداً لذكرى تردد (هاجر) أم إسماعيل سبع مرات بين الصفا والمروة بحثا عن أحد من الناس تلتمس لديه ماء أو لبنا لوليدها الرضيع إسماعيل الذى كان يتلوى من شدة الظمأ والجوع .

ومقام إبراهيم الذى أنزله الله من السماء وكان ياقوته من ياقوت الجنة . أتى به إسماعيل من مكانه الذى أودع فيه بالأرض منذ كان الطوفان - فى رأى - ليقف عليه أبوه إبراهيم حتى يتمكن من إتمام بناء الكعبة بيت الله الحرام والذى وقف عليه إبراهيم فى رأى آخر لينادى فى الناس بالحج بعد أن أتم مع إسماعيل البناء وهو الذى اتخذه المسلمون مصلى كما جاء فى القرآن الكريم [١] . . .

(١) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

ورمى الجمار فى جمرة العقبة والجمرة الوسطى تعظيماً لما كان بين إبراهيم (عليه السلام) والشيطان الرجيم حين أمر إبراهيم بالمناسك..

والنحر والأضحيات والهدى تخليداً لذكرى محاولة ذبح إسماعيل الابن البكر الوحيد لسيدنا إبراهيم وافتداء الله له بالذبح العظيم الذى ذبحه إبراهيم فى منى عند المنحر...

كذلك فقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن يُطَهِّرَا البيت الحرام من الأذى والخبث والرفث والفسوق وقول الزور والرجس وعبادة الأصنام كما جاء فى قوله من سورة البقرة .

﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾[1]

فكيف يمكن بعد هذا كله أن يكون هناك شك فى أن الذبيح إسماعيل ويظهر احتمال أن يكون الذبيح إسحاق المقيم فى الشام والبعيد عن الأماكن التى جرت فيها الأحداث التى وقعت لإسماعيل وهى ذات الأماكن التى تؤدى فيها مناسك الحج منذ تم بناء البيت الحرام وفرض الحج حتى الآن ؟

لا بأس تتميماً للفائدة والتماساً لوجه الحق والصواب والقول الفصل فى هذا الخلاف أن نستعرض ما يقوله المؤرخون.

وشراح حديث رسول الله (ﷺ) ومفسروا القرآن الكريم .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٥ .

نبدأ بما جاء في كتاب «تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية» للدكتور محمد الطيب النجار مدير جامعة الأزهر سابقاً، ونعرض ما جاء في هذا الكتاب بالتسلسل التاريخي الذى سار به كما يلى[1].

(١) لما ضاقت الحياة بإبراهيم مع هؤلاء الوثنيين الجاحدين فر بدينه متنقلاً من مكان إلى مكان، فرحل من العراق إلى فلسطين ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط..

(٢) ثم رحل إلى مصر وأقام فيها ماشاء الله أن يقيم..

(٣) ثم رجع من مصر، حيث استقر مرة ثانية فى فلسطين وكانت معه سارة، وقد زادت سنها على التسعين وجاريتها (المصرية) هاجر.

(٤) وقد عاش إبراهيم مدة طويلة دون أن يرزقه الله بولد من زوجته سارة، وكانت سارة حزينة من أجل ذلك، فحملتها شفقتها على زوجها إبراهيم وحبها له أن تهب له جاريتها هاجر، وقالت له: إنى حرمت من الولد فعسى الله أن يرزقك منها غلاماً تقر به عينك.

(٥) وقد حقق الله آمال إبراهيم وزوجته سارة فحملت هاجر وولدت إسماعيل وكان إبراهيم يومئذ فى السادسة والثمانين من عمره.

---

(١) تاريخ الأنبياء من ص ٥٠: ٧٥.

(٦) وقد اشتدت غيره سارة ولم تطق رؤية هاجر وطفلها إسماعيل فصارحت إبراهيم بما تجده فى نفسها وطلبت إليه أن يأخذ هاجروطفلها إلى أرض بعيدة عنها حتى لا تراها، فتردد إبراهيم فى الأمر شفقه منه على ابنه الصغير، ولكن الله أوحى إليه أن ينفذ رغبة سارة، فأخذ هاجر وابنها بأمر الله، وانتقل إلى شبه الجزيرة العربية حتى وصل بها إلى المكان الذى نبعت فيه بئر زمزم، ولما هم بالرحيل قالت له هاجر: إلى من تكلنا ؟ قال: إلى الله وأستودعكما إياه فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم: قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم انصرف إبراهيم (عليه السلام) من عندهما وهو يقول: ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾.

(٧) ولما شب إسماعيل وأطاق السعى والعمل رأى أبوه إبراهيم فى المنام: أن الله يأمره بذبح ولده إسماعيل... وكان إبراهيم يتردد عليه بين الحين والحين زائراً ومستأنساً، فقص عليه هذه الرؤيا وقال: ﴿ يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ فأجابه إسماعيل فى بر وصبر وإيمان: ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾.

(٨) وأسلم الابن البار نفسه لأبيه امتثالاً لأمر ربه وقال: يا أبت اشدد رباطى حتى لا اضطرب.. واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمى فينقص أجرى، وتراه أمى فتحزن، واشحذ شفرتك

وأسرع بمر السكين على حلقى ليكون أهون عليَّ فإن الموت شديد، فإذا أتيت أمى فأقرئها منى السلام فإن رأيت أن ترد قميصى إليها فافعل عسى أن يكون أسلى لها عنى، فقال إبراهيم: (نعم العون أنت يا بنى على أمر الله) ثم فعل إبراهيم ما طلب منه ابنه وأقبل عليه يقبله وعيناه تفيضان من الحزن واللوعة، وإسماعيل صابر على البلاء مستسلم للقضاء.. ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تعمل السكين شيئا، فقال له الابن: يا أبت كبنى على وجهى، فإنك إذا نظرت إلى وجهى أدركتك عليَّ رأفة تحول بينك وبين أمر الله، ففعل إبراهيم ذلك، ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت بأمر الله وسمع حينئذ النداء: ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ والتفت فإذا كبش عظيم إلى جواره وأوحى الله إليه بذبحه فكان كبش الفداء.

(٩) ثم ماتت هاجر وتزوج إسماعيل من قبيلة جرهم مرة أولى ثم طلقها وتزوج منهم مرة ثانية (وكان الطلاق لأول زوجة بأمر أبيه إبراهيم حين زار إبراهيم ابنه إسماعيل فى مكة ولم يجده فى بيته وحين سأل زوجته عن أحوالهما: أظهرت سخطًا ونفورا)....

(١٠) وفى إحدى الزيارات التى قام بها إبراهيم لولده إسماعيل، بنى البيت الحرام. وعاونه فى بنائه ولده إسماعيل.

(١١) ثم حملت سارة من إبراهيم ووهبها الله على الكبر إسحاق.

بهذا التسلسل التاريخى يتقرر لدى الدكتور محمد الطيب النجار أن الذبيح هو إسماعيل.

ونضيف إلى هذا أن رؤيا إبراهيم فى منامه لأمر الله بذبحه ولده الذى تمناه هو وزوجه سارة من زوجة أخرى هى جاريتها المصرية هاجر بعد أن يئست سارة ويئس إبراهيم معها من الإنجاب، وأشفقت سارة على زوجها إبراهيم من أحزان حرمانه من الولد، هذا كله يعد ابتلاء عظيماً لا شك فيه، وكانت خطوات وقائع هذه القصة تمهد لهذا الابتلاء بذبح إسماعيل.. وأنه مما يلفت النظر هنا موقف سارة من هاجر وابنها إسماعيل، وإصرارها على أن يبعدها عنها إبراهيم إلى مكان بعيد لا تراهما فيه، وهى التى تمنت وتضرعت وشجعت إبراهيم على أن يتزوج من جاريتها هاجر أملاً فى أن تنجب له الولد الذى لم تستطع أن تنجبه، وكذلك يلفت النظر وحى الله لإبراهيم أن يستجيب لرغبة زوجه سارة، ويبعد هاجر وولده إسماعيل من الشام ويحدد له المكان الذى ينقله إليه، ويكون هذا المكان تحديداً فى مكة عند بيت الله الحرام... ألا يدل هذا على أن الابتلاء كان خاصاً بإسماعيل.. وأن مناسك الحج كلها تقررت تبعاً لوقائع هذا الابتلاء؟ إن هذا كله ليؤكد القول بأن الذبيح إسماعيل..

ثم يقول الدكتور الطيب النجار: (ومن عجب أن اليهود يقولون: أن الذبيح هو إسحاق وليس بإسماعيل، مع أن فى كتبهم: أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده... وفى نسخة أخرى من كتبهم (يذبح ابنه البكر). وقد غفل هؤلاء أو عموا عن الحق فإن البكر لإبراهيم إنما هو إسماعيل. وكذلك هو الوحيد لأنه جاءه قبل إسحاق، فكان حينئذ هو البكر، وهو الوحيد... وأعجب من

ذلك: ما يزعمه بعض المبطلين الذين ينكرون وجود إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) ويزعمون: أن وجود إبراهيم وإسماعيل. إنما هو ادعاء اخترعه اليهود بعد هجرة الرسول إلى يثرب. ليتقربوا به إلى العرب المسلمين. ولا نحاول أن نرد على هؤلاء المبطلين. بما جاء في القرآن الكريم. لأنهم لا يؤمنون به، وإنما نرد عليهم بما جاء في سفر التكوين من أسفار التوراة، وهو الذى ترجم من العبرية إلى اليونانية سنة ٢٨٠ق.م (أى قبل الهجرة النبوية بتسعة قرون) وفى هذا السفر ذكر لإسماعيل وإبراهيم. (عليهما السلام) وتفصيل لقصة الذبيح. إلى غير ذلك من كل ما يتعلق بسيرة هذين النبيين الكريمين.

(٢) أما كتاب «قصص القرآن» لمحمد أحمد جاد المولى ومعه محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى والسيد شحاته. فإنه عرض لموضوع الذبيح بنفس التسلسل التاريخى لوقائع الأحداث مع تسجيل الحوار الذى دار بين إبراهيم وولده إسماعيل فى محاولة الذبح، وفى بناء الكعبة، وتأكيد أن الذبيح هو إسماعيل. غير أنه لم يشر أبداً إلى أن هناك رأى آخر يقول أن الذبيح غير إسماعيل.. وكأنما هى لديه قضية لا تحتاج إلى تنبيه أو مناقشة.. وقد رأيت أن أعرض منه ما لم أنقله تفصيلاً من كتاب تاريخ الأنبياء «للدكتور محمد الطيب النجار»[1] كما يلى:

يقول تحت عنوان «إسماعيل الذبيح»: (لم ينس إبراهيم ابنه، بل

(١) قصص القرآن ص ٦٠ ومابعدها.

كان يفد إليه لماماً ويزوره غباً ، ليطمئن على حاله ، ويقر عيناً بمرآه .
فلما شب وأطاق السعي والعمل ، رأى إبراهيم في نومه : أنه يؤمر بذبح ولده ، ورؤيا الأنبياء حق ، وأحلامهم صدق . فتنة إثر فتنة ، ومحنة تتلوها محنة : شيخ هرم ، جالد الأيام ، وعرك الدهر . وأخنته السنون . . قد كان طول حياته يأمل بالولد ، حتى إذا بلغ من الكبر عتياً ، رزقه الله بغلام وحيد ، قرت به عينه ، وأشرقت له نفسه . . ثم أمر أن يسكنه بواد غير ذي زرع ، ويتركه وأمه في مكان قفر ، ليس به حسيس ولا أنيس . . وامتثل لأمر الله ، وتركهما هناك ثقة بالله ، وإيماناً به ، وإطاعة لأمره . فجعل الله لهما من ضيقهما فرجاً ومخرجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان . . . ثم يؤمر بذبح الولد العزيز ، الذي هو بكره ووحيده ! إن هذه المحنة تنوء بها الجبال الراسيات ، ولكن العظائم كفؤها العظائم ، فعلى قدر إبراهيم وعلو منزلته . . . وعلى مقدار ثبات يقينه ، وكمال إيمانه . يكون ابتلاؤه واختباره . .

واستجاب لربه . وامتثل لأمره ، وسارع إلى طاعته . وارتحل حتى لقي ابنه ، ولم يلبث أن ألقى إليه الرغبة التي تدك الجبال ، وتنزع القلوب من الصدور . فقال : ﴿ يا بنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ . . . عرض عليه الأمر ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ، ويذبحه قهراً) . . وهذ ملحظ لطيف من مؤلف كتاب «قصص القرآن» . . وعبارة القرآن الكريم (فانظر ما ترى) هي العبارة التي لا يمكن أن يحل محلها عبارة أخرى ، فهي كلام رب العالمين ، ومهما فتشنا في اللغة العربية فلن

نجد أجمل ولا أكمل ولا أحكم ولا أسمى من هذه الكلمات الثلاث، فانظر ماذا ترى لعرض الأمر بالصورة المثالية فى اللين والرأفة والعطف واللطف. ومراعاة مشاعر الصبى الغلام: إسماعيل. ولهذا بادر الغلام بالطاعة، وأسرع لها بالإجابة. فقال: يأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين)...

ولم يكتف إسماعيل الغلام الصبى بهذا الرد. ولكنه كما جاء فى «قصص القرآن» :أراد أن يخفف عن أبيه لوعة الثكل، ويرشده إلى أقرب السبل إلى قصده، فقال: يا أبى اشدد وثاقى، واحكم رباطى، حتى لا أضطرب.. وذكر بقية كلام إسماعيل. وكلام إبراهيم كما رويناه من كتاب «تاريخ الأنبياء».

ثم يقول «قصص القرآن» :(فدى الله إسماعيل بذبح عظيم، رآه بجواره. فأقبل عليه وهوى بتلك السكين التى كانت كليلة، وأمرها على حلقه. فصرع لوقته، وخضب الأرض بدمائه. فكان فداء لابنه. وحقنا لدمه. ثم صار ذبح الضحايا. أمراً متبعاً يساهم فيه المسلمون كل عام ذكرى لذبح إسماعيل وشكراً لله على نعمته)... وبعد هذا كله.. وبعد أن عاد إبراهيم إلى الشام. يقول «قصص القرآن» فى بناء الكعبة.: (لبث إبراهيم بعيداً عن ابنه ما شاء له أن يلبث.. ثم وفد إليه، لا ليتفقد أمره، أو يتعرف حاله. أو يروى صدى شوقه. كما كان يفعل... بل جاء اليوم هذه البقاع لأمر جليل وشئ عظيم، فقد أمر ببناء الكعبة، وإقامة أول بيت للناس. فاستجاب لأمر ربه واضطلع به، غير هياب ولا وجل. وخف إلى

الحجاز، وجد فى البحث عن إسماعيل حتى عثر عليه. وهناك أفضى إبراهيم إلى ابنه بسر رهيب، وأخبره بأمر عجيب. فقال: يابنى، إن الله قد أمرنى أن أبنى هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فكان إسماعيل أطوع له من بنانه. وما كان جوابه إلا السمع والطاعة). وبدأ إبراهيم فى البناء وإسماعيل يعاونه، إلى أن ارتفع البناء وطال الجدار، وقصرت يد إبراهيم أن تنال أعلى البناء، وضعف الشيخ عن أن يرفع الحجارة إلى هذ العلو. فذهب إسماعيل يجد فى البحث حيث عثر على الحجر الأسود فقدمه إلى أبيه. فقام إبراهيم عليه[1]. وصار يبنى وإسماعيل يعاونه، وهكذا تم بناء البيت الحرام...

(٣) وابن كثير - كمؤرخ - يقول فى كتابه «قصص الأنبياء» تحت عنوان «قصة الذبيح»[2]:

قال الله (تعالى): ﴿وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يـابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا

(١) لا بد أن يكون هذا سهواً أو خطأ مطبعيا لأن إبراهيم عليه السلام وقف على المقام لا على الحجر الأسود

(٢) قصص الأنبياء ص ١٤١ - ١٤٥.

المؤمنين وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ «الآيات: ٩٩ - ١١٣ من سورة الصافات»

يذكر تعالى - عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه: أن يهب له ولداً صالحاً. فبشره الله بغلام حليم. وهو إسماعيل (عليه السلام) لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة. من عمر الخليل.

وهذا لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾. أى شب وصار يسعى فى مصالح أبيه.. فلما كان هذا. رأى إبراهيم (عليه السلام) فى المنام: أنه يؤمر بذبح ولده هذا وفى الحديث عن ابن عباس: مرفوعاً -: (رؤيا الأنبياء وحى).

وهذا اختبار من الله (عز وجل) لخليله. فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر، وقد طعن فى السن، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه. فى بلاد قفر. وواد ليس به حسيس ولا أنيس. ولا زرع ولا ضرع، فامتثل أمر الله فى ذلك، وتركهما هناك، ثقة بالله وتوكلا عليه، فجعل الله لهما فرجا ومخرجا. ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله. بذبح ولده - هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه[1] وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره - أجاب ربه وامتثل أمره. وسارع إلى طاعته..

(١) كتاب قصص الأنبياء ص ١٤٢.

ثم عرض ذلك على ولده. ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً. ويذبحه قهراً: ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟﴾.

فبادر الغلام الحليم - سر والده الخليل إبراهيم - فقال: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

وهذا الجواب، في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله (تعالى): ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ أي: استسلما لأمر الله، ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه. لئلا يشاهده. في حال ذبحه. قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة. والضحاك..

وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقا بالأرض. «وأسلما أي سمى إبراهيم وكبر، وتشهد الولد للموت.

قال السدي وغيره: أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً.. ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس، والله أعلم.

فعند ذلك نودي من الله (عز وجل): ﴿أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك. ومبادرتك إلى أمر ربك.. وبذلك ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران.. وكما مالك مبذول للضيفان. ولهذا قال (تعالى): ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ أي: الاختبار الظاهر البين.

وقوله: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ أي: وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله (تعالى) له. من العوض عنه..

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن. رآه مربوطاً بسمرة في (ثبير). قال الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خثيم. عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً[1]» وقال سعيد بن جبير: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه (ثبير) وكان عليه عهن أحمر[2]..

وعن ابن عباس: هبط عليه من (ثبير) كبش أعين أقرن، له ثغاء فذبحه، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه. رواه ابن أبي حاتم..

قال مجاهد: فذبحه بمنى... وقال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام... فأما ما روي عن ابن عباس.. أنه كان (وعلا) وعن الحسن: أنه كان (تيساً من الأروى واسمه (جرير) فلا يكاد يصح عنهما..

ثم غالباً ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات، وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم. والاختبار الباهر. (وأنه فدى بذبح عظيم.

وقد ورد في الحديث: أنه كان كبشاً...

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان. حدثنا منصور. عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة. قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم قالت:

---

(١) رواه الطبري في تاريخه (١ / ٢٧٧ / معارف) هكذا في أسفل الصفحة رقم ١٤٢ من قصص الأنبياء.

(٢) صوف الغنم.

أرسل رسول الله (ﷺ) إلى عثمان بن طلحة... وقالت مرة: أنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله (ﷺ) ؟. قال: قال لي رسول الله (ﷺ): [إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما - فخمرهما - فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شئ يشغل المصلي] . رواه أحمد في مسنده (٤ / ٦٨ / حلبي) ، (٥ / ٣٨٠ / حلبي) .

قال سفيان: (لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا) .

وكذا روى عن ابن عباس :أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس وهذا وحده دليل على أن الذبيح «إسماعيل» لأنه كان هو المقيم بمكة... وإسحاق لا نعلم أنه قدمها حال صغره... والله أعلم...

وهذا هو الظاهر من القرآن... بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾...

ومن جعله «حالاً» فقد تكلف.

ومستنده: أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات.. وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ها هنا، قطعاً لا محيد عنه: فإن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده... وفي نسخة من المعربة «بكره إسحاق»، فلفظة إسحاق ها هنا مقحمة مكذوبة مفتراة. لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر...

إنما ذاك إسماعيل . .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله (ﷺ) . . . وإسحاق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه . . . فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم. فحرفوا كلام الله وزادوا فيه. وهم قوم بهت، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله. يؤتيه من يشاء. وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم . . وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو من صحف أهل الكتاب.

وليس فى ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن[1] بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل، وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرطبى على أنه إسماعيل وليس إسحاق من قوله ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق، وإنه سيولد له يعقوب. ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له، هذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم . . .

وقد اعترض (السهيلى) على هذا الاستدلال، ورجح أنه إسحاق، واحتج بقوله: ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ قال: وإسماعيل لم يكن عنده . . إنما كان فى حال صغره هو وأمه بجبل مكة، كيف يبلغ معه السعى؟

---

(١) هكذا جاء فى الكتاب وهو يناقض مابعده.

وهذا فيه نظر، لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب فى كثير من الأوقات راكبًا البراق إلى مكة، يطلع على ولده وابنه ثم يرجع. والله أعلم.

(وأضيف إلى «نظر» ابن كثير على اعتراض السهيلى: أن ما احتج به السهيلى يستدعى أن تكون مسألة الذبح وقعت فى بيت المقدس بالشام، ولم تقع فى مكة مكان الحج ومناسك الحج. وهذا غير وارد وغير سليم وغير معقول. بل هو فى تقديرنا مرفوض وغير صحيح.

ويتابع ابن كثير حديثه فيقول: فمن حكى عنه بأنه إسحاق: كعب الأحبار. وروى عن عمر والعباس وعلى وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد وابن جبير ومجاهد وعطاء والشعبى ومقاتل وعبيد بن عمير وأبى ميسرة وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق والزهرى والقاسم وابن أبى بردة ومكحول وعثمان بن حضر والسدى والحسن وقتادة وأبى الهذيل وابن سباط... وهو اختيار ابن جرير وهذا عجب منه.. وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه.. وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل (عليه السلام). قال مجاهد وسعيد والشعبى ويوسف بن مهران وعطاء ونمير وأحد الروايات عن ابن عباس هو إسماعيل (عليه السلام).

وقال ابن جرير: حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أخبره عمر وابن قليس عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس: قال: المفدى إسماعيل: وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود...

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيل.

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي حاتم: روى عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وأبي جعفر محمد بن علي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل (عليه السلام).

وحكاه البغوي أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء. قلت: وروى عن معاوية. وجاء عنه: أن رجلاً قال لرسول الله (ﷺ): يا ابن الذبيحين: فضحك رسول الله (ﷺ) (في نهاية الصفحة رقم ١٤٤) يقول محقق الكتاب: (هذه الرواية ضعيفة. رواها الحاكم في مستدركه (٢ / ٥١١ / حيدر آباد) من طريق عبد الله بن محمد العتبي: حدثنا عن عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق. ابني إبراهيم، فقال بعضهم الذبيح إسماعيل.. وقال بعضهم: بل الذبيح إسحاق. فقال معاوية: سقطتم على الخبير - كنا عند رسول الله (ﷺ) فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله، خلفت البلاد يابسة. والماء يابساً.. هلك المال، وضاع العيال. فَعُدْ عليَّ بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فتبسم رسول الله (ﷺ) ولم ينكر عليه. فقلنا: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ قال: إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم، نذر لله إن سهل له أمرها أن يذبح بعض ولده فأخرجهم، فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم. وقالوا: ارض ربك وافد ابنك فقال: ففداه بمائة ناقة قال: فهو الذبيح، وإسماعيل الثاني - وسكت

عليه الحاكم. لكن تعقبه بقوله «قلت إسناده واه».. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤ - ١٨) بعد أن ذكره من هذا الوجه من رواية ابن جرير: «وهذا حديث غريب جداً».

ثم يقول ابن كثير: وإليه - يعني قول الجماعة التي ذكرها قبل -: (الذبيح هو إسماعيل) ذهب عمر بن عبدالعزيز، ومحمد بن إسحاق بن يسار..

وكان الحسن البصري يقول: لا شك في هذا...

وقال محمد بن إسحاق بن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب أنه حدثهم: أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، يعني استدلاله بقوله بعد العصمة ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فقال عمر: إن هذا الشئ ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه... وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبدالعزيز: أى ابنَيْ إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، لكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك. ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم...

يقول ابن كثير: (وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها. في كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة).. وسوف نعرض لها في تفسيره فيما يأتي..

(٤) أما كتاب «النبوة والأنبياء» فقد جاء فيه تحت عنوان «قصة الذبيح إسماعيل»[١]:

رأى إبراهيم (عليه السلام) فى منامه رؤيا - ورؤيا الأنبياء حق[٢] - رأى أن الله (تعالى) يأمره بذبح ولده البكر إسماعيل (عليه السلام). الذى لم يكن له ولد غيره وقد رزقه على كبر وشيخوخة، فما كان من إبراهيم (عليه السلام) بعد أن استيقظ من النوم إلا أن سار لتنفيذ أمر الله دون تلكؤ أو تردد، ولكنه أراد أن يختبر ولده، ويرى مقدار استجابته وطاعته لله فقال له:

﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾

عرض عليه ذلك الأمر ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من الأخذ بالقوة، فبادر الغلام الحليمَ سر والده الخليل إلى الطاعة وأسرع إلى الإجابة فقال:

﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾

وأراد الولد أن يخفف عن أبيه لوعة الثكل، ويرشده إلى أقرب السبل ليصل إلى قصده، فقال: يا أبت اجعل لى وثاقاً، واحكم رباطى حتى لا اضطرب. واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقى ليكون أهو علىَّ فإن الموت شديد وقعه أليم. فقال له إبراهيم: «نعم العون أنت يا بنى على تنفيذ أمر الله» ثم ضمه إلى صدره وأخذ يقبله ويودعه الوداع الأخير.

(١) النبوة والأنبياء ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) فى الحديث عن ابن عباس مرفوعا: «رؤيا الأنبياء وحى».

ثم أسلم إبراهيم ابنه فصرعه على شقه، وأوثقه بكثافة.. ووضع السكين على حلقه وأمَرَّها فوق عنقه، ولكنها لم تقطع، فقد انقلبت فى يده وكأنها قطعة من الخشب. فقال إسماعيل: يا أبت كبنى على وجهى، فإنك إذا نظرت إلىَّ أدركتك رحمة بى، تحول بينك وبين أمر الله، ففعل ثم وضع السكين على قفاه، فلم تمض الشفرة، لأن الله (تعالى) قد سلبها خاصية القطع. وعند ذلك جاء النداء الإلهى:

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم ﴾[1].

وجاء فى نفس الكتاب تحت عنوان «من هو الذبيح[2]»:

تقدم معنا أن الولد الذى أمر بذبحه إبراهيم هو (إسماعيل) الذى هو من نسل (هاجر)..

وهذا الرأى الصحيح المعتمد الذى عليه أكثر العلماء...

ذلك أن هذه القصة وقعت فى مكة.. وإسماعيل هو الذى كان مقيماً بمكة وإسحاق لا يعلم أنه قدم مكة فى حال صغره..

ويعتقد أهل الكتاب أن الذبيح (إسحاق) لا (إسماعيل) وهو مردود باطل لمخالفته لظاهر النصوص القرآنية...

ثم بعد أن ساق ما قاله ابن كثير كما مر بنا ـ نقلاً عن كتابه «البداية والنهاية» ١ / ١٥٨ ـ قال كتاب «النبوة والأنبياء»:

---

(١) الصافات الآيات ١٠٤ ـ ١٠٧.

(٢) النبوة والأنبياء ص٢٢٢، ٣٢٣.

وقد اشتهر أن النبى (ﷺ) يدعى ابن الذبيحين.. والمراد بهما: (إسماعيل، وعبد الله).

(٥) ثم نستعرض أقوال عالم جليل معاصر هو الشيخ عبدالوهاب النجار. مدرس التاريخ الإسلامى - سابقًا فى كلية أصول الدين - جامعة الأزهر الشريف. لأنه خاض غمار المتاهات الإسرائيلية، وبعض كتب أهل الكتاب. وخرج منها بالرأى الواضح السليم مدعمًا بما اطلع عليه من المراجع التاريخية الأساسية فى هذا الموضوع.

يقول فى كتابه «قصص الأنبياء» - وهو يتحدث عن مكان العبرة - فى قصة إبراهيم وما معها[١] (... وأما صبره على المكاره، وإيثاره رضا الله (تعالى) عنه. فيتجلى فى تقديمه ولده الواحد «إسماعيل» ليقتله بيده، ويقربه قربانًا لله (تعالى).. ويحرق جثمانه بيده، فأقدم على ذلك، صابرًا غير مكابر، ولا متضجر..).

وإن إسماعيل كان عبدًا مخلصًا من صغره، وقبل أن يبلغ حد التكليف صابرًا على المكاره. فإن أباه أخبره: أنه رأى فى المنام: أنه أمر بذبحه: فأجاب الله إلى ذلك صابرًا غير متألم ولا متبرم، ولم يعارض فى ذلك، ولم يحل على أن ذلك أضغاث أحلام بل قال له: ﴿يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾.

ويقول تحت عنوان «إسماعيل (عليه السلام) وإقدام أبيه على ذبحه»[٢].

(١) قصص الأنبياء ص١١٨.   (٢) قصص الأنبياء ص ١٠٠ - ١٠٣.

قال الله (تعالى) في سورة مريم: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾ الآيتان ٥٤ ـ ٥٥ . كانت المنامات عند الصالحين من عباد الله. بمثابة الوحي والأمر المباشر، وقد رأى إبراهيم في منامه: أنه أمر أن يقدم ابنه قرباناً لله ويحرقه كما تقدم القرابين وتحرق. وكان ذلك الولد «إسماعيل».

فصدع إبراهيم بذلك الأمر الصادر إليه في المنام وعرض الأمر على ولده فتقبل القضاء بالرضا وقال ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

(عبارات: «ويحرق جثمانه بيده» و«يحرقه» لم نجدها في أي من المراجع التي بين أيدينا ولعلها اجتهاد من الشيخ عبد الوهاب النجار. علله بقوله «كما تقدم القرابين وتحرق»).

ويقول بعض المفسرين: إنه رأى في منامه أن يذبح ذلك الولد عملاً. فقص على ولده فشجعه ابنه على أن يحقق منامه... فلما حقق العمل، وأهوى بالمدية إلى ذبحه ناداه الله بالكف، وأن هذا العمل منه يكفي تصديقاً للرؤيا.. ورأى إبراهيم كبشاً قريباً منه فدية عن ولده...

والآيات الخاصة بهذه الحادثة لم تذكر اسم ذلك الولد ولكن سياق الكلام، وذكر تبشير إبراهيم بإسحاق بعدها، لا يكاد يبقى شكاً. في أن الذبيح إسماعيل، إقرأوا قوله تعالى في سورة الصافات.

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق... ﴾(1).

ولا شك أن الضمير في (عليه) راجع إلى الذبيح.. فالإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر القصة صريح في أن إسحاق غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم بذبحه، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق معه صريحا يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق. أما هذه القصة في التوراة فبطلها عند اليهود إسحاق. وفي اعتقادي أن لفظ إسحاق حُشر حشْراً في غضون القصة وذلك حرصا منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حال صغره.

ودليلي على أن الذبيح هو إسماعيل «من التوراة نفسها» أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد أي: الذي ليس له سواه، إذ أن سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد بذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام، أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله وهذا هو الإسلام بعينه.. إذ الإسلام هو دين الطاعة والامتثال، وهو دين الله في الأولين والآخرين.

(1) سورة الصافات الآيات ٩٩-١١٣.

وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيد إبراهيم، في يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد ولإسماعيل نحو أربعة عشرة سنة كما هو صريح التوراة... وبقى إسماعيل إلى أن مات إبراهيم وحضر إسماعيل وفاته ودفنه.

وأيضا فإن ذبح إسحاق يناقض الوعد الذى وعد (الله) به إبراهيم: إن إسحاق سيكون له نسل)...

ثم يقول الشيخ عبدالوهاب النجار: (إن مسألة الذبح وقعت فى مكة لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعا كما فى حديث البخارى)..

ويقول فى موضع آخر: (وفى رأيى أن مسألة الذبح كانت قبل ولادة إسحاق... وأن إبراهيم أسكن إسماعيل وأمه.. مكان مكة. قبل مسألة الذبح، وأنها حصلت بنواحى مكة لا فى جبل (الموريا) بالشام[1])..

والقرآن الكريم يشير إلى أن الابن الذبيح كان غلاما.. قادرا على السعى والعمل ويستشار فى الأمر الجاد الجلل، ويمتاز بالذكاء وسلامة التفكير واتخاذ القرار الصائب السليم، ذلك قوله (تعالى) فى سورة الصافات:

﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾[2].

(١) قصص الأنبياء ص ١٠١-١٠٣ (٢) سورة الصافات الآية ١٠٢.

فهذه حال يناسبها أن يكون عمر إسماعيل قريباً من الثالثة عشرة، وقبيل ميلاد إسحاق بعام واحد ليكون إسماعيل أسبق فى الميلاد من إسحاق بأربعة عشر عاماً كما ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار.

وتبقى ملاحظة على ماذكره أبو جهم فى حديثه الذى مر بنا عن الفاكهى، وجاء فيه: أن عمر إبراهيم كان حين أمره الله ببناء البيت الحرام مائة سنة، وعمر إسماعيل ثلاثون. ومن المسلم به: أن إسماعيل ولد وعمر إبراهيم ست وثمانون. فلو كان عمر إسماعيل ثلاثين عند بناء البيت الحرام لكان عمر إبراهيم مائة وأربعة عشر عاماً ولو كان عمر إبراهيم هكذا لكان عمر إسماعيل أربعة عشر عاماً وتكون حادثة الذبح وقعت قبل بناء الكعبة كما يقول الشيخ عبدالوهاب النجار.. وهذا كله يرجح الرأى بأن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق..

وهكذا أيضا يترجح رأى من يقول: أن الذبيح إسماعيل.

وهو ما يمكن اعتباره رأى المؤرخين فى موضوع الذبيح على أساس أن ابن كثير فى كتابيه «البداية والنهاية» و«قصص الأنبياء» مرجع أساسى فى وقائع التاريخ.

كل من كتاب «قصص القرآن» و«النبوة والأنبياء» و«قصص الأنبيا» للشيخ عبدالوهاب النجار، اعتمدت بلا شك على المراجع التاريخية الأساسية فى هذا الموضوع. فماذا يقول المحدثون: شراح الحديث النبوى الشريف.

(١) سوف نبدأ بما يقوله ابن حجر العسقلاني صاحب كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري»[(١)] فهو يمثل في تقديرنا جميع المحدثين الثقاة يقول في باب رؤيا إبراهيم وقوله (تعالى):

﴿ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ قال مجاهد: أسلما سلّما ما أمرا به وتله: وضع وجهه بالأرض).. كذا لأبي ذر وساق في رواية كريمة. الآيات كلها).

(قيل كان إبراهيم نذر إن رزقه الله من سارة ولداً أن يذبحه قرباناً، فرأى في المنام أن أوف بنذرك). أخرجه ابن أبي موسى عن السدي. قال: فقال إبراهيم لإسحاق انطلق بنا نقرب قرباناً وأخذ حبلاً وسكيناً ثم انطلق به، حتى إذا كان بين الجبال، قال: يا أبت أين قربانك؟ قال: أنت يا بني، وإني أرى في المنام أني أذبحك.. الآيات: (فقال اشدد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي فتراه سارة فتحزن، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليّ، ففعل ذلك إبراهيم وهو يبكي، وأمر السكين على حلقه فلم تجز، وضرب الله على حلقه صفيحة من نحاس فكبه على جبينه وحز في قفاه. فنزل قوله:

(١) المجلد الثاني عشر ص٣٧٧ : ٣٧٩ من كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري»

﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ فالتفت فإذا هو بكبش فأخذه وأحل عن ابنه، ويقول ابن حجر:

(هكذا ذكره السدى ولعله أخذه من بعض أهل الكتاب) فقد أخرج ابن أبى حاتم بسند صحيح أيضاً عن الزهرى. عن القاسم. قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فحدث أبو هريرة عن النبى (ﷺ): [إن لكل نبى دعوة مستجابة] فقال كعب: افلا أخبرك عن إبراهيم، لما رأى أنه يذبح ابنه إسحاق. قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً. فذهب إلى سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت فى حاجته. قال: كلا إنه ذهب به ليذبحه ويزعم أن ربه أمره بذلك، فقالت: أخشى أن لا يطيع ربه، فجاء إلى إسحاق فأجابه بنحوه، فواجه إبراهيم فلم يلتفت إليه فأيس أن يطيعوه)...

وساق نحوه عن طريق سعيد عن قتادة. وزاد (أنه سد على إبراهيم الطريق إلى المنحر فأمره جبريل أن يرميه بسبع حصيات عند كل جمرة..) وكأن قتادة أخذ أوله عن بعض أهل الكتاب وآخره مما جاء عن ابن عباس وهو عن أحمد من طريق أبى الطفيل عنه قال: (إن إبراهيم لما رأى المناسك، عرض له إبليس عند المسعى، فسبقه إبراهيم فذهب به جبريل إلى العقبة، فعرض له إبليس، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، وكان على إسماعيل قميص أبيض، وتم تله للجبين فقال: يا أبت إنه ليس لى قميص

تكفنني فيه غيره فأخلعه فنودى من خلفه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فالتفت فإذا هو بكبش أبيض أقرن أعين فذبحه . . وأخرج ابن اسحاق في «المبتدأ» عن ابن عباس نحو هذا وزاد فوالذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام ، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة) .

وأخرجه أحمد أيضاً عن عثمان بن أبى طلحة . قال «أمرنى رسول الله (ﷺ) فواريت قرنى الكبش حين دخل البيت) . . . .

وعبارة ابن حجر ـ عما قاله السدى : (ولعله أخذه من بعض أهل الكتاب) وذكر منهم (كعب) من أن إبراهيم لما رأى أنه يذبح ابنه إسحاق . . وعبارته الثانية (وكأن قتادة أخذ أوله عن بعض أهل الكتاب ، وآخره مما جاء عن ابن عباس في قوله : وكان على إسماعيل قميص أبيض وتم تله للجبين ، كل هذا يوضح التلفيق لإثبات دعوى أهل الكتاب بأن الذبيح إسحاق . وهو كذلك لا يكفى للرد على هذا التلفيق والإدعاء لأنه أولا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم فقد قيل (كان إبراهيم نذر إن رزقه الله من سارة ولداً أن يذبحه قرباناً ، فرأى في المنام : أن أوف بنذرك) . . والقرآن الكريم يقول : ﴿ قال يابنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ . . فالذى رآه إبراهيم في المنام ـ كما قال السدى أن يفى بنذره . أما الذى رآه إبراهيم في المنام ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ أن الله يأمره بذبح ولده ابتلاء لإبراهيم ولا يعقل أن يكون ما ذكره

القرآن الكريم خاص بابن هاجر «إسماعيل»، وأن يكون هذا الذى قاله السدى وكعب خاص بابن سارة «إسحاق» وأن يكون إبراهيم قد رأى أن الله يأمره بذبح ولده الأول إسماعيل.. ثم رأى مرة ثانية أن الله يأمره بذبح ابنه الثانى إسحاق، ولم يأت فى القرآن الكريم ولا فى أى حديث عن رسول الله ولا عند أحد من المؤرخين شئ من هذا، وما معنى أن ينذر إبراهيم بذبح الولد إذا رزقه الله به من سارة. إذا كان إسماعيل موجوداً وأمر الله إبراهيم أن يذبحه ثم افتداه الله بذبح عظيم.. وكذلك لا معنى لأن ينذر إبراهيم بذبح ولده إذا رزقه الله به من سارة إذا لم يكن إسماعيل موجوداً. وإبراهيم وسارة ـ فى هذه الحالة المفترضة ـ فى أشد الحاجة إلى ابن تبدل به سارة ذل العقم وترضى أمومتها المحرومة، ويرضى أبوه إبراهيم ويساعده فى أعمال الحياة. كيف وإبراهيم فى أشد الحاجة إلى ولده. أن ينذر بذبحه؟

ثم إن القرآن الكريم يقرر أن إبراهيم سأل ولده الرأى بعد أن رأى فى منامه أنه يذبحه، وليس كما قيل أن إبراهيم انطلق بولده وأخذ حبلاً وسكيناً حتى إذا كان بين الجبال قال الولد: يا أبت أين قربانك؟

ذلك أن الولد ذهب مع أبيه إلى مكان النحر، وهو يعلم تماماً أن أباه سوف يذبحه، وذلك بعد أن رأى الوالد فى منامه أن الله يأمره بذبح ولده، ثم سأل ولده وأجاب الولد: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين.

وكذلك فإن ما قيل يتعارض ثانياً مع التاريخ والواقع الذى صنعته أحداث قصة الذبيح.

ذلك أن هذا الذى قيل يعنى أن قصة الذبيح حدثت فى الشام أو بيت المقدس وليس فى مكة، وهذا مخالف لما عليه المؤرخون والمحدثون والمفسرون.

وربما من أجل هذا كله يقول ابن حجر: وهذه الآثار من أقوى الحجج لمن قال: إن الذبيح إسماعيل).

ويقول أيضاً (وهو) عن ابن عباس. فى أشهر الروايتين، وعن علىّ فى إحدى الروايتين، وعن أبى هريرة ومعاوية وابن عمر وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والشعبى فى إحدى الروايتين عنهم..

ومجاهد والحسن ومحمد بن كعب وأبى جعفر الياقد... وأبى صالح والربيع بن أنس وأبى عمرو بن العلاء وعمر بن عبدالعزيز وابن إسحاق أن الذبيح إسماعيل. ويؤيد ذلك ما ذكرنا ـ وحديث [أنا ابن الذبيحين] رويناه من حديث معاوية، نقله عبدالله بن أحمد عن أبيه وابن أبى حاتم عن أبيه وأطنب ابن العقيل فى الهدى والاستدلال لتقويته.

وقرأت بخط الشيخ «تقى الدين السبكى أنه استنبط من القرآن دليلاً وهو قوله (تعالى) فى سورة الصافات:

﴿وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين * رب هب لى من الصالحين

فبشرناه بغلام حليم.فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾[1].

قوله (تعالى) في سورة هود:

﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب ﴾[2].

قال: ووجه الأخذ منهما: أن سياقهما يدل على أنهما قصتان مختلفتان وفي وقتين: الأولى عن طلب من إبراهيم وهو لما هاجر من بلاد قومه فى ابتداء أمره فسأل ربه الولد... ﴿ فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ﴾ والثانية بعد ذلك بدهر طويل لما شاخ إبراهيم واستبعد من مثله أن يجئ له الولد، وجاءته الملائكة عندما أمروا بإهلاك قوم لوط فبشروه بإسحاق، فتعين أن يكون الأول إسماعيل. ويؤيده أن فى التوراة. إن إسماعيل بكره وأنه ولد قبل إسحاق ويقول ابن أبى حجر: (قلت: وهو استدلال جيد، ولقد كنت استحسنه واحتج به إلى أن مرّ بى قوله (تعالى) في سورة إبراهيم: ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء ﴾[3].

---

(١) سورة الصافات الآيات ٩٩ - ١٠٢. (٢) سورة هود الآية ٧١ - ٧٢.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٣٩.

فإنه يؤكد على قوله: (إنه رزق إسماعيل في ابتداء أمر قوته لأن هاجر والدة إسماعيل صارت لسارة من قبل الجبار الذى وهبها لها. وأنها وهبتها لإبراهيم لما يئست من الولد، فولدت هاجر إسماعيل فغارت سارة منها وولدت بعد ذلك إسحاق.. واستمرت غيرة سارة إلى أن كان من إخراج هاجر وولده إلى مكة ما كان... وقد ذكره ابن إسحاق في المبتدأ مفصلا، وأخرجه الطبرى «في تاريخه من طريقه، وأخرج الطبرى عن طريق السدى. قال انطلق إبراهيم من بلاد قومه قبل الشام فلقى سارة وهى بنت ملك حران فآمنت به فتزوجها، فلما قدم مصر وهبها الجبار هاجر ووهبتها له سارة وكانت منعت الولد، وكان إبراهيم قد دعى الله أن يهبه ولداً من الصالحين فلما علمت سارة إن إبراهيم وقع على هاجر حزنت على ما فاتها من الولد، ثم ذكر قصة مجئ الملائكة لسبب إهلاك قوم لوط، وتبشيرهم إبراهيم بإسحاق فلذلك قال إبراهيم: ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق...﴾ ويقال لم يكن بينهما إلا ثلاث سنين، وقيل كان بينهما أربعة عشر عاماً، وما تقدم من كون قصة الذبيح كانت بمكة حجة قوية في أن الذبيح إسماعيل، لأن سارة وإسحاق لم يكونا بمكة والله أعلم).

وينبه ابن حجر إلى أن هذه الترجمة ليس فيها حديث مسند بل اكتفى فيه بالقرآن الكريم ولها نظائر...).

وفى تقديرنا: أن ماجاء فى القرآن الكريم من سورة إبراهيم: ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ لا

يعكر كما يقول ابن حجر على قول (السبكي) (إن إبراهيم رزق إسماعيل فى ابتداء أمره (فإن عبارة السبكي فى ابتداء أمره) ليست عبارة (ابن حجر) (فى ابتداء أمر قوته) وفرق كبير بين العبارتين وبالتالى فإن قوله (تعالى) على لسان إبراهيم: ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ لا يقلل من استحسان ابن حجر لما استنبط السبكي من القرآن الكريم، ولا يضعف من قوة الإحتجاج به.

وأغلب الظن أن الأمر التبس على ابن حجر من عبارة السبكي... (فى ابتداء أمره) قد فسرها ابن حجر بعبارة فى ابتداء أمر قوته).

مع أن العبارتين لا تعبران تماماً عن المراد هنا، فلا عبارة (السبكي) تصلح أن تكون: إن إبراهيم رزق إسماعيل فى (ابتداء أمره... أى فى بداية قيامه بدعوته وتبليغ رسالته، ولا عبارة (ابن حجر) تصلح أن تكون: أن إبراهيم رزق إسماعيل فى ابتداء أمر قوته.

أى فى بداية استكمال قوته البدنية بعد أن تخطى مرحلة الضعف البدنية فى الطفولة والمراهقة ويشرف على مرحلة الرجولة والفتوة.

ذلك أن طلب إبراهيم من ربه أنه يهبه من الصالحين إنما كان بعد أن:

(١) تجاوز مرحلة الطفولة والمراهقة وخطا حثيثاً فى مرحلة الرجولة والشباب إلى مرحلة الكبر فى السن، إذ من المعقول أن

ينتظر إبراهيم أن يرزقه الله بالولد حتى يصل إلى السن التى يخشى فيها من الحرمان واليأس من الإنجاب، فإذا ما وصل إلى هذه السن المتأخرة كان من المعقول أن يدعو الله أن يهبه من الصالحين وهذا ماحدث.

(٢) فما كان طلب إبراهيم من ربه أن يهديه من الصالحين إلا بعد أن تزوج من سارة، وأمضى معها أعواماً طويلة لم ينجب فيها.. ولم يتزوج من سارة إلا بعد أن قضى أعواماً يدعو قومه إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام.

(٣) وبعد أن حطم الأصنام.

(٤) وبعد أن ألقوه فى النار لذلك.

(٥) وبعد أن حفظه الله وخرج من النار سالماً.

(٦) وبعد أن اضطهده الملك، كما جاء فى رواية ابن حجر التى أخرجها الطبرى فى تاريخه عن طريق السدى [1] ولم يمكنه من أن يواصل دعوة قومه إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام فرحل إلى الأرض المباركة فى الشام، وهناك تزوج سارة كما رجحنا فيما مضى.

(٧) وبعد أن مكث مع سارة فى الشام، بعد زواجهما فترة من الزمن يدعو أهل هذه البلاد إلى عبادة الله، وينتظر هو وسارة أن يرزقهما الله بولد، وطال انتظارهما دون أمل فى الإنجاب.

(١) فتح البارى المجلد الثانى عشر ص ٣٧٩.

(٨) وبعد أن رحل إلى مصر من الشام هو وزوجه سارة بسبب الجدب الذى أصاب البلاد فى هذ الوقت.

(٩) وبعد أن حدث ماحدث بين سارة وجبار مصر فى محاولته الاعتداء عليها ونجاها الله من هذه المحاولة، وأهداها ملك مصر (هاجر) خادمة لها.

(١٠) وبعد أن عاد إبراهيم وسارة. ومعهما (هاجر) من مصر إلى الأرض المقدسة مرة أخرى، وهنا يكون من المعقول، أن يدعو إبراهيم ربه أن يهبه من الصالحين، وأن تكون استجابة الله لدعائه بعد سنوات من دعاء إبراهيم، وبعد ان اتفقت (سارة) مع إبراهيم أن يدخل بأمتها (هاجر). لعل الله يرزقهما منها بولد تقر بهما أعينهما فحملت (هاجر) بإسماعيل من إبراهيم..

يؤكد هذا قوله (تعالى): ﴿فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك﴾. أى: أن الله وهب إبراهيم (إسماعيل). قرب نهاية الأمر قبيل مسألة الذبح ببضع سنين.. وليس فى ابتداء الأمر كما يقول (السبكى)، ولا فى ابتداء قوته. كما يقول (ابن حجر)..

ولقد سجل معظم المؤرخين: إن إبراهيم (عليه السلام) رزق بإسماعيل وعمرة ست وثمانون سنه.. ورزق بإسحاق بعد أربع عشرة سنة من ميلاد إسماعيل أى: أن إبراهيم (عليه السلام) كان قد وصل إلى سن المائة، أو ما يقرب من سن التسعين على رأى من يقول إن إسحاق ولد بعد إسماعيل بثلاث سنين، فهى كلها سن تضعف قدرات الإنسان وتسير به إلى طريق الشيخوخة.

ثم إنه بالنسبة لإسماعيل، قد طال انتظار إبراهيم لأن يرزقه الله به، وكانت زوجته (سارة) عاقراً، وسنوات الانتظار والترقب، مع الحرمان من الأبوة، وتضاؤل الأمل يوماً بعد يوم في هذه المرحلة من العمر، تعجل بالإنسان، إلى مظاهر سن الشيخوخة، حتى ولو كان في عنفوان قوته، إلى جانب الإحساس بأنه وزوجته (سارة) يسيران إلى هذه السن المتقدمة دون ولد.

ولهذا كان كلام إبراهيم (عليه السلام) في تقديرنا.. مناسباً لحالته النفسية، وبالتالي فهو لا يقلل من استحسان (ابن حجر). لما استنبطه (السبكي) من القرآن الكريم ولا يضعف من قوة الاحتجاج به والله أعلم.

(٢) أما كتاب «زاد المعاد في هدى خير العباد» للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. الذي عاش من سنة ٦٩١هـ إلى سنة ٧٥١هـ، فقد كان أشد المحدثين يقينا بأن الذبيح إسماعيل. يقول بعد أن ذكر نسب رسول الله محمد (ﷺ)[١]:

(ولا خلاف بين النسابين أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام..

وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب. عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها...

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد/ باب نسب رسول الله (ﷺ).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية. (قدس الله وجهه) يقول: (هذا القول إنما هو متلق عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم. فإن فيه: أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين. أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق... قال وهذه الزيادة من تخريفهم وكذبهم لأنها تناقض قوله. اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف. وأحبوا أن يكون لهم وأن يسوقوه إليهم ويختاروه دون العرب ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله).

وكيف يسوغ: أن يقال أن الذبيح إسحاق، والله (تعالى) قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب. قال (تعالى) عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى. ﴿ قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه. ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة. فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه، فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة: ومن وراء إسحاق يعقوب أي: ويعقوب من وراء إسحاق، قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به لأن البشارة قول مخصوص وهي أول خبر سار صادق. وقوله (تعالى): ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود فتكون بشارة بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية، ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول. كان المعنى: وقلنا

لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال بشرت فلاناً بقدوم أخيه وثقله فى أثره، لم يعقل منه إلا البشارة بالأمرين جميعاً، هذا مما لا يسترِيب ذو فهم فيه البتة. ثم يضعف الجر أمر آخر وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمر، ولأن العاطف يقوم مقام الجر فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور..

ويدل عليه أيضاً: أن الله (سبحانه) لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال: ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ ثم قال (تعالى): ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾.

فهذه بشارة من الله (تعالى) له، شكراً على صبره، على ما أمر به، وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول، بل هو كالنص فيه، فإن قيل: فالبشارة الثانية، وقعت على نبوته، أى: لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم (الولد لأمر الله. جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة) قيل البشارة وقعت على المجموع على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب نبياً على الحال المقدر، أى مقدراً ثبوته فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخصص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة.. هذ محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى..

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها كما جُعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هم اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه ولهذا اتصل مكان الذبح ومكانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى من عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله (سبحانه): سمى الذبيح حليماً لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سماه عليماً. فقال تعالى﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ وهذا إسحاق بلا ريب أنه من أمرأته (سارة) وهي المبشرة به، وأما إسماعيل فمن السرية.

وأيضاً فإنهما (إبراهيم وامرأته سارة) بُشرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل. فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله (سبحانه) أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم (عليه السلام) لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله (تعالى) قد

اتخذ إبراهيم خليلاً ، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يشارك بينه وبين غيره ، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمر بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحة ، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ ، من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذا كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطيد النفس فيه ، فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر وفدى الذبح . وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب (سبحانه وتعالى) .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار ، إنما حصل عند أول مولود ، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول (الأول إسماعيل ، والثاني إسحاق) بل لم يحصل عند المولود الآخر (إسحاق) من مزاحمة الخلة ، ما يقتضي الأمر بذبحة ، وهذا في غاية الظهور .

وأيضاً فإن (سارة) امرأة الخليل ، غارت من (هاجر) وابنها أشد الغيرة ، فإنها كانت جارية ، فلما ولد إسماعيل ، وأحبه أبوه ، اشتدت غيرة سارة ، فأمر الله (سبحانه) أن يبعد عنها هاجر وابنها ، وليسكنها في أرض مكة ، لتبرد في سارة حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته ورأفته ، فكيف يأمره (سبحانه) بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله هذا ، مع رحمة الله بها ، وإبعاد الضرر عنها وجبره لها ، ، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية . فحينئذ يرق قلب السيدة على ولدها ، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة

هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً. هذه وابنها منهم، ويرى عباده. جبره بعد الكسر ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر (هاجر) وابنها على البعد والوحدة والغربة، والتسليم إلى ذبح لولد. آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما، ومواطئ أقدامها، مناسك لعباده المؤمنين. وتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته (تعالى) فيمن يريد رفعه، من خلقه: أن يمن عليه بعد استضعافه، وذله وانكساره، قال (تعالى): ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفو في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾. ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

ولعلي أضيف إلى ما ذكره (ابن القيم) أمرين: (الأول): توضيحاً لقوله: (فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر، وفدى الذبح) ففي تقديرنا. أن الله (سبحانه وتعالى) أمر إبراهيم في منامه. أن يذبح ولده لتصل محبة إبراهيم الخليل لله (عز وجل) إلى الدرجة التي لا يزاحمها فيها حبه لولده البكر، وقد ترقى إبراهيم في درجات الطاعة وامتثال أمره بذبح ولده. درجة بعد أخرى تكررت في كل منها محاولة الذبح. دون أن تتم بإرادة الله ومشيئته. حتى إذا وصل إلى درجة الإخلاص لمحبة الله ظهر المقصود. ونادى الله إبراهيم أن صدقت الرؤيا. وكان الفداء بالذبح العظيم.. ومعنى هذا أنه لم يكن هنالك نسخ للأمر بالذبح. لأن الله (سبحانه وتعالى) لم يرد الذبح حقيقة. من أول الأمر وإنما هو ابتلاء واختبار نجح فيه إبراهيم الخليل وإسماعيل (عليهما السلام) كل النجاح. والله أعلم.

الأمر الثانى : أن الأمر بذبح إسماعيل فى الرؤيا . وإبعاده هو وأمه هاجر عن سارة لا يمكن أن يكون فقط مراعاة لمشاعر سارة ، وكما يقول ابن القيم : (لتبرد سارة حرارة الغيرة) . حقيقة كانت سارة امرأة مؤمنة قوية الإيمان . وقفت إلى جانب زوجها إبراهيم الخليل فى كل المحن . وحفظها الله . حين أراد ملك مصر أن يغتصبها ، ولكن ما حدث لإسماعيل كان أمراً أخطر وأكبر . هو التشريع الإلهى لمناسك الحج كركن من أركان الدين الإسلامى . مرتبطاً بالأحداث التى وقعت لإسماعيل وأبيه إبراهيم فى مكة . . .

وهكذا أيضاً يترجح رأى من يقول (إن الذبيح إسماعيل . . فماذا يقول المفسرون؟ . . . (

عند المفسرين

سوف نعرض لأقوال من توفرت لدى مؤلفاتهم فى التفسير وهى أقوال القرطبى والرازى والطبرى. والجمل على الجلالين، وابن كثير. ثم صفوة التفاسير، وهى أقوال فى اعتقادنا تمثل آراء ومذاهب جميع المفسرين. سواء منهم من يميل إلى أن الذبيح إسماعيل أو إسحاق.

أولا: عند القرطبى

يقول فى تفسير قوله (تعالى) من سورة مريم[1]:

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا، واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ الآيتان ٥٤ ـ ٥٥

(يقول الجمهور: إنه إسماعيل الذبيح... أبو العرب... ابن إبراهيم.. وقد قيل إن الذبيح إسحاق. والأول أظهر.. وخصه الله بصدق الوعد. وإن كان موجوداً فى غيره من الأنبياء تشريفاً له. وإكراماً ولأنه المشهور فى خصاله... واختلف فى ذلك فقيل إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح.. فصبر حتى فدى.. وقيل: وعد رجلاً أن يلقاه فى موضع. فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يوماً وليلة فلما كان فى اليوم الآخر. جاء فقال له: ما زلت هاهنا فى انتظارك منذ أمس.. وقيل انتظره ثلاثة أيام.. وقال يزيد الرقاشى: انتظره

---

(١) الجامع لأحكام القرآن المجلد السادس الجزء الحادى عشر ص ١١٤، ١١٥، ١١٦.

إسماعيل اثنين وعشرين يوماً ذكره الماوردى.. وفي كتاب ابن سلام: أنه انتظره سنة وذكره الزمخشري. عن ابن عباس: أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة وذكره القشيرى. قال فلم يبرح من مكانه سنة حتى تاه جبريل (عليه السلام) فقال: إن التاجر الذى سألك أن تقعد له حتى يعود. هو إبليس. فلا تقعد. ولا كرامة له.. وهذا بعيد... ولا يصح.. (وقد قيل: إن إسماعيل لم يعد شيئاً إلا وفى به. وهذا قول صحيح. وهو الذى يقتضيه ظاهر الآية. والله أعلم).

هكذا في البداية: يقرر القرطبى: أن رأى الجمهور. بأن الذبيح إسماعيل. هو الأظهر، يضاف إلى هذا: أن القول الأول الذى سجله القرطبى. فى تفسير قوله (تعالى): ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ بأنه وعد نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى تؤكد ما ذهب إليه الجمهور، وهو ما قرره واختاره القرطبى، من أن الذبيح إسماعيل..

ونضيف إلى ما يؤكد هذا الرأى ما تشير إليه الآية الكريمة، من سورة الأنبياء الآية ٨٥ ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾ فأى صبر لإسماعيل أعظم من صبره على أمر الله بأن يذبحه أبوه إبراهيم. كما قرر القرطبى في تفسيره لـ (صادق الوعد).

ولم يرد في القرآن الكريم. وصف إسحاق (عليه السلام) بأنه من الصابرين، ولا بأنه صادق الوعد مثل ما جاء عن إسماعيل وإذا

كان هذا لا ينفى أنه (عليه السلام) من الصابرين ولا أنه صادق الوعد.

فيتعين أن يكون الوصف بهما فى القرآن الكريم لمناسبة خاصة. وهى الصبر على أعظم اختبار لإنسان من رب العالمين.

ويزداد هذا التأكيد لقوة وصحة القول عند الجمهور وعند القرطبى. بأن الذبيح إسماعيل بقوله (تعالى) على لسان الذبيح: ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ فهل هناك أكثر وأوضح دلالة على أن الذبيح هو إسماعيل من هذا التوافق بين وصف الله لإسماعيل ووصف الذبيح لنفسه بأنه من الصابرين؟

والقرطبى لم يذكر شيئًا عن سبب وصف الله (سبحانه) لإسماعيل بأنه من الصابرين وأغلب الظن أنه اكتفى عن هذا. بما قرره فى تفسير قوله (تعالى) عن إسماعيل. بأنه كان صادق الوعد ورجح فيه قول الجمهور. بأنه إسماعيل الذبيح وفى تعليل وصف إسماعيل بأنه كان صادق الوعد لأنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح. فصبر حتى فدى..

ومع أن التعليل الثانى وهو أن إسماعيل انتظر صاحبًا له ثلاثة أيام. أو اثنين وعشر يومًا أو سنة. بعيد ولا يصح كما يرى القرطبى. فهو كذلك فى تقديرنا. غير معقول ولا مقبول. لسبب بسيط جدًا. وهو أن إسماعيل (عليه السلام) يحتاج كأى إنسان إلى أن يأكل ويشرب وينام ويقضى حاجته ويسعى إلى عمله

وتحصيل رزقه.. وهذه أمور كلها تستدعى مغادرة المكان والنقل كل ليل وكل نهار... ولكننى ذكرته لتوضيح رأى القرطبى. الذى اختاره فى بداية تفسيره. وهو أن الذبيح إسماعيل كما هو رأى الجمهور..

أما قوله (تعالى) فى سورة الصافات[1]: ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم ـ إلى قوله (تعالى) ـ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ الآيات ٩٩ ـ ١١٣ فيقول فيه القرطبى: ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ أى: هب لى ولداً صالحاً من الصالحين ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ أى: فوهبنا له الغلام. ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ أى فلما بلغ المبلغ الذى يسعى مع أبيه فى أمور الدنيا. معيناً له على أعماله... ويروى القرطبى عن الفراء قوله (كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة)... ثم يقول القرطبى (واختلف العلماء فى المأمور بذبحه. قال جماعة الذبيح إسحاق. وممن قال بهذا العباس بن عبدالمطلب ـ وابنه عبدالله ـ وعبدالله بن مسعود.. وروى عن جابر.. وعلى بن أبى طالب.. وعبدالله بن عمير.. وهو قول عمر (رضى الله عنه) وقال به علقمة... والشعبى.. ومجاهد... وسعيد بن جبير... وكعب الأحبار... وقتادة ومسروق.. وعكرمة.. والقاسم بن أبى بزة.. وعطاء.. ومقاتل.. وابن سابط.. والزهرى.. والسدى... وعبدالله بن أبى الهذيل.. ومالك بن أنس.. واختاره النحاس..

(١) الجامع لأحكام القرآن المجلد الثامن الجزء الخامس عشر ص٩٩ ـ ١١٤.

والطبرى . . ـ وسوف يأتى ما ذكره الطبرى فى تفسيره ـ وعليه أهل الكتابين : (اليهود والنصارى) . . ويغلب على الظن : أن هذه المجموعة من الأسماء هى كل ماقدر القرطبى أن يجمعه ممن قال . أو اختار . أو نسب إليه . القول بأن الذبيح إسحاق لأنه المعروف عن القرطبى : أنه يتحرى دائماً . ويتقصى إلى ما لا نهاية . لأى موضوع يتناوله بالتفسير والتوضيح . . .

ثم إنه سجل هذه الأراء دون تحفظ . بأن منها ماهو أحد روايتين ، أو أحد قولين . . فى أن الذبيح إسماعيل أو إسحاق . .

وذلك كله على العكس مما صنعه ابن كثير فى قصص الأنبياء . كما مر بنا . وكما أوضحنا فيما سبق من حديث عن أقوال المؤرخين . . وأقوال ابن حجر العسقلانى عن المحدثين فى كتابه «فتح البارى» . .

هذا إلى جانب : أن ما يقوله اليهود والنصارى . . فى مثل هذه الموضوعات التى تنسب الفضل والتقدير إلى أصحابها من الرسل والأنبياء والقيادات والشخصيات الإسلامية البارزة . ينبغى أن نتوقف عنده ولا نقبله بسهولة وبلا مناقشة وتمحيص . . فمن المعروف عنهم أنهم يحسدون المسلمين على كل ما حباهم الله به من نعمة وفضل . . ولهذا فإن الشك يحوم حول هذا التوافق بين ما عليه أهل الكتابين . وما ذهب إليه عدد من رجال المسلمين فى إحدى الروايتين عن البعض منهم من أن الذبيح إسحاق . .

ويضيف القرطبى : (قال سعيد بن جبير : أرى إبراهيم ذبح إسحاق . فى المنام فسار به مسيرة شهر . فى غداة واحدة حتى أتى به المنحر من منى . . فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح

الكبش. فذبحه. وسار به مسيرة شهر فى روحة واحدة طويت له الأودية والجبال)...

ولقد مر بنا. فى فتح البارى. لابن حجر العسقلانى شرح صحيح البخارى. ما رواه ابن أبى موسى. عن السدى.. وما رواه قتاده عن كعب. من أن محاولة ذبح إسحاق كانت فى جبال بيت المقدس. وليس بعيدا عن بيت أمه سارة. وأن إبراهيم أخبر سارة أنه سوف يذهب بإسحاق إلى الجبل فى حاجته.. وأن الفداء بالكبش وذبح الكبش تم على هذ الجبل فى بيت المقدس.. وكان تعليق ابن حجر على الرواية الأولى: (هكذا ذكره السدى ولعله أخذه من بعض أهل الكتاب).. وكان تعليقه على الرواية الثانية: (وكان قتادة أخذ أوله عن بعض أهل الكتاب. وآخره مما جاء عن ابن عباس) من أن الذبيح إسماعيل)..

وهذا الاختلاف بين أن تكون محاولة ذبح إسحاق تمت فى بيت المقدس. أو تمت فى مكة يضعف كثيراً رأى من يقول إن الذبيح إسحاق ويدعونا إلى عدم التسليم بهذا الرأى.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام. مع هذا التناقض والاختلاف. أن ما يقوله سعيد بن جبير. عن سفر إبراهيم من بيت المقدس. إلى مكة. وعودته ثانياً احتج به ابن كثير فى قصص القرآن. على أن الذبيح إسماعيل وذلك كما مر بنا فى رده على ما رجحه السهيلى. من أن الذبيح إسحاق. لأن إبراهيم لم يكن مع إسماعيل فى مكة. وإنما كان مع إسحاق فى بيت المقدس. فيتعين أن يكون الذبيح إسحاق.

الذى كان مع والده إبراهيم ، وكذلك احتج به ابن حجر فى فتح البارى على أن الذبيح إسماعيل لأن إسحاق لم يكن بمكة.

ثم يأتى سعيد بن جبير فيقرر : أن إبراهيم كان بمكة فينقض بهذا ما رجحه السهيلى على أن الذبيح إسحاق..

وهكذا نجد دليلاً واحداً . احتج به من يقول أن الذبيح إسماعيل واحتج به من يقول إنه إسحاق..

وهذا لا غبار عليه . ما دام كل من الفريقين ينظر إلى هذا الدليل من زاوية مختلفة.. ولكن غير المعقول . أن يعود أصحاب الرأى الثانى ليستدلوا بثبوت نفس الدليل على أنه كذلك إسحاق.. وكان الأولى والمعقول والمقبول والمناسب.. أن يعترفوا بأن الذبيح إسماعيل . حيث لا مبرر لأن يسافر إسحاق من بيت المقدس . إلى مكة . ما دام إسماعيل فى مكة.

مع ملاحظة أنه لا خلاف بين الفريقين . وعند أهل الكتابين . على أن الذبيح كان بكر والديه ووحيدهما.. ولم يضع الله (سبحانه وتعالى) إبراهيم فى موضع التخيير . بين أن يكون الذبيح ولده إسماعيل . أو ولده إسحاق.

مغالطة لا شك فيها.. فى الأولى . أنكروا : أن يكون إبراهيم فى مكة ليقرروا أن الذبيح لم يكن إسماعيل الموجود فى مكة.. وفى الثانية اعترفوا بأن إبراهيم فى مكة ليقرروا أيضا أنه لم يكن إسماعيل . وإنما هو إسحاق الذى أحضره معه والده من بيت المقدس ليذبحه فى مكة..

وهذه المغالطة وهذا التناقض يزرعان الشك فيما يحاول اليهود أن يثبتوه.. وهما فى نفس الوقت يدعمان رأى من يقول أن الذبيح إسماعيل.. نضيف إلى هذا.. وإلى ما سبق: أن الاستجابة لأمر الله بذبح الابن البكر الوحيد أكثر دلاله على قوة الإيمان بالله.. وعلى صدق الامتثال لأمر الله. من ذبح الابن غير البكر وغير الوحيد.. وذلك هو المناسب لمقام تكريم الله لإبراهيم. الذى امتثل لأمر ربه. وهم بذبح ولده البكر الوحيد إسماعيل..

ثم ما هو المعقول. مع هذه البديهة الحقيقية. أن يسير إبراهيم مع ولده إسحاق مسيرة شهر فى غداة واحدة. طويت له فيها الأودية والجبال. ليقوم بذبحه عند المنحر فى منى بمكة. بينما (إسماعيل ابنه، وأول من بشر به. ووحيده قبل أن يبشر مرة ثانية بإسحاق) موجود فى نفس المكان. فى مكة وعلى استعداد للامتثال لأمر الله، فقد كان صادق الوعد. وكان من الصابرين كما جاء فى القرآن الكريم.. يضاف إلى هذ ما قررناه أكثر من مرة. من أن مناسك الحج مرتبطة بالمكان الذى وقعت فيه الحادثة. وقد فرض الله (سبحانه) أن تكون مناسك الحج كلها فى مكة، ولا يقبل ولا يصح أن يكون جزء منها فى بيت المقدس.. ثم إن استدراك بعض أصحاب هذا الرأى بأن الكبش نقل من بيت المقدس ليذبحه فى مكة مغالطة غير مقبولة. وتكلف لا مبرر له.

ثم ينتقل القرطبى إلى جماعة القائلين بأن الذبيح هو إسماعيل. وسوف نلاحظ أن من بين هذه الجماعة عدد من الذين أورد

أسماءهم ضمن جماعة القائلين بأن الذبيح إسحاق وهم :

عبدالله بن عمر . . وعبدالله بن عباس . . والشعبى . . ومجاهد . وعلقمة) وذكر معهم ممن قال بأن الذبيح إسماعيل (أبو هريرة . . وأبو الطفيل عامر . بن وائلة . . وسعيد بن المسيب . . ويوسف بن مهران . . والربيع بن أنس . . ومحمد بن كعب القرظى والكلبى) .

ويقول القرطبى : وسئل أبو سعيد الضرير . عن الذبيح فأنشد :

إن الذبيح هديت إسماعيل   نطق الكتاب بذاك والتنزيل

شرف به خص الإله نبينـا   وأتى به التفسير والتأويـل

إن كنت أمته فلا تنكر لـه   شرفـا قد خصه التفضيل

وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعى . أين عزب عنك عقلك ؟ . ومتى كان إسحاق بمكة . . وإنما كان إسماعيل بمكة . . وهو الذى بنى البيت مع أبيه . . والمنحر بمكة . .

وروى عن النبى (ﷺ) : [أن الذبيح إسماعيل] .

احتج من قال : أنه إسماعيل .

(١) بأن الله (تعالى) وصفه بالصبر . دون إسحاق فى قوله (تعالى) : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ وهو صبره على الذبح . .

(٢) ووصفه بصدق الوعد فى قوله : ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ لأنه وعد أباه من نفسه : الصبر على الذبح فوفى له . .

(٣) ولأن الله (تعالى) قال :

﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ فكيف يأمر بذبحه . وقد وعده أن يكون نبيا .

(٤) وأيضاً فإن الله (تعالى) قال : ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .. فكيف يؤمر بذبح إسحاق . قبل إنجاز الوعد في يعقوب ؟ وأيضاً ورد في الإخبار : تعليق قرني الكبش في الكعبة . فدل ذلك على أن الذبيح إسماعيل ولو كان إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس) ..

ومع أن القرطبي أعاد ذكر كثير ممن قال : بأن الذبيح إسحاق . ضمن جماعة القائلين بأن الذبيح إسماعيل . وهو أمر لا يغلب أحد القولين . بل يضعف قولهم الأول ويرجح قولهم الثاني بأن الذبيح إسماعيل .. ومع وضوح ومتانة ورجاحة قطعية هذه الاستدلالات فإن القرطبي يقول : إنه ليس بقاطع ، أما قولهم كيف يأمرهم بذبحه وقد وعده بأن يكون نبياً ؛ فإنه يحتمل أن يكون . وبشرناه بنبوته . بعد أن كان من أمره ما كان ولعله أمر بذبح إسحاق بعد أن ولد لإسحاق يعقوب .. ويقال لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحاق) ..

والحكم بعدم قطعية الاستدلال لاحتمال أو لعل أو يقال أن يكون المعنى كذا (غير ما تنطق به ظاهر الكلمات القرآنية الكريمة) . تكلف في التفسير لا مبرر له مع وضوح الخطأ التاريخي في هذه الردود .

ويضيف القرطبي: (وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس) فالجواب عنه: (ما قاله سعيد بن جبير على ماتقدم).

وقد عرفنا أن ما قاله سعيد بن جبير احتج به من يقول: أن الذبيح إسماعيل.. واحتج به من يقول: إنه إسحاق مرتين: مرة بنفيه. ومرة بثبوته.. مما يرجح أنه إسماعيل..

يقول القرطبي: وقال الزجاج: الله أعلم أيهما الذبيح: وهذا مذهب ثالث... وقوله (تعالى): ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾..

يقول فيه القرطبي: قال مقاتل رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متتابعات

ويقال: إن إبراهيم رأى فى ليلة التروية. كأن قائلاً يقول: (إن الله يأمرك بذبح ابنك فلما أصبح روى فى نفسه. أهذا الحلم من الله. أم من الشيطان. فسمي يوم التروية).

فلما كانت ليلته الثانية (رأى ذلك أيضاً وقيل له: الوعد! فلما أصبح. عرف أن ذلك من الله فسمى يوم عرفه).. ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر)..

وروى أنه لما هم بذبحه: قال جبريل: الله أكبر. الله أكبر.. فقال الذبيح: لا إله إلا الله. والله أكبر.. فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد. فبقى سنة)..

وكل هذه التعبدات . من مناسك الحج . . وهى كلها مرتبطة بإسماعيل (أبو المسلمين) . . والحج فى مكة فريضة . من فرائض دين المسلمين . . فكيف يقال : إنها وقعت لإسحاق ؟ وقد اضطرب فى هذا حديث القرطبى عند تفسير قوله (تعالى) : ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ وهو ينقل عن مجاهد وبعضهم . فتارة أضاف هذه التعبدات إلى إسحاق . .

وتارة أخرى . أضافها إلى إسماعيل . .

يقول فى تفاصيل محاولة الذبح : (قال إسحاق لإبراهيم . لا تنظر إلى فترحمنى) ثم يقول . فى نفس التفاصيل : (ولو كان قد جرى ذلك . لبينه الله (تعالى) : تعظيمـا لرتبة إسماعيل وإبراهيم (صلوات الله عليهما) . . وسوف يأتى تفصيل هذا فى قول مجاهد عند تفسير قوله (تعالى) : ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ . .

وقوله (تعالى) : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ يقول فيه القرطبى . أى انقاد لأمر الله . .

وقرأ ابن مسعود . وابن عباس . وعلى : ﴿ فلما أسلما ﴾ أى : فوضا أمرهما إلى الله . .

وقال ابن عباس . . مرة أخرى . استسلما . .

وقال قتادة : أسلم أحدهما نفسه لله (عز وجل) وأسلم الآخر ابنه . وفى الخبر : إن الذبيح قال لإبراهيم (عليه السلام) حين أراد ذبحه : يا أبت اشدد رباطى . حتى لا أضطرب . . واكفف ثيابك

لئلا ينتضح عليها شئ من دمى . فتراه أمى فتحزن . . وأسرع مر السكين على حلقى ليكون الموت أهون علىّ . . وأقذفنى للوجه . لئلا تنظر إلى وجهى فترحمنى ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع . . وإذا أتيت إلى أمى فأقرئها منى السلام . فلما جر إبراهيم (عليه السلام) السكين ضرب الله عليه صفحة من نحاس . فلم تعمل السكين شيئاً . ثم ضرب بها على جبينه وحز فى قفاه . فلم تعمل السكين شيئاً . . فذلك قوله (تعالى) :

﴿ وتله للجبين ﴾ . . كذلك قال ابن عباس : معناه كبه على وجهه فنودى : ﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ . فالتفت . فإذا بكبش . . ذكره المهدوى . .

ويلاحظ : أن هذ الخبر ، لم يحدد اسم الذبيح . . ولم يحدد اسم الأم . . بينما الرواية الأخرى لهذا الخبر والتى ذكرها ابن حجر . فى فتح البارى ، وقال عنها : (هذا ماذكره السدى ولعله أخذه من بعض أهل الكتاب) حددت اسم الذبيح بأنه إسحاق . وحددت اسم الأم بأنها سارة . وعدم التحديد لاسم الذبيح واسم أمه فى هذا الخبر ، يثير الشك فى أن الذبيح إسحاق . ويميل به إلى ناحية إسماعيل . والقرطبى يشير إلى أن هذا الخبر غير صحيح ، ولكن عدم صحته عنده . كما يتضح من كلامه ليس من ناحية اسم الذبيح واسم أمه . ولكن من حيث توضيح وتفسير صورة قوله (تعالى) : ﴿ وتله للجبين ﴾ : يقول :

والمعنى : لما اعتقد الوجوب . وتهيأ للعمل . هذ ا بهيئة الذبح .

وهذا بصورة المذبوح أعطيا محلا للذبح فداء.. ولم يكن هناك مر سكين.. والله أعلم..

وقال كعب وغيره: لما أُرى إبراهيم ذبح ولده. في منامه. قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم. لا أفتن منهم أحداً أبداً. فتمثل الشيطان لهم. في صورة الرجل.. ثم أتى أم الغلام. وقال أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك؟.. قالت: لا.. قال: إنه يذهب به ليذبحه.. قالت كلا. هو أرأف به. من ذلك.. فقال: إنه يزعم: إن ربه أمره بذلك.. قالت: فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه.. ثم أتي الغلام. فقال: أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك ليذبحك.. قال: لما؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك.. قال فليفعل ما أمره الله به. سمعاً وطاعة لأمر الله.. ثم جاء إبراهيم قال أين تريد؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك. في منامك فأمرك بذبح ابنك.. فعرفه إبراهيم. فقال إليك عني يا عدو الله. فوالله لأمضين لأمر ربي.. فلم يصب الملعون منهم شيئاً..

وهذه الرواية التي يذكرها القرطبي عن كعب. لم تحدد اسم الذبيح وذكرت كلمة (ولده) وكلمة الغلام.. ولم تحدد. كذلك. اسم أم الذبيح. وذكرت كلمة (أم الغلام). بينما الرواية الأخرى. التي ذكرها ابن حجر العسقلاني. في كتابه (فتح الباري) شرح صحيح البخاري والتي ساقها كعب عن قتادة. وأشار فيها إلى أن قتادة ربما أخذ أولها عن بعض أهل الكتاب. وآخرها عما جاء عن ابن عباس. هذه الرواية لابن حجر ذكرت اسم

إسحاق. واسم أمه سارة فى أولهما.. ثم ذكرت اسم اسماعيل. وأنه كان عليه قميص أبيض فى آخرها مما ينبئ عن التلفيق فيها كما. أشرنا إليه.

ويضيف القرطبى: (وقال ابن عباس: لما أُمر إبراهيم بذبح ابنه. عرض له الشيطان عند جمرة العقبة. فرماه بسبع حصيات. حتى ذهب.. ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم عرض له عند الجمرة الأخرى. فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم مضى إبراهيم لأمر الله (تعالى) وقد مرت بنا هذه الرواية. عن ابن عباس. عن أحمد عن طريق أبى الطفيل وجاء فيها: أن الذبيح إسماعيل وكان عليه قميص أبيض..

يقول القرطبى: واختلف فى الموضع الذى أراد ذبحه فيه..

فقيل: بمكة. فى المقام..

وقيل: فى المنحر. بمنى عند الجمار. التى رمى بها إبليس لعنه الله.. قاله ابن عباس.. وابن عمر. ومحمد بن كعب. وسعيد بن المسيب.

وحكى عن سعيد بن جبير: أنه ذبحه على الصخرة التى بأصل ثبير بمنى.. وقال ابن جريج: ذبحه بالشام. وهو من بيت المقدس على ميلين. والأول أكثر..

فإنه ورد فى الأخبار: تعليق قرنى الكبش فى الكعبة.. فدل ذلك على أنه ذبح بمكة..

وقال ابن عباس: فو الذى نفسى بيده. لقد كان أول الإسلام..

وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه . من ميزاب الكعبة .. وقد يبس ..

يقول القرطبي : (أجاب من قال : بأن الذبح وقع في الشام : لعل الرأس حمل من الشام إلى مكة) . والله أعلم ..

وهذا عجيب غريب غير معقول ولا مقبول .. لأن كل مناسك الحج . كما قررنا أكثر من مرة قد ارتبطت بالمكان الذى وقعت فيه الحادثة التى أريد تخليدها والتذكير بها .. وعليه . فإنه بناء على هذا . يكون من المحتم . أن يكون تخليد ذكرى الذبح بالهدى والأضحيات والنحر . فى الشام . وليس فى مكة وليس الأمر هكذا . منذ فرض الله الحج إلى بيت الله الحرام ..

وعبارة القرطبى الأولى : (واختلف في الموضع الذى أراد ذبحه فيه) تشعر بأنه يتكلم عن الابن الذبيح .. ولكن الكلمات والأقوال الباقية . مما ذكره القرطبى . لا يمكن أن يكون القصد منها الابن الذبيح .. وإنما هى قاطعة . بأن المراد بها الكبش الذى فدى به الابن الذبيح . دون أن يشير القرطبى إلى هذا .. وكان ينبغى : أن يذكرها . ويشير إليه . حتى لا يقع الشك فى أن الذبيح للابن . وقع فعلا . على غير الحقيقة والواقع وبخاصة بعد أن أثار القرطبى هذا الشك لدى طائفة من الناس غير أهل السنة . بقوله : (قال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع . وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح . ولو وقع لم يتصور رفعه . فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل) ..

وقوله (تعالى) : ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ يقول فيه القرطبى (أى :

حققت ما نبهاك عليه. وفعلت ما أمكنك. ثم امتنعت لما منعناك.. هذا أصح ما قيل فى هذا الباب.. وقالت طائفة ليس هذ ما ينسخ بوجه. لأن معنى ذبحت الشئ: قطعته.. واستدل على هذا بقول مجاهد: (قال إسحاق لإبراهيم: لا تنظر إلى فترحمني ولكن اجعل وجهي إلى الأرض.. فأخذ إبراهيم السكين، فأمرها على حلقه. فانقلبت.. فقال له: ما لك؟ قال: انقلبت السكين: قال أطعنى بها طعناً.. وقال بعضهم كلما قطع جزء التأم.. وقالت طائفة وجد حلقة نحاساً أو مغشى بنحاس. وكان كلما أراد قطعاً وجد منعاً.. وهذا كله جائز. فى القدرة الإلهية. لكنه يفتقر إلى نقل صحيح. ولو كان جرى ذلك لبينه الله (تعالى) تعظيماً لرتبة إسماعيل وإبراهيم وكان أولى بالبيان من الفداء.. وقال بعضهم إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقى. وإنما رأى أنه أضجعه للذبح. فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقى. فلما أتى بما أمره من الاضطجاع. قيل له: ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾. وهذا كله خارج عن المفهوم ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منها التوهم.. وأيضاً لو صحت هذه الأشياء لما احتيج إلى الفداء.

ثم بعد أن ذكر القرطبى ما يفهم منه أنه حديث عن الكبش الذى فدى به ذكر تفسير قوله (تعالى) ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ مما يزيد هذا الشك قوة.. يقول: قال ابن عباس: هو الكبش الذى تقرب به هابيل. وكان فى الجنة يرعى. حتى فدى الله به (إسماعيل).. اعتراف صريح من ابن عباس. بأن الذبيح إسماعيل..

ويقول القرطبي: وعنده (يعني ابن عباس) أيضاً أنه كبش. أرسله الله من الجنة كان قد رعى في الجنة أربعين خريفاً..

وقال الحسن: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى.. هبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم. فداء عن ابنه.. وهذا قول علي (رضي الله عنه).. فلما رآه إبراهيم.. أخذه فذبحه. وأعتق ابنه. وقال: يابني اليوم وهبت لي..

وقال أبو إسحاق الزجاج: قد قيل إنه فدى بوعل (التيس الجبلي). وأهل التفسير على أنه فدى بكبش..

أما قوله (تعالى): ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾[1] فيقول فيه القرطبي:

(قال ابن عباس: (بشر بنبوته) وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين.. فعلى هذا الذبيح هو إسحاق: بشر بنبوته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه.. واستسلامه له)..

مع أن القرطبي ذكر عن ابن عباس. في السطور السابقة: أنه قال عن الكبش الذي فدى به: (كان في الجنة يرعى حتى فدى الله به إسماعيل).

هذ إلى جانب أن عبارة ابن عباس: (بشر بنبوته). وعبارة القرطبي عنه: (وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين). لا تؤديان - كما ذكر القرطبي - إلى أن الذبيح هو إسحاق وليس في أي منهما دلالة منهما دلالة مؤكدة أو مرجحة لهذا..

(١) الآية ١١٢ من سورة الصافات.

وقوله تعالى: ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ يقول فيه القرطبي:

أى: ثنينا عليهما النعمة.. وقيل كثرة ولدهما.. أى: (باركنا على إبراهيم وعلى أولاده وعلى إسحاق. حين أخرج أنبياء بنى إسرائيل من صلبه)..

وهذا التفسير للقرطبي. لا يتسق مع نظم الآية الكريمة. وما تدل عليه..

لأن معناها ـ حسبما يقول القرطبي ـ (وباركنا على إبراهيم وأولاده. وعلى إسحاق)..

مع أن إسحاق من أولاد إبراهيم. فلا معنى لذكره مرة ثانية.. وكأنه ليس من أولاد إبراهيم وإنما المناسب حقا. أن يقال فى تفسيره (وباركنا على إسماعيل وعلى أولاده وعلى إسحاق) وهو مايتفق مع قول القرطبي (أى باركنا على إبراهيم وعلى أولاده).

وهذا التوجيه فى تفسير الآية الكريمة: إنما هو.. فقط مجاراة لما ذكر القرطبي لتوضيح تجاوزه لأن كلا من التفسير والتوجيه لا يتفق مع ما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ حيث أن مباركة الله حصرت فى اثنين قط دون أولاد أى منهما. كما هو نص الآية. وما جاء فى تكملتها: ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾.

وقد ذكرت الآية الكريمة: أن مباركة الله. كانت على اثنين فقط: الأول: من يعود الضمير فى (عليه) إليه. والثانى إسحاق.

و وجود إسحاق وهو الابن الثانى لإبراهيم. يرجح أن يكون الأول هو إسماعيل. الابن الأول لإبراهيم..

وإبراهيم الخليل (عليه السلام) أخذ حقه من تكريم الله له، وثنائه (سبحانه وتعالى) عليه فى غير هذه الآية، فلا يحتاج لأن يشارك فى مباركة الله فى هذه الآية مع ولده إسحاق، ويبعد عن المباركة ابنه إسماعيل..

ولهذا كان تفسير القرطبى يقول: (أى باركنا على إبراهيم وعلى أولاده وعلى إسحاق) غير دقيق ويلزم أن يكون تفسيره: (وباركنا على إسماعيل وعلى إسحاق) وهذا هو ما يتفق مع مايضيفه القرطبى بقوله:

(وقد قيل: أن الكناية فى «عليه» تعود إلى إسماعيل وأنه هو الذبيح)..

قال المفضل: (الصحيح الذى يدل عليه القرآن: أن الذبيح إسماعيل.. وذلك أنه قص قصة الذبيح.. فلما قال فى آخر القصة: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾. ثم قال: ﴿ سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين ﴾.. قال: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ وباركنا عليه. أى: على إسماعيل.. وعلى إسحاق). كنى عنه لأنه قد تقدم ذكره. ثم قال: ﴿ ومن ذريتهما محسن ﴾ فدل على أنه ذرية إسماعيل وإسحاق.. وليس تختلف الرواة فى أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة)..

ويقول القرطبى: (قلت: ذكرنا أولا ما يدل على أن إسحاق.

أكبر من إسماعيل وأن المبشر به هو إسحاق بنص التنزيل، فإذا كانت البشارة بإسحاق نصاً. فالذبيح لا شك هو إسحاق.. وبشر به إبراهيم مرتين: الأولى بولادته.. والثانية بنبوته. كما قال ابن عباس)..

والهاء فى (عليه) تعود إلى إبراهيم.. وليس لإسماعيل فى الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه.. وأما ما روى عن طريق معاوية. قال: سمعت رجلا يقول للنبى (ﷺ): يا ابن الذبيحين، فضحك النبى (ﷺ) ثم قال معاوية: إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله: إن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده.. فسهل الله عليه أمرها فوقع السهم على عبدالله.. فمنعه أخواله: بنو مخزوم. وقالوا: افد ابنك. ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح الأول، وإسماعيل هو الذبيح الثانى.. ويقول القرطبى: فلا حجة فيه، لأن سنده لا يثبت..

وهذا الذى يقوله القرطبى يوجب التأمل والنظر...

لأنه أولاً: يفترض أن المبشر به فى الآية الكريمة إسحاق.. ثم يبنى على هذا الافتراض أن إسحاق هو الذبيح، وهذ خطأ فى الاستدلال. أن تصدر حكما على افتراض.. إلى جانب أنه فى أول تفسيره لآيات سورة مريم: ﴿وإذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا﴾ يثبت أن رأى الجمهور هو أن الذبيح إسماعيل، ويؤكد هذا بقوله: وقيل: إنه إسحاق. والأول أظهر.

ولأنه ثانياً: أشار إلى أنه ذكر - أولاً - ما يدل على أن إسحاق أكبر من إسماعيل.. مع أنه نقل قبل بضعة أسطر عن (المفضل) قوله:

(وليس تختلف الدوارة فى أن إسماعيل. كان أكبر من إسحاق بثلاث عشر سنة) هذا إلى جانب قوله (تعالى) فى سورة إبراهيم. الآية ٣٩.

﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء﴾.

فإذا لم يكن إسماعيل هو الذى ولد قبل إسحاق. فلأى حكمة رتب القرآن الكريم هذا الترتيب بين الاسمين. وأتى باسم إسماعيل أولاً قبل اسم (إسحاق).. والقرطبى نفسه يقول فى تفسير هذه الآية:

قال ابن عباس: ولد له (يعنى إبراهيم) إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين وإسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة.

ولأنه ثالثاً: نسب إلى ابن عباس: أن الذبيح إسحاق مع أنه نقل قبل بضعة أسطر عن ابن عباس: أن الكبش فدى الله به إسماعيل..

ولأنه رابعاً: بعد أن قرر أن الكناية فى (عليه) لإبراهيم، جاءت عباراته (باركنا على إبراهيم وأولاده، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بنى إسرائيل من صلبه) خالية من المساواة فى توضيح (متعلق) المباركة عند إبراهيم وأولاده وعند إسحاق، فبينما أوضحت عباراته (متعلق) المباركة لدى إسحاق، أهملت ذكر

متعلق المباركة لدى إبراهيم وأولاده ، مع أن إسحاق داخل ضمن (أولاده) .

ولأنه خامساً : يعنى أن (سارة) أنجبت إسحاق قبل أن يهاجر إبراهيم معها إلى مصر .. وإن (إسحاق) ابنها كان موجوداً حين وصلت مع زوجها إبراهيم إلى مصر ، وحاول ملك مصر أن يغتصبها وهى أم تصطحب معها ابنها إسحاق ، ولم يقل أحد من المؤرخين بهذا الإدعاء غير المعقول وغير الصواب . .

ولأنه سادساً : فيه مخالفة واضحة لما اتفق عليه المؤرخون من أن سارة مكثت بعد عودتها هى وإبراهيم من مصر عشرين عاماً وهى عاقر لم تنجب ، ثم وهبت لإبراهيم (هاجر) ليدخل بها أملاً فى أن تنجب لهما ولداً يملأ عليهما حياتهما ويعوضهما عن حرمانهما من الإنجاب حتى هذه السن المتأخرة .

ولأنه سابعاً : يعنى أن البشارة كانت مرتين فقط ، وكانت بإسحاق فقط مع أن نص القرآن الكريم كما أوضحنا وباعتراف القرطبى جاءت البشارة أيضاً بغلام حليم .. وهذا يؤكد أن الغلام الحليم مقصود به إسماعيل .. فتكون البشارة الأولى بإسماعيل لأنه من (هاجر) بعد أن يئست سارة من الإنجاب .. والبشارة الثانية بإسحاق من (سارة) بعد أن استجاب الله للهفتها وأكرمها بالإنجاب بعد أن وصلت إلى سن اليأس وإلى درجة القنوط ..

ولأنه ثامناً : لو رجعنا إلى الدليل الذى ذكره القرطبى على ماقرره من أن الذبيح إسحاق وأنه أكبر من إسماعيل لوجدناه يقول :

وروى عن النبى (ﷺ) : [أن الذبيح إسماعيل] . والأول (يعنى أن الذبيح إسحاق) أكثر عن النبى (ﷺ) وعن أصحابه وعن التابعين واحتجوا بأن الله (عز وجل) قد أخبر عن إبراهيم - حين فارق قومه مهاجراً إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال :

﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ أنه دعا فقال : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ فقال (تعالى) : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ الآية ٤٩ من سورة مريم . . .

ولأن الله (تعالى) قال : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ . فذكر أن الفداء فى الغلام الحليم الذى بشر به إبراهيم وإنما بشر إسحاق لأنه قال : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ . . . وقال هنا - (أى فى سورة الصافات) : ﴿ بغلام حليم ﴾ . وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد (إسماعيل) وليس فى القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق . .

هذه الحجة أو هذا الاحتجاج الذى ذكره القرطبى لجماعة القائلين بأن الذبيح إسحاق غير مفهوم وغيرمعقول . . . جاء فى أسلوب مضطرب ، رتبت فيه الأمور على غير ما ينبغى أن تترتب عليه . . وينضح بالخطأ والمغالطة . .

أولاً : قصرت البشارة على إسحاق وحده : (وإنما بشر بإسحاق) مع أن القرآن الكريم بشر بالغلام الحليم وهو إسماعيل قبل البشارة بالغلام العليم إسحاق . . .

وكان إنجاب إسماعيل من هاجر حدثاً فى حياة إبراهيم وسارة

يستحق البشارة والاحتفال.. لأنه جاء نتيجة تفكير وتدبير واتفاق وائتمار بين سارة وإبراهيم على أن يدخل بأمتها هاجر أملا في أن تنجب لهما ولدا يخفف عنهما لوعة الحرمان من الإنجاب.

ثانيا: إدعاء أن البشارة بإسحق إنما كانت قبل أن يتزوج إبراهيم من هاجر وقبل أن يولد إسماعيل. إدعاء يخالف الواقع ولا سند له، ويخالف ما اتفق عليه عامة المؤرخين والمحدثين والمفسرين.. فلماذا إذن ائتمرت سارة مع إبراهيم على أن يدخل بجاريتها هاجر؟

ولماذا إذن ملكت الغيرة سارة بعد أن حملت هاجر من إبراهيم وولدت إسماعيل؟ ولماذا إذن طلبت سارة من إبراهيم أن يبعد هاجر وابنها إسماعيل إلى أبعد مكان. فأوحى الله إلى إبراهيم أن يرحل بهما إلى مكة... بجوار بقايا بيت الله الحرام؟

ثالثا: رتب قوله (تعالى) من سورة مريم الآية ٤٩: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ على دعاء إبراهيم في سورة الصافات ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ مع أن الآية الكريمة في سورة مريم. رتب فيها قوله (تعالى) ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ على قوله (تعالى): ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ ومع أن دعاء إبراهيم في سورة الصافات: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ رتب عليه مباشرة قوله (تعالى): ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾..

ففي سورة (مريم). البشارة (بإسحاق) الذي وصفه القرآن

الكريم بأنه (غلام عليم)، وفي سورة (الصافات) البشارة بغلام آخر هو (الغلام الحليم) فيلزم أن يكون هو (إسماعيل)... وحقيقة بشَّر القرآن الكريم إبراهيم الخليل بإسحاق مرتين: مرة بولادته من (سارة) بعد أن ظلت عاقراً سنوات طويلة وبلغ بها السن إلى درجة اليأس من الإنجاب، وبعد أن ولدت (هاجر) إسماعيل.. ومرة ثانية بنبوة إسحاق إنه من الصالحين.. ووصفه القرآن الكريم بغلام عليم... ولكن هذا لا يعنى أن يكون هو الذبيح كما يقرر القرطبى.. لأن القرآن الكريم بشر إبراهيم بغلام حليم فى غير هاتين البشارين وقبلهما... ورؤيا الذبح كانت للغلام الحليم إسماعيل وليست الغلام العليم إسحاق...

فليس الأمر إذن كما ذكر القرطبى بأنه ليس فى القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق وقد مر بنا قول ابن عباس مع ملاحظاتنا عليه. مما يجعل القول الذى ذكره القرطبى بعدم الشك فى أن الذبيح إسحاق قولاً لا سند له.

وإذا كان القرطبى قد رتب قوله (تعالى) فى سورة مريم الآية ٤٩ ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً﴾ على دعاء إبراهيم فى سورة الصافات: ﴿رب هب لى من الصالحين﴾ فإن القرآن الكريم رتبها الترتيب المناسب المتسق، عقب قوله (تعالى) ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا﴾ الآية ٤٨.

إلى جانب أن الآية الكريمة رتب فيه شطرها الثانى: ﴿وهبنا له

إسحاق ويعقوب ﴾ على شطرها الأول : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ فليست فى حاجة إلى أن ترتب عليها آية أخرى فى سورة أخرى . .

كما رتب القرآن الكريم قوله (تعالى) فى سورة الصافات : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ الترتيب المناسب المتسق فى سورتها عقب قوله (تعالى) : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ فكان نظم آيات الصافات :

﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم ﴾ . . .

وكان نظم آيات مريم :

﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ .

وكان ينبغى أن يلتزم القرطبى بترتيب الله (عز وجل) للآيات البينات لأنه ـ أولاً وقبل كل شئ ـ ترتيب الله (عز وجل) ونسق الآيات الكريمة كما جاءت فى القرآن الكريم . . .

ولأنه ـ ثانياً ـ الترتيب المناسب المعقول الصحيح لتتابع الأحداث التاريخية فى حياة إبراهيم . . وإسماعيل إسحاق . (عليهم السلام) .

ولأنه ـ ثالثاً ـ يلقى الضوء ويزيل اللبس فى موضوع ميلاد

إسماعيل وإسحاق وأيهما الأسبق في الميلاد ؟ وأيهما الذبيح ؟ فمن الواضح ـ في تقديرنا ـ والله أعلم :

أن أحدث قوله (تعالى) في سورة الصافات .

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين.رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم.فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ . .

كانت أسبق تاريخياً . من أحداث قوله (تعالى) في سورة مريم :

﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً.فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ .

ذلك أن فكرة اعتزال إبراهيم لأبيه وقومه إنما كان بعد أن يئس إبراهيم من استجابة أبيه وقومه إلى دعوة إبراهيم بعبادة الله وحده . وترك عبادة الأصنام فجاءت فكرة الاعتزال هذه في نهاية المطاف في فترة يناسب فيها أن تنجب سارة إسحاق من إبراهيم . بعد أن تقدما في السن . .

مع ملاحظة : أن قول إبراهيم في الآية الكريمة :

﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾

عقب نجاته من محاولة إحراقه وانصراف قومه عن الاستماع إليه . .

فهاجر إلى الأرض المباركة في الشام .

هذ القول يعنى بكل تأكيد هجرة من بلد إلى بلد. كما جاء فى قوله (تعالى) من سورة العنكبوت. الآية ٢٦ ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ﴾..

أما الآية الأخرى فى سورة مريم: ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾.

ـ بعد أن استقر به الأمر فى الأرض المباركة التى هاجر إليها ـ

يتحدث فيها إبراهيم عن اعتزاله لقومه. والاعتزال ليس هجرة من بلد إلى بلد، وإنما هو انفصال وابتعاد عن الاتصال والاختلاط مع أبيه وقومه فى نفس البلد فالهجرة وما تبعها من إنجاب الغلام الحليم سابقة على الاعتزال وما تبعه من إنجاب الغلام العليم... لأن إبراهيم قصد الهجرة. بقوله: ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾

وعند الهجرة دعا ربه أن يهبه من الصالحين: فكان جواب الله عليه: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾...

ولأنه هبة الله إسحاق لإبراهيم جاء عقب اعتزال إبراهيم لقومه..

فيلزم أن يكون الغلام الحليم إسماعيل...

وأن يكون إسماعيل الغلام الحليم رزق به إبراهيم قبل إسحاق... فهو أكبر منه بثلاث أو أربع عشرة سنة لدى المؤرخين والمفسرين والمحدثين.

وعلى هذا كله. فإن الغلام الحليم. (الذى هو إسماعيل) هو الذى رأى والده إبراهيم أن يذبحه بنص القرآن لكريم..

وفى تقديرنا : أن بشارة الملائكة بإسحاق حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وإهلاك قوم لوط يتوافق مع زمن اعتزال إبراهيم للناس . فى أخريات أيام استمرار إبراهيم فى دعوة قومه ، وأخريات أيام دعوة لوط ، أى بعد ميلاد إسماعيل .

وعلى هذا فإن المعقول والمقبول أن تكون بشارة لإبراهيم بولادة إسماعيل من هاجر ، واستقرار هاجر مع إسماعيل فى مكة ، وتكون بشارة إبراهيم بإسحاق من سارة - بعد أن بشر بإسماعيل ورزق به ونقله مع أمه هاجر إلى مكة وإبراهيم وسارة وإسحق مستقرون فى بيت المقدس ، هذا فى وقت ، وذاك فى وقت ، وهذا فى مكان ، وذاك فى مكان .

وهكذا يكون قوله (تعالى) : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ سابقاً فى تقديرنا على قوله (تعالى) : ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ . .

وأن يكون الغلام الحليم غير إسحاق ويعقوب . .

ولم يبق إلا أن يكون إسماعيل . . .

وحينئذ يكون قوله (تعالى) عن الغلام الحليم : ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ دليلا قاطعاً على أن الذبيح هو إسماعيل . . .

ولكن القرطبى على العكس من هذه الحقيقة الواضحة يقرر أن الغلام الحليم هو إسحاق وأن إسحاق هو الذبيح . . ويؤكد هذا بقوله : ولأن الله قال : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ فذكر أن الفداء فى

الغلام الحليم، الذى بشر به إبراهيم، وإنما بشر بإسحاق لأنه قال: ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾. وقال هنا ﴿ بغلام حليم ﴾...

فمن هو إذن الغلام العليم؟

وإن ماذكره القرطبى يعنى فى نظره وتقديره وتفسيره أن تكون كل البشارات من الله لإبراهيم خاصة بابن واحد فقط هو إسحاق. وأن إبراهيم لم يبشر مطلقاً بإسماعيل..

أى أن إبراهيم وسارة بُشرا:

(أولاً) بغلام حليم: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ فى سورة الصافات. الآية ١٠١.

(ثانياً) بغلام عليم: ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ فى سورة الذاريات الآية ٢٨. ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ فى سورة الحجر الآية ٥٣.

(ثالثاً) بولادة إسحاق: ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فى سورة هود الآية ٧١.

(رابعاً) بنبوة إسحاق. فى قوله (تعالى) من سورة الصافات - بعد ذكر البشارة الأولى بالابن الأول وذكر قصة ورؤيا ذبحه - ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين. رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن ياإبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين.

وفديناه بذبح عظيم.وتركنا عليه فى الآخرين.سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين.إنه من عبادنا المؤمنين.وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ .

كل هذه البشارات ـ عند القرطبى ـ خاصة بإسحاق وحسب . ولا شئ فيها لإسماعيل . مع أنه أول مولود لإبراهيم وكانت البشارة به عقب قول إبراهيم : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ .

. . فإذا استعرضنا النصوص القرآنية نجد ما يلى :

أن ضيف إبراهيم (الملائكة) أتوا إبراهيم مرة واحدة . بشروه فيها بغلام عليم ، جاء هذا فى قوله (تعالى) من سورة الذاريات الآيات من ٢٤ ـ ٣٠ .

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة ـ أى : صرخة عظيمة . وهى قولها يا ويلتا ـ فصكت وجهها ـ أى : ضربت بيدها على جبينها . كما تتعجب النساء من الأمر ـ وقالت عجوز عقيم ـ أى : كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت فى حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ ـ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أى : عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم فى أقواله وأفعاله .

كما جاء أيضاً فى قوله (تعالى) من سورة الحجر الآيات ٥١ ـ ٦٠ :

﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾.

وقد فسرت الآيات الأخرى في سورة هود الغلام العليم بأنه إسحاق. وذلك في قوله (تعالى)[1]: ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾...

وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد فسرت الغلام العليم بأنه إسحاق... وكانت الآيات بعد هذا قد صرحت باسم إسحاق... ولم يبق من آيات التبشير سوى الآية الأولى في سورة الصافات ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ فإنه يتعين أن يكون المقصود به هو إسماعيل. لأنه لم تأت البشارة به إلا في هذه الآية الواحدة... وجاءت في وقتها المناسب بعد هجرة إبراهيم إلى الشام ودعائه

---

(1) الآيات من ٦٩ - ٧٣.

ربه: أن يهب له ولداً من الصالحين. وبعد أن رحل إلى مصر وعاد منها ومعه هاجر...

والهجرة - كما أثبتنا - إنما كانت قبل الاعتزال. وقبل أن يأتي رسل الله - الملائكة - إلى إبراهيم ليبشروه بإسحق الغلام العليم، حينما جاءوا لإهلاك قوم لوط - مما يعنى أن إسماعيل ولد قبل إسحاق وإذا كان القران الكريم، يقرر أن الغلام الحليم لما بلغ مع والده - إبراهيم - السعى وأصبح قادراً على تحمل المسئولية، قال له والده: ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾.

إذا كان الأمر كذلك - وهو بنص القرآن كذلك فإنه يتعين أن يكون الذبيح هو إسماعيل..

ويقول القرطبى في تفسير قوله (تعالى) من سورة الذاريات: الآية ٢٨: ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾: أى يولد له من سارة زوجته... والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق..

.. وقال مجاهد وحده: هو إسماعيل. وليس بشئ، فإن الله (تعالى) يقول: ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ (الآية ١١٢ من سورة الصافات) وهذ ما أثبتناه من أن الآية الكريمة فى سورة هود فسرت الغلام العليم بأنه إسحاق)...

إلى جانب هذا. نذكر آيات القرآن الكريم. فى هبة الله لإبراهيم. بالولد.. أو بالولد وابن الولد...

(أولاً) قوله (تعالى) - فى سورة (الأنعام) - الآيات ٨٣:٨٦:

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء. إن ربك حكيم عليم.ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين.وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين.وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾.

(ثانيا) : قوله (تعالى) فى سورة (مريم). الآية ٤٩ : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾.

(ثالثا) قوله (تعالى) في سورة الأنبياء. الآيتان ٧١ - ٧٢ : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين.ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾.

(رابعا) قوله (تعالى) فى سورة العنكبوت : الآيتان ٢٦ - ٢٧ : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾

(خامساً) ثم الآية رقم ٣٩ من سورة إبراهيم : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .. والآيات الأربع الأولى تعلقت الهبة فيها بإسحاق ويعقوب، أما الآية الخامسة فقد تعلقت الهبة فيها بإسماعيل وإسحاق... ولما كان الترتيب الزمنى التاريخى بين إسحاق ويعقوب قد تحقق فى الآيات الأربع الأولى، أفلا يكون متحققاً فى الآية الخامسة بين إسماعيل وإسحاق؟ وإذن تكون هذه الآية رد قوى على من يدعى

أن إسحاق أسبق في الوجود من إسماعيل بهذا الترتيب الذى ورد في آيات ﴿الأنعام﴾ التى ذكرناها من قبل، وفى آيات سورة (ص) رقم ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار.إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار.واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكلٌ من الأخيار﴾.. ففى هذه الآيات الكريمة لم ترتب الأسماء التى وردت بها ترتيبا زمنيا تاريخيا... بدليل أنه في آيات الأنعام وآيات ص: ذكر اسم يعقوب قبل إسماعيل.. ويقينا فإن إسماعيل أسبق في الوجود من يعقوب... وإنما هى مجموعات من أسماء النبيين والمرسلين وصفت كل مجموعة، بوصف خاص بها جعلها تنضم في هذه المجموعة وتنفرد كل مجموعة عن الأخرى. بدليل أن اسم (لوط) جاء في نهاية هذه الأسماء - في سورة الأنعام - مع أن (لوطا) أسبق في الوجود من (إسحاق) الذى جاء في أول الأسماء... والله أعلم..

ولقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى أن اسم إسماعيل جاء في القرآن الكريم. قبل اسم إسحاق في آيات أخرى. أكثر من تلك الآيات التى ورد فيها اسم إسحاق قبل اسم إسماعيل.

نقرأ هذا في ثلاث آيات من سورة البقرة:

(أ) الآية الأولى رقم ١٣٣: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون﴾..

(ب) الآية الثانية رقم ١٣٦ : ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ . . .

(ج) الآية الثالثة رقم ١٤٠ : ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله﴾ .

(د) من سورة آل عمران . الآية ٨٤ : ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ . . .

(هـ) وفى سورة النساء . الآية ١٦٣ : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ . .

(و) إلى جانب الآية رقم ٣٩ فى سورة إبراهيم : ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ . . .

فإن صلحت الآيات التى ورد فيها اسم إسحاق قبل اسم إسماعيل دليلاً على أن إسحاق أسبق فى الوجود من إسماعيل وهى آيات قليلة العدد . . فإن هذه الآيات الكثيرة العدد التى ورد فيها اسم إسماعيل قبل اسم إسحاق تكون أولى فى الاستدلال وأصلح وأقوى فى الترجيح على أن إسماعيل أسبق فى الوجود من إسحاق والله أعلم . . .

أما الآية ٤٩ من سورة مريم فإن هبة الله بإسحاق ويعقوب كما

قلنا إنما كانت بعد أن اعتزل إبراهيم قومه وأباه كما هو نص الآية الكريمة.. أما هبة الله بإسماعيل - الغلام الحليم - فقد كانت كما أوضحنا ورجحنا وقرنا بعد الهجرة...

والآيتان ٧١، ٧٢ من سورة الأنبياء عطفت فيها الآية الثانية على الآية الأولى. وفي تقديرنا - والله أعلم - أن هذا العطف. لتعداد نعم الله على إبراهيم.. وهبة الله إسحاق ويعقوب - في الآية الثانية - وإن جاءت بعد أن نجا الله إبراهيم ولوطاً إلى الأرض المباركة، فالترتيب فيه - والله أعلم - بعد فترة طويلة بشر فيه إبراهيم بالغلام الحليم. وولدت هاجر هذا الغلام الحليم إسماعيل. كما أوضحنا فيما سبق... وكذلك الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة (العنكبوت). فلم يرتب فيها قوله (تعالى): ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ على قوله (تعالى): ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ في الآية الثانية، وإنما جاءت عطفاً على قوله (تعالى): ﴿ فآمن له لوط ﴾ لتعداد بعض نعم الله على إبراهيم.. كما مر في آيتي سورة الأنبياء...

فليست هبة الله إسحاق لإبراهيم بعد الهجرة، فيتناقض مع آية سورة مريم السابقة لأن الهبة فيها جاءت صريحة بعد الاعتزال... وإنما هو تذكير بنعم الله على سيدنا إبراهيم في أمرين:

(١) أن الله نجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك الله فيها للعاملين.

(٢) وأنه وهبه إسحاق من زوجه سارة العقيم بعد أن يئست من الإنجاب... فليس المراد - والله أعلم - ترتيباً زمنياً كما ذهب بعض المفسرين...

يؤيد هذا قوله (تعالى) فى سورة هود. الآيات ٦٩ - ٧٤: ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ.فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط.وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب.قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد.فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ﴾

ومجادلة إبراهيم لرسل الله الملائكة فى قوم لوط هى التى جاءت فى قوله (تعالى) من سورة الحجر الآيات من ٤٩ - ٦٠: ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾.

وجاءت أيضاً هذه المجادلة فى سورة الذاريات الآيات التى سبقت..

فهذه الآيات الكريمة تفيد أن البشارة بإسحاق . لم تكن عقب هجرة إبراهيم ولوط إلى الأرض المباركة فى الشام، وإنما كانت فى نفس اليوم الذى أرسل الله فيه الملائكة لإهلاك قوم لوط . . .

فى تقديرنا ـ والله أعلم ـ أن الفترة من يوم وصول إبراهيم إلى أرض الهجرة ويوم البشارة بإسحاق حدثت فيه الأمور التالية بالترتيب الزمنى :

(١) بدأ إبراهيم دعوة القوم فى حران التى استقر فيها إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الكواكب .

(٢) رحل إبراهيم ومعه سارة وابن عمه لوط إلى مصر بعد أن أجدبت الأرض فى الشام .

(٣) حدث لسارة فى مصر ما حدث من ملك مصر ونجاها الله منه وأهداها (هاجر) لتخدمها .

(٤) عاد إبراهيم وسارة ولوط ومعهم (هاجر) من مصر إلى أرض الهجرة .

(٥) استأنف إبرهيم دعوة القوم فى (حران) بأرض الهجرة إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الكواكب .

(٦) بينما رحل (لوط) إلى (سادوم وعامورة) وبدأ بهما دعوة القوم إلى عبادة الله ونبذ المنكرات . .

(٧) حتى هذا الوقت لم تنجب (سارة) لإبراهيم فاتفقت معه على أن يدخل بأمتها (هاجر) .

(٨) ولما دخل إبراهيم بهاجر حملت بالغلام الحليم ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وأسماه (إسماعيل) .

(٩) غارت سارة من هاجر وإسماعيل فطلبت من إبراهيم أن يبعدها عن ناظريها إلى أبعد مكان، فرحل بهما بوحى من الله إلى مكة، قرب مكان البيت الحرام .

(١٠) رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح ولده البكر الوحيد الغلام الحليم الذى سماه إسماعيل وفداه الله بذبح عظيم .

(١١) كلف الله (سبحانه وتعالى) إبراهيم وإسماعيل بناء البيت الحرام - الكعبة المشرفة - فقام ببنائها إبراهيم وعاونه إسماعيل . .

(١٢) لم يستجب القوم فى بيت المقدس أرض الهجرة إلى دعوة إبراهيم فاعتزلهم وما يعبدون من دون الله .

(١٣) حضرت الملائكة إلى بيت إبراهيم لإهلاك قوم لوط . . . وكانت المجادلة بين إبراهيم والملائكة فى قوم لوط وفى البشارة بالغلام العليم إسحاق .

وإذن فقد كانت البشارة بإسماعيل بعد الهجرة من بابل فى العراق إلى الأرض المقدسة فى الشام ولكنها كانت أيضا بعد رحيل إبراهيم ولوط وسارة إلى مصر وعودتهم منها ومعها هاجر وبعد أن دخل بهاجر كما اتفقت معه سارة . . .

وكانت البشارة بإسحاق أيضا بعد الهجرة من بابل إلى العراق إلى الأرض المقدسة فى الشام .

ولكنها كانت أيضاً بعد رحيل إبراهيم ولوط وسارة من مصر وعودتهم منها ومعهم هاجر... وبعد أن بشر إبراهيم بالغلام الحليم من هاجر الذى أسمياه إسماعيل، وكان الابن البكر الوحيد لإبراهيم، وبعد أن رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح هذ الابن البكر الوحيد الغلام الحليم إسماعيل وفداه الله بذبح عظيم، وبعد أن بنى إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام بأمر الله وطهراه للعاكفين والركع السجود...

وبعد أن يئس إبراهيم من استجابه القوم فى (حران) بالأرض المباركة لدعوته... كما يئس (لوط) من استجابة القوم فى (سادوم وعامورة)

وبعد أن اعتزل إبراهيم قومه وما يعبدون. واستحق قوم لوط عقاب الله وجاءت الملائكة لإهلاك قوم لوط فبشرت إبراهيم وسارة بالغلام العليم إسحاق.. ذلك قوله (تعالى) فى سورة العنكبوت الآية ٣١: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالو إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين﴾ وقول الله (تعالى) حكاية عن (سارة) حين بشرتها الملائكة بالغلام العليم (إسحاق) الآية ٢٩ من سورة الذاريات: ﴿فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾ والآية ٧٢ من سورة هود: ﴿قالت: يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذ لشئ عجيب﴾. اعتراف صريح من سارة بأنها كانت عقيما حتى نهاية المطاف وأنها لم تلد قبل هذ الوقت بل أنها تعجبت واستكرت أن تلد بعد أن ظلت طول عمرها عاقراً وبلغت هذه المرحلة من العمر فصارت عجوزاً وهى عقيم...

وهاتان الآيتان أبلغ وأقوى وأوضح الدلائل على أن إسماعيل أسبق من إسحاق... وأن إسماعيل كان الابن البكر الوحيد لإبراهيم حين رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح ابنه البكر الوحيد.

ويقول القرطبى: (وكان بين البشارة والولادة سنة.. وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهى بنت تسع وتسعين سنة... وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة... وقيل كان إبراهيم (ابن مائة وعشرين سنة).

وهذا الذى يقوله القرطبى هو ما أثبتناه أكثر من مرة من أن سارة أنجبت إسحاق بعد أن تقدم بها السن... ولا يمكن أن تكون قد أنجبته قبل زواج إبراهيم من (هاجر) وإنجابها إسماعيل لأن إبراهيم قد دخل بهاجر قبل أن تصل سارة إلى سن التاسعة والتسعين كما ذكر القرطبى.

وإذا كان إبراهيم قد أنجب إسحاق من سارة قبل أن يدخل بهاجر وتلد هاجر إسماعيل فلماذا يتزوج هاجر بعد أن وصل هو وسارة إلى هذه السن المتأخرة ورزقهما الله بالولد الذى طالما تمنياه؟

والعجيب الغريب أن ينقض القرطبى ماحاول أن يثبته بالأدلة المضطربة التى ذكرها... وذلك حين يقول فى تفسيره لقوله (تعالى) من سورة (هود):-

﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب.قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾[1] الآيات ٧١-٧٣ يقول:

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم/ المجلد الخامس/ الجزء التاسع ص٦٩.

(لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمنت سارة أن يكن لها ابن وأيست لكبر سنها ... فبشرت بولد يكون نبياً ويلد نبياً .. فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .. فكيف تكون البشارة من الله بولد الولد مع أمر الله بذبح الولد قبل أن يتزوج ويولد له الولد؟

ثم يقول: (وبهذه الآية «٧١ من سورة هود» استدل كثير من العلماء على أن الذبيح إسماعيل .. وأنه أسن من إسحاق، لأنها بشرت بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب) ولكن الأكثر عجباً وغرابة أن يقول القرطبي عند تفسيره لقوله (تعالى) من سورة الحجر الآية ٥٣: ﴿ قالوا لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ أي: حليم قاله مقاتل وقال الجمهور: عالم وهوإسحاق)[1] ..

وكأن البشارة بالغلام الحليم لم تكن .. وكأن الغلام الحليم هو الغلام العليم!!!

وكأن البشارات كلها لم تكن من الله إلا بالغلام العليم إسحاق!!

ومع أن عبارة: (غلام عليم) جاءت مرتين في القرآن الكريم ... المرة الأولى هذه (في سورة الحجر الآية ٥٣) .. والمرة الثانية في سورة الذاريات الآية ٢٨:

﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ ..

وكان تفسير القرطبي لها: ﴿ فبشرناه بغلام عليم ﴾ أي بولد يولد له من سارة زوجته، ومعنى (عليم) أي يكون - بعد بلوغه - من

(١) لجامع لأحكام القرآن الكريم / المجلد الخامس / الجزء العاشر ص٣٥.

أولى العلم بالله ودينه[1].

فكيف يسيغ القرطبى أن يكون معنى كلمة (عليم): حليم. كما نقل عن مقاتل دون اعتراض أو رفض أو مناقشة؟

وكيف يكون الغلام العليم - بهذا التفسير هو الغلام الحليم؟...

وأخيراً فإن القرطبى عند تفسيره لقوله (تعالى) من سورة إبراهيم - الآية ٣٩ ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء﴾..

ينقل عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: (ولد له أى: «إبراهيم» إسماعيل وهو ابن لتسع وتسعين... وإسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشر سنه)[2]..

أى أنه باعتراف القرطبى فإن إسماعيل أكبر من إسحاق... لأنه ولد قبل إسحاق قبل أن يتزوج هاجر. وتلد له (إسماعيل)..

وكذلك فإن اعتراف القرطبى وبعد استقراء كل ما أورده من أقوال فإن محاولة الذبح إنما كانت لأول مولود بُشر به إبراهيم.. وهو الغلام الحليم... وما دام أول مولود لإبراهيم هو الغلام الحليم إسماعيل كما أثبتنا.. وكانت أول بشارة بالولد لإبراهيم بالغلام الحليم أول مولود لإبراهيم، فإنه يتعين أن يكون الذبيح إسماعيل..

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم/ المجلد التاسع/ الجزء السابع عشر ص ٤٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم/ المجلد الخامس/ الجزء التاسع ص ٣٧٥.

ثانيا : عند الطبرى

لا يختلف الطبرى كثيراً عما سجله القرطبى. ولقد حاول أن يكون محايداً بلا ترجيح أو تغليب لأحد الرأيين فحشد لكل من الرأيين ما قدر على جمعه من أقوال، ولنتتبع ما جاء فى تفسيره بالترتيب الذى رتب به، بالطريقة المميزة فى عرض الآراء.

يقول فى تفسيره لقوله (تعالى) من سورة الصافات[1] :﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾[2] وقال إبراهيم: (لما أفلجه الله على قومه ونجاه من كيدهم: إنى ذاهب إلى ربى. يقول إنى مهاجر من بلدة قومى إلى الله، أى إلى الأرض المقدسة ومفارقهم فمعتزلهم لعبادة الله)... وجاء فى ثنايا تفسيره: أن معناه: إنى مهاجر إلى أرض الشام.

وقوله (تعالى): ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ وهذا مسألة إبراهيم ربه أن يرزقه ولداً صالحاً يقول: قال: يارب هب لى منك ولداً يكون من الصالحين الذين يطيعونك ولا يعصونك ويصلحون فى الأرض ولا يفسدون..

قوله (تعالى): ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ يروى عن عكرمة قوله: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ قال: هو إسحاق... ويروى عن قتادة قوله (فبشرناه بغلام حليم): بشر بإسحاق، وقوله: ﴿ فلما بلغ

(١) جامع البيان/ المجلد العاشر/ الجزء الثالث والعشرون ص٤٨ :٥٧.
(٢) الآية ٩٩ من سورة الصافات وبقية الآيات إلى ١١٣.

معه السعي ﴾ : يقول لما بلغ الغلام الذى بشر به إبراهيم مع إبراهيم العمل . وهو السعي . وذلك حين أطاق معونته على عمل) .

وقوله : ﴿ قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ﴾ . . . يقول تعالى ذكره : قال إبراهيم خليل الرحمن لابنه : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . . . وكان ـ فيما ذكر ـ أن إبراهيم نذر حين بشرته الملائكة بإسحاق ولداً أن يجعله إذا ولدته سارة لله ذبيحاً فلما بلغ إسحاق مع أبيه السعي ، أُرِىَ إبراهيم فى المنام . فقيل له : أوف بنذرك لله ، ورؤيا الأنبياء يقين ، فلذلك مضى لما رأى فى المنام ، وقال له ابنه إسحاق : ماقال) ويقصد الطبرى بهذا (قول إبراهيم لابنه : ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ وقول ابنه له : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ يقول الطبرى : فإن قال قائل : أو كان إبراهيم يؤامر ابنه فى المضى لأمر الله والانتهاء إلى طاعته ؟ . . . قيل : لم يكن ذلك منه مشاورة لابنه فى طاعة الله ، ولكنه كان منه ليعلم ماعند ابنه من العزم : هل هو من الصبر على أمر الله على مثل الذى هو عليه . فيسر بذلك ، أم لا ؟ وهو فى الأحوال كلها ماض لأمر الله . .

ويقول الطبرى يقول (تعالى) ذكره : قال إسحاق لأبيه : ﴿ يأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ . والواجب أن لا تنسب إلى الله إلا مايقول الله ولم يقل الله (سبحانه) (قال إسحاق) حتى ولو كان الأمر للتفسير والتوضيح . وهذا بلا شك خطأ كبير وقع فيه الطبرى ما كان يقع فيه مفسر

كبير مثله... ثم إن الطبرى يجزم بأن الله (تعالى) قال: قال إسحاق لأبيه). والجزم بالشئ يقتضى إجماع الأدلة عليه. وليس الأمر هكذا فى هذا الموضوع.

وأغلب الظن أن الطبرى وقع فى لبس بين اسمى الذبيح: إسحاق وإسماعيل.. فلقد كان تضرع إبراهيم إلى ربه أن يهبه ولدا من الصالحين حين لم يكن قد رزق بولد من سارة أو من هاجر، وهذا هو المعقول والمقبول والتطابق التاريخى، فبشره الله بالولد الصالح لأول مرة من هاجر، وكان هذا الولد إسماعيل بإجماع المؤرخين والمحدثين والمفسرين والواقع التاريخى بأن إسماعيل هو أول مولود لإبراهيم.. ثم رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح هذا الولد (الذى تضرع إلى الله أن يهبه له حين لم يكن لديه أولاد من سارة أو هاجر فبشره الله به لأول مرة بعد تضرعه) فكيف تحول تضرع إبراهيم وبشارة الله له ورؤياه فى المنام من أول مولود وهو إسماعيل إلى ثانى ولد له وهو إسحاق؟ كيف تحول التضرع وتحولت رؤيا الذبح إلى نذر نذره إبراهيم وطلب منه الوفاء به؟ إن بشارة الله لإبراهيم بعد تمنيه فى المرة الأولى خاصة بإسماعيل من أمه هاجر... وهو الذى رأى إبراهيم فى منامه أن يذبحه... أما بشارة الله لإبراهيم فى المرة الثانية فكانت خاصة بإسحاق من أمه سارة... وكانت الأولى: بشارة بغلام حليم... وكانت الثانية بشارة بغلام عليم... وفى تقديرنا أن هذ الخلط بين الاسمين جاء نتيجة لما قرره الشيخ عبدالوهاب النجار ـ كمؤرخ ـ بقوله: (أما هذه القصة فى التوراة فبطلها عند اليهود إسحاق وفى اعتقادى أن لفظ (إسحاق) حشر

حشراً فى غضون هذه القصة وذلك حرصاً منهم على أن يكون أبوهم هذا الذبيح الذى جاد بنفسه فى طاعة ربه وهو فى حالة صغره)..

وكذلك ما قرره ابن كثير كمؤرخ بقوله: (وهذا هو الظاهر من القرآن الكريم. بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ ومن جعله حالا فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيد عنه فإن عندهم: أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة: بكره: إسحاق. فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، إنما ذاك إسماعيل، وإنما حملهم على هذا حسد العرب.. فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله (ﷺ)... وإسحاق والد يعقوب، وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه. فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم. فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بهت ولم يقروا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء).

وقد وضح الخلط بين اسمى الذبيح عند الطبرى، وهو يفسر قوله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ فهو: يقول حدثنا عمرو بن حماد قال: حدثنا أسباط عن السدى. قال: قال جبريل لسارة أبشرى بولد اسمه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فضربت جبهتها عجبا.. فذلك قوله: ﴿فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب.. إلى قوله... حميد مجيد﴾.. قالت سارة لجبريل: ما آية ذلك؟

فأخذ بيده عوداً يابساً . فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر . فقال إبراهيم : هو لله - إذن ذبيح) فلما كبر إسحاق ، أتى إبراهيم فى النوم . فقيل له : أوف بنذرك الذى نذرت ، إن الله رزقك غلاماً من سارة أن تذبحه . . . فقال لإسحاق : انطلق نقرب قرباناً إلى الله . وأخذ سكيناً وحبلا ثم انطلق معه حتى إذا ذهب به بين الجبال قال له الغلام : (يا أبت أين قربانك ؟ ﴿ قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ (فقال له إسحاق : هذا ما جاء فى كلام الرواية ، والمفروض أن يرد إبراهيم على ابنه ، لا أن يقول ابنه رداً على غير سؤال) . قال إسحاق : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شئ فتراه سارة فتحزن ، وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون للموت علىَّ . . . فإذا أتيت سارة فأقرأ عليها منى السلام . . فأقبل عليه إبراهيم يقبله وقد ربطه وهو يبكى . وإسحاق يبكى حتى استنقع الدموع خد إسحاق . . . ثم إنه جر السكين على حلقه فلم تحك السكين وضرب الله صفحة من نحاس على حلق إسحاق ، فلما رأى ذلك ضرب به على جبينه . . . وحز من قفاه فذلك قوله : ﴿ فلما أسلما ﴾ . . يقول : سلما لله الأمر (وتله للجبين) فنودى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا بالحق ، فالتفت فإذا بكبش فأخذه وخلى عنه ابنه ، فأكب على ابنه يقبله . . وهو يقول : اليوم يا بنى وهبت لى ، فلذلك يقول الله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ . فرجع إلى سارة فأخبرها الخبر جزعت سارة وقالت : يا إبراهيم زردت أن تذبح ابنى ولا تعلمنى) .

وأضيف إلى تعليل الطبرى (عند تفسيره لقوله (تعالى) على لسان إبراهيم لابنه: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾.. أن هذا العرض بهذه الكلمات كان توعاً من أسلوب التلطف في عرض الأمر، وروعى فيه اللطف والرأفة والترغيب. بدلاً من أن يواجه ابنه الغلام صراحة ومباشرة بأمر الذبح الصادر إليه في منامه من الله (عز وجل) فيجزع ابنه الغلام ويضطرب فؤاده بدلاً من الاستسلام والرضا والقبول، وهذا هو الأسلوب المناسب تماماً لهذه الحالة وليس هنالك بكل تأكيد ـ مهما بحثنا واجتهدنا ـ أسلوب أحكم منه وأقدر على التبليغ المتطلف المترأف لأنه أسلوب القرآن الكريم كتاب الله الحكيم..

ثم لنا على هذه الرواية التى رواها الطبرى لعمرو بن حماد عن أسباط عن السدى ملاحظات:

(الأولى) أن الوقائع فيها تزدحم بقسوة وعنف لا مبرر لهما. ولسنا نعتقد أنها تصدر من والد مع ولده الغلام.. وأغلب الظن أنه قد قصد بها أن تدر العطف والشفقة المبالغ فيها على الذبيح الذى تقول عنه الرواية: أنه إسحاق... ولست أعتقد أن الله (عز وجل) ترك لإبراهيم أن يحاول هذه المحاولات المتكررة القسوة فى ذبح ولده الغلام قبل أن يرسل إليه الفداء بالذبح العظيم... فقد ظهرت طاعة إبراهيم وابنه فى الاستجابة لأمر الله منذ اللحظة الأولى التى تلقى فيها أمر الله فى رؤياه وتأكدت هذه الطاعة وهذا الاستسلام بعد أن عرض إبراهيم الرؤيا على ابنه ورد الابن عليه بالطاعة

الكاملة والاستجابة التامة.. وإذن فلم يكن إبراهيم فى حاجة إلى تأكيد طاعته لله (عز وجل) بتكرار محاولات الذبح بهذه الصورة البالغة القسوة والعنف التى جاءت فى رواية السدى وجاءت مرة أخرى مع زيادة فى صورة العنف والقسوة فى رواية لمجاهد. رواها القرطبى فيما مر وسوف نراها فى الفتوحات الإلهية للجمل على الجلالين... وقد قال كل من الجمل والقرطبى عن أحداثها القاسية: (وهذا كله جائز فى القدرة الإلهية لكنه يفتقر إلى نقل صحيح... فإنه أمر لا يدرك بالنظر. وإنما طريقه الخبر، ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله (تعالى) تعظيما لرتبة إسماعيل وإبراهيم. وكان أولى بالبيان من الفداء).. ولا يخفى أن القرطبى والجمل كلاهما صرح باسم إسماعيل وهو يتحدث عن رواية تذكر اسم إسحاق.. هذا إلى جانب رواية ابن عباس التى قال فيها عن الكبش المفدى به: (أنه الذى تقرب به هابيل وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله به إسماعيل).. وكذلك رواية ابن حجر فى شرحه لصحيح البخارى التى مرت بنا والتى ساقها ابن حجر لكعب عن قتادة وأشار فيها ابن حجر إلى أن قتادة ربما أخذ أولها من بعض أهل الكتاب وآخرها عما جاء عن ابن عباس، وذكرت هذه الرواية اسم إسحاق واسم أمه سارة فى أولها.. ثم ذكرت اسم إسماعيل وأنه عليه قميص أبيض فى آخرها... وكل هذا ينبئ بالتلفيق والقصد والتعمد إلى حشر اسم إسحاق واسم أمه سارة. إستدرارا للعطف والشفقة على إسحاق... مما يضعف من أدلة أن الذبيح إسحاق. ويقوى أدلة أن الذبيح إسماعيل.

(الثانية) أن رواية السدى هذه تختلف عما جاء في القرآن الكريم. ذلك أن القرآن الكريم لم يذكر حكاية النذر التي بنى عليها أصحابها رأيهم.. ثم إن إبراهيم لما رأى الرؤيا تحدث إلى ابنه مباشرة ولم يذهب به ليذبحه إلا بعد أن صارحه بما رأى وطلب رأيه فيه وهذا هو المعقول والمقبول. ومن غير المعقول والمقبول أن لا يصارح إبراهيم ابنه بما رآه في منامه. إلا بعد أن يأخذ سكينا وحبلا ويسير به إلى مكان النحر بين الجبال كما جاء في الرواية..

(الثالثة) أن تفسير الطبرى لقوله (تعالى): ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ استعان برواية السدى هذه لتوضيح معنى الآية الكريمة فوقع خلط آخر بين البشارة الأولى بغلام حليم هو إسماعيل من هاجر، والبشارة الثانية بغلام عليم هو إسحاق من سارة، ذلك أن البشارة الأولى كانت في زمن، والبشارة الثانية في زمن آخر.. الأولى في مناسبة خاصة بها. والثانية في مناسبة أخرى خاصة بها... الأولى تضرع إلى الله أن يرزقه بولد أول، فجاء الولد الأول من هاجر... والثانية تضرع إلى الله أن يرزقه بولد من سارة التى كانت تعانى من الغيرة والحسد لأن هاجر أنجبت الولد إلى جانب معاناتها من العقم ومن مرارة الحرمان من الولد فجاء الولد الثانى إسحاق منها... ولهذا جاءت البشارة الأولى في سورة الصافات... بينما جاءت البشارة الثانية في سورتين أخريين هما سورة الذاريات الآية ٢٨ وسورة الحجر الآية ٥٣ وفسرت سورة ثالثة هى سورة هود الغلام الثانى بأنه إسحاق... ولو لم تكن كلتا البشارتين في زمانين مختلفين... وبولدين اثنين أولا وثانيا لما ذكرهما القرآن الكريم في سور متعددة ومختلفة. والله أعلم.

(الرابعة) أن ماذكره الطبرى من أن إبراهيم نذر لله: إن رزقه غلاماً من سارة أن يذبحه، عجيب غريب... إنه بصرف النظر عن أن هذا النذر كان من إبراهيم أو لم يكن فقد أشار إليه بعض المؤرخين والمفسرين ولم يذكره الكثير منهم، بل لم يرد ذكره فى القرآن الكريم كما قلنا وإنما الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم. وسجلته جميع كتب المؤرخين والمفسرين والمحدثين أن إبراهيم رأى فى المنام أنه يذبح ابنه... والحوار الذى دار بين إبراهيم وإسحاق - فى هذه الرواية... يؤكد الشك فى أن هذا النذر لم يكن، يقول إبراهيم لابنه إسحاق: انطلق نقرب قرباناً إلى الله... ويقول ابنه: يا أبت: أين قربانك... قال إبراهيم: إنى رأيت فى المنام وهذا الاعتراف يدفع بالشك إلى الرواية كلها وإلى أن بطلها إسحاق..

ثم أليس من العجيب الغريب أيضاً أن يتضرع إبراهيم وسارة بعد أن يئست سارة من الإنجاب إلى الله أن يهب لهما ولداً. وينذر لله نذراً إن وهبه هذا الولد أن يذبحه؟

فلماذا التضرر؟ وكيف يذبح إبراهيم ولده الذى تضرع إلى الله هو وزوجه سارة أن يرزقهما به؟... وما معنى أن ينذر إبراهيم بذبح الولد - إذا رزقه الله به من سارة - إذا كان إسماعيل موجوداً؟ ورأى فى المنام أن يذبحه. ثم افتداء الله بذبح عظيم؟... كيف وإبراهيم وزوجه سارة فى أشد الحاجة إلى الولد - أن ينذر بذبحه؟

(الخامسة): أن نهاية هذه الرواية التى ذكرها الطبرى لعمرو بن حماد. عن أسباط عن السدى تقرر: أن سارة لم تكن تعلم بمحاولة

إبراهيم ذبح ابنه (من سارة) إسحاق وأنها جزعت حين أخبرها إبراهيم بما حدث فقالت: يا إبراهيم. أردت أن تذبح ولدى ولا تعلمنى) مع أن رواية أخرى ذكرها ابن حجر فى شرحه لصحيح البخارى عن السدى: تقرر أن سارة كانت تعلم.. ولم يكن حزن ابنها إسحاق حسبما جاء فى الرواية إلا لأنها سوف ترى دم ابنها على ثوبه بعد أن يذبحه إبراهيم ويرد إبراهيم الثوب إليها، ورواية ثالثة رواها ابن حجر عن كعب وساق نحوه عن طريق سعد وقتادة تقرر أن سارة كانت تعلم أيضاً، وأن الشيطان تمثل لها فى صورة رجل تعرفه. وأخبرها: أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنها. فلم تجزع وقالت: أخشى ألا يطيع ربه.

بل إن بداية تلك الرواية تقرر أن سارة كانت تعلم أن إبراهيم نذر لله أن يذبح ابنهما إسحاق حين قال لجبريل (ما آية ذلك؟ فأخذ عوداً يابساً. فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر. فقال إبراهيم لجبريل وسارة هو لله إذن ذبيح). ولم تعترض سارة أى اعتراض على قرار إبراهيم..

ولعله من المناسب هنا أن أذكر القارئ برواية ابن عباس التى ورد فيها اسم إسماعيل. وأنه كان يرتدى قميصاً أبيضاً فهو يذكرها لتوضيح أن قتادة أخذ أول روايته عن بعض أهل الكتاب وآخرها مما جاء عن ابن عباس وهو عند أحمد من طريق أبى الطفيل عن ابن عباس هذه الرواية ذكرها الطبرى وهو يفسر قوله (تعالى) ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾. وجاء فيها: حدثنا ابن سنان. قال:

حدثنا حجاج عن حماد عن أبي عاصم الغنوى عن أبي الطفيل قال ابن عباس: إن إبراهيم لما أُمِرَ بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه فسبقه إبراهيم... ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات. حتى ذهب.. ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم تله للجبين وعلى إسماعيل قميص أبيض فقال له: يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غير هذا. فاخلعه حتى تكففنى فيه.. فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أعين أبيض فذبحه. فقال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع هذا الضرب من الكباش)..

... ويواصل الطبرى تفسيره للآيات الكريمة من سورة الصافات. فيقول قوله: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ يقول: وفدينا إسحاق بذبح عظيم، وكأنه لم يلتفت إلى ماجاء فى روايتى ابن عباس اللتين تقرران أن الذبيح إسماعيل.. ولم يشر إلى هذا مطلقاً، وكان من الواجب عليه أن يتوقف. فلا يذكر اسم إسحاق... مما يؤكد الخلط الذى وقع فيه بين الاسمين ثم بعد هذا يقول الطبرى: واختلف أهل التأويل فى المفدّى من الذبح من ابنىً إبراهيم.. قال بعضهم: هو إسحاق... وهذا البعض عند الطبرى.. هم العباس بن عبدالمطلب (فى إحدى روايات عنه) وابنه عبد الله (فى رواية لعكرمة). وعبدالله بن مسعود. (فى رواية لإسحاق بن أبى الأحوص). وكعب الأحبار (فى رواية لأبى هريرة). ومسروق (فى رواية لابن إسحاق) وعبدالله بن عمير (فى رواية لزيد بن أسلم) وعبد الله بن أبى الهذيل، وجابر بن سابط... وأبو ميسرة... ولم يذكر

الطبرى مع هؤلاء أسماء: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، ومالك بن أنس التى ذكرها القرطبى وذكر اسمى: جابر والسدى فى ثنايا تفسيره..

ثم يقول الطبرى: (وقال آخرون: الذى فدى بالذبح العظيم من ابنى إبراهيم: إسماعيل) وسجل الأسماء التالية. لمن قال بهذا: ابن عمر عن (إسرائيل. عن ثور. عن مجاهد)...

وابن عباس فى تسع روايات لرواة مختلفين قال فى بعضها: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال: (إسماعيل)... وقال فى بعض ثان منها: (إن الذى أمر بذبحه إبراهيم: إسماعيل)..

وقال فى بعض ثالث منها: (إن الذى فداه الله بذبح عظيم هو إسماعيل)... وقال فى بعض رابع منها. (المفدى إسماعيل. وزعمت اليهود: أنه إسحاق وكذبت اليهود).. وقال فى بعض خامس منها: (الذى فداه الله هو إسماعيل)!.. وعامر فى رواية أولى تقول: ((الذى أراد إبراهيم ذبحه: إسماعيل). وفى رواية ثانية تقول (هو إسماعيل وكان قرنا الكبش منوطين بالكعبة).. والشعبى قال: (الذبيح إسماعيل) فى رواية. و (رأيت قرنى الكبش فى الكعبة) فى رواية ثانية... ويوسف بن مهران.. ومجاهد والحسن... ومحمد بن كعب القرطبى... ويروى عن ابن إسحاق، قوله: (سمعت محمد بن كعب القرظى وهو يقول: (إن الذى أمر الله إبراهيم. أن يذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله. فى قصة الخبر عن إبراهيم، وما أمر به من ذبح

ابنه إسماعيل.. وذلك أن الله يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم. قال: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾.
يقول: بشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب... يقول: بابن وابن ابن.. فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود ما وعده الله وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل)... ورواية ثانية عن محمد بن كعب القرظى (يقول ذلك كثيراً)... ورواية ثالثة عنه.
تقول: (أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز. وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر: إن هذا الشئ ماكنت أنظر فيه، وإني لأراه كما هو.. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام. كان يهودياً فأسلم فحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيزعن ذلك فقال محمد بن كعب: (وأنا عند عمر بن عبد العزيز) فقال له عمر: أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود تعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبوه لما أمر به فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم. فالله أعلم أيهما كان كُلٌ قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لربه)... والحسن البصرى يروى عنه: (أنه كان لا يشك فى ذلك أن الذى أمر بذبحه من ابنى إبراهيم: إسماعيل)...

وروى عن عبد الله بن سعيد الصناجى قال كنا عند معاوية بن أبى سفيان. فذكروا: الذبيح إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: (على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله (ﷺ) فجاءه رجل فقال: يارسول الله

عد على مما أفاء الله عليك، يا ابن الذبيحين.. فضحك (عليه السلام)... فقيل له يا أمير المؤمنين. وما الذبيحان؟ فقال: إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله لئن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده. قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله. وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل. وإسماعيل الثانى)...

وعلى هذا فإن بين أيدينا بإجماع المؤرخين والمحدثين والمفسرين روايتان عن رسول الله (ﷺ):

أن الذبيح إسماعيل إحداها هذه الرواية التى رواها معاوية بن أبى سفيان...

(والثانية) سبقت وقد رواها ابن عباس فى إحدى روايتين عن النبى (صلى الله عليه وسلم) كلتاهما تقرران أن الذبيح إسماعيل.

والعقل يقبل أن ينذر عبدالمطلب أحد أبنائه، فقد كانوا كما سجل التاريخ اثنا عشر ولداً فلا يستبعد أن يضحى بأحدهم لله، أما بالنسبة لإبراهيم وسارة فقد كان من المستبعد تماماً ومن المستحيل أن ينذر إبراهيم بولدهما الوحيد. الذى لم يكن لهما كما يزعم من يقول أن الذبيح إسحاق غيره، وقد عاش إبراهيم وسارة محرومين من نعمة الولد ويرزق الله إبراهيم بولد من هاجر. وتظل سارة عاقراً لا تلد تعانى من الحسد والغيرة والحرمان حتى بلغت من الكبر عتياً. فلا يعقل إذا رزقهما الله بولد تضرعاً إلى الله أن يهبه لهما. أن ينذر إبراهيم بذبحه قرباناً إلى الله...

ويمضى الطبرى فى الحديث عن الأسماء التى تقول أن الذبيح إسماعيل فيقول: (حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا عثمان بن عمر. قال: حدثنا ابن جريج. عن مجاهد ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾. قال: (الذى فدى به إسماعيل) غير أن الكلمات التالية مباشرة لهذا القول لمجاهد. وهى(.. ويعنى تعالى ذكره. الكبش الذى فدى به إسحاق) لا تتوافق مع هذا القول... وتتناقض مع سرده لأقوال من قال إن الذبيح إسماعيل. وتوحى بأن الطبرى ما يزال يخلط بي الاسمين.. ثم إن الطبرى بعد هذ كله لا يرد على من يقول: إن الذبيح إسماعيل بوجهة نظره هو وإنما ينسب الرد إلى رجل آخر. وقد رأيت أن أذكر هذا الرد كما ذكره الطبرى. على الرغم من خطأ التقدير فيه. ثم لنا تعليق عليه.. يقول الطبرى: (قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب. فى المفدى من ابنى إبراهيم. خليل الرحمن على ظاهر التنزيل. قول من قال: هو إسحاق... لأن الله قال: وفديناه بذبح عظيم فذكر أنه فدى الغلام الحليم. الذى بشر به إبراهيم. حين سأله. أن يهبه له ولداً صالحاً من الصالحين. فقال: رب هب لى من الصالحين.. فإذا كان المفدى بالذبح. من ابنيه هو المبشر به. وكان الله (تبارك اسمه) قد بين فى كتابه. أن الذى بشر به هو إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب). فقال جل ثناؤه: ﴿ وبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾. وكان فى كل موضع من القرآن. ذكر تبشيره إياه بولد. فإنما هو معنى به إسحاق. وكان بيناً أن تبشيره إياه بقوله: فبشرناه بغلام حليم. فى هذا الموضع. نحو سائر أخباره. فى غيره من آيات

القرآن . . وبعد . فإن الله أخبر جل ثناؤه في هذه الآية عن خليله . أنه بشره بالغلام الحليم . عن مسألته إياه أن يهب له من الصالحين ومعلوم أنه لم يسأله ذلك إلا في حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين، لأنه لم يكن له من ابنية إلا إمام الصالحين . وغير موهوم منه أن يكون سأل ربه في هبة ما قد كان أعطاه ووهبه له . . . فإذا كان ذلك كذلك فمعلوم أن الذي ذكر (تعالى) ذكره في هذا الموضع . هو الذي ذكر في سائر القرآن أنه بشره به . . وذلك لا شك أنه إسحاق إذ كان المفدى . هو المبشر به . . . . وأما الذي اعتل به من اعتل في أنه إسماعيل : أن الله قد كان وعد إبراهيم . أن يكو له من إسحاق ابن ابن . فلم يكن جائز أن يأمره بذبحه . مع الوعد الذى تقدم . فإن الله إنما أمره بذبحه . بعد أن بلغ معه السعي . وتلك حال . غير ممكن أن يكون قد كان ولد لإسحاق فيها أولاد . .

وأما اعتلال من اعتل بأن الله . أتبع قصة المفدى من ولد إبراهيم . بقوله : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ ولو كان المفدى هو إسحاق . لم يبشر به بعد . وقد ولد وبلغ معه السعي فإن البشارة بنبوة إسحاق من الله فيما جاءت به الأخبار . جاءت إبراهيم وإسحاق . بعد أن فدى . تكرمة من الله له . على صبره . لأمر ربه . فيما امتحنه به من الذبح . . .

وأما اعتلال من اعتل . بأن قرن الكبش . كان معلقاً في الكعبة فغير مستحيل . أن يكون حمل من الشام إلى مكة . . . وقد روى عن جماعة من أهل العلم : أن إبراهيم . إنما أمر بذبح ابنه إسحاق في الشام . وبها أراد ذبحه . .

(أولاً) عبارة الطبرى (... أن يكن له من إسحاق ابن ابن) هكذا وردت فى تفسيره.

وفى اعتقادنا أن جملة (من إسحاق) زائدة. أو أنه أراد أن يقول: (أن يكون لإبراهيم) بدلاً من : (أن يكون له من إسحاق) أو أن كلمة (ابن) الثانية زائدة. لأن إبراهيم هو الذى بشر بولده إسحاق وبولد ولده يعقوب... أما إسحاق فإن البشارة نفسها لم تكن بالنسبة له إلا بابن هو يعقوب... ألا يدل على أن الطبرى وقع فى لبس وخلط بين الأسماء إبراهيم وإسحاق ثم إسحاق وإسماعيل. مما يجعل الرأى بأن الذبيح إسحاق. بلا دليل. واضح مفهوم.

(ثانيا) هذا اللبس والخلط الذى وقع فيه الطبرى. نرى مثيلاً له فى غلالة من الغموض وعدم الوضوح فيما ذكره الطبرى. عن أبى جعفر. وهو يستدل لمن قال إن الذبيح إسحاق ويرد على اعتلال من اعتل بأنه إسماعيل... واكتفى بالرد على كلام أبى جعفر بما يلى:

(١) قوله (ومعلوم أنه لم يسأله ذلك إلا فى حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين) يمهد به أبو جعفر ليثبت أن الذى بشر الله به إبراهيم (بعد أن سأل ربه أن يهبه ولداً من الصالحين ولم يكن له فى هذ الوقت أولاداً هو إسحاق. فيوحى بهذا إلى أن أول ما بشر به إبراهيم من أبناء. هو إسحاق مع أنه من المتفق عليه لدى ـ جميع المؤرخين والمحدثين والمفسرين. وما يؤكده واقع حياة إبراهيم. مع سارة ومع هاجر. وابنها إسماعيل وحسد سارة وغيرتها من هاجر

لأنها أنجبت لإبراهيم ماعجزت سارة أن تعطيه لإبراهيم. مما حمل سارة على أن تطلب من إبراهيم أن يبعد عنها هاجر وولدها إسماعيل. فنقله من الشام إلى مكة. وكانت وقائع حياة إسماعيل. منذ أن كان رضيعاً محل تشريع إلهي بركن الحج أحد أركان الدين الإسلامي - من المتفق عليه. أن إسماعيل ولد قبل إسحاق... فإذا كان المبشر به إسحاق - كما يقول أبو جعفر فأين إذن كان إسماعيل؟...

والعجيب أن أبا جعفر. يقول تعقيباً على تعليله هذا: (... لأنه لم يكن له من ابنيه إلا إمام الصالحين) أى: أنه باعترافه يقرر أن إبراهيم كان له ابن قبل إسحاق وصفه بأنه إمام الصالحين ومعلوم أنه لم يكن له أبناء قبل إسحاق غير إسماعيل... وإلا فمن هو إمام الصالحين؟ فإن كانت البشارة لأول ولد له... وكان الذبح لأول من بشر به. فلن يكون الذبيح إلا إسماعيل.

(٢) ويقول أبو جعفر: (... فمعلوم أن الذى ذكره (تعالى) ذكره. فى هذا الموضع هو الذى ذكر فى سائر القرآن الكريم. أنه بشره. وذلك لا شك أنه إسحاق)... مغالطة لا شك فيها من أبى جعفر... ذلك أن المعقول والمقبول والمسلم به: أن إبراهيم تمنى من الله. أن يرزقه بولد - حين لم يكن له أولاد فولدت له هاجر إسماعيل وهذه كانت البشارة الأولى بالغلام الحليم... ثم تمنى إبراهيم. أن يرزقه الله بولد من سارة فكانت البشارة الثانية بالغلام العليم الذى فسرته الآيات بأنه إسحاق ومن وراء إسحاق

يعقوب... ثم كانت البشارة لإبراهيم بنبوة إسحاق... وإذن لم يكن الذى ذكره الله (تعالى). فى هذا الموضع هو الذى ذكره فى سائر القرآن الكريم. أنه بشره به.. كما يقول أبو جعفر... فهذه بشارة بغلام حليم هو إسماعيل من هاجر... وتلك بشارة بغلام عليم. هو إسحاق من سارة..

(٣) وفى رده على من اعتل فى أنه إسماعيل: (أن الله قد كان وعد إبراهيم. أن يكن له من إسحاق ابن ابن [وهذا لبس أو مغالطة] مع ملاحظة ما نبهنا إليه من تصويب فى عبارة (من إسحاق ابن ابن) فلم يكن جائز أن يأمره بذبحه. مع الوعد الذى تقدم) يقول أبو جعفر: (... فإن الله إنما أمره بذبحه. بعد أن بلغ معه السعى وتلك حال غير ممكن أن يكون قد ولد لإسحاق فيها أولاد).. ومع أن هذا الاعتلال معقول ومقبول فإن ما يقوله أبوجعفر. لا يقبله منطق ولا عقل.. لسببين: الأول: أن الدفاع بغير ممكن لا يرقى إلى درجة القطع بالنفى. فيظل الإمكان قائماً بالنسبة للعكس... الثانى: أن البشارة - كما هو نص القرآن الكريم بولادة إسحاق. وبأن إسحاق سوف يكون له ولد هو يعقوب. ويناقض هذ الوعد أن يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق. وإلا تكون البشارة ويكون الوعد لغواً (تعالى الله) عن ذلك علواً كبيراً وهذا يوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق فلا يكون إلا إسماعيل...

(٤) وفى رده على اعتلال من اعتل بأن قرنى الكبش كانا معلقين فى الكعبة. بقوله: (فغير مستحيل أن يكون حمل من الشام إلى

مكة... وقد روى عن جماعة من أهل العلم: (إن إبراهيم إنما أمر بذبح ابنه إسحاق فى الشام. وبها أراد ذبحه)..

وأسأل أبا جعفر: ،من هم الجماعة من أهل العلم. التى روى عنها أنها قالت: (إن إبراهيم إنما أمر بذبح ابنه إسحاق فى الشام. وبها أراد ذبحه)؟... لماذا لم يذكر أسماء هده الجماعة للتيقن من روايته؟ وأسأله ثانية: إذا كانت مشاعر الحج. قد ارتبطت بمحاولة الذبح وبالمكان الذى وقعت فيه هذه المحاولة. فهل مشعر النحر فى الشام؟ يذهب إليه الحجاج. ثم يعودون إلى إستكمال مشاعر الحج فى مكة؟ وأسأله مرة ثالثة: إذا كان الكبش الذى فدى به ابن ابراهيم كان موجوداً فى مكة - كما ذكر قبل وكما تقول الروايات التى سوف نذكرها بعد فهل نقل إبراهيم الكبش إلى الشام ليفدى به إسحاق؟

ثم إننى بعد هذا كله افترض احتمالات ثلاثة وأترك للقارئ أن يختار منها ما يراه مقبولاً ومعقولاً ومناسباً ما دمنا قد اتفقنا على أن مشاعر الحج كلها وقعت فى مكة وتؤدى الآن ومنذ فرض الله الحج وإلى أن تقوم الساعة فى مكة... وما دمنا فقد اتفقنا كذلك. على أن إسماعيل الابن الأول لإبراهيم يقيم فى مكة..

(الافتراض الأول) أن تكون محاولة الذبح للابن الأول. إسماعيل. المقيم فى مكة... وهو الذى بشر به إبراهيم أولاً.. ويكون الفداء والذبح للكبش فى مكة. عند مشعر النحر فى منى.

(الافتراض الثانى) أن تكون محاولة الذبح فى الشام لإسحاق.

الابن الثانى. وهو الذى بشر الله به إبراهيم ثانياً بينما إسماعيل فى مكة وهو على استعداد للطاعة الواجبة لله بأن يقدم نفسه قرباناً إلى الله. وقد وصفه الله بأنه صادق الوعد... وأنه من الصابرين ويكون الفداء وذبح الكبش فى الشام. ثم ينقل قرناً الكبش لتعلقا فى الكعبة بمكة.

(الافتراض الثالث) أن ينتقل إسحاق من الشام إلى مكة لتكون محاولة ذبحه فى مكة بينما إسماعيل الابن البكر الأول موجود فى مكة ومستعد كما قلنا للتضحية. دون الحاجة إلى نقل إسحاق من الشام إلى مكة ثم يعود إسحاق مرة ثانية. إلى الشام بعد أن يكون الفداء بالذبح العظيم فى مكة؟ لا شك أن الافتراض الأول. هو المعقول والمقبول والمناسب وبهذا التصور للافتراضات الثلاثة يكون هو الواقع الذى لا شك فيه...

ومع وضوح وسلامة هذه الردود على ما يقوله أبو جعفر. فإن الطبرى. لم يكلف نفسه عناء النظر فيها والحكم عليها والرد بها.. فكان سكوته امتداداً للبس والخلط الذى وقع فيه...

ونمضى مع الطبرى. فى تفسير قوله (تعالى): ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ فيقول: (واختلف أهل العلم فى الذبح الذى فدى به إسحاق)... وقد عرض الطبرى أقوالاً فى هذا الذبح العظيم ورد فى ثناياها اسم إسماعيل مرة... وكلمة ابنه مرة واسم إسحاق مرة... مع أنه قرر فى عبارته التى بدأتها هذه الأقوال: أن الذبيح الذى فدى بالذبح العظيم هو إسحاق... إلى جانب أن هذه

الأقوال. لم يرد منها ما يدل على أن الذبح حدث فى الشام... ولكنها تؤكد أنه وقع فى منى بمكة.. وبهذا تكون هذه الأقوال. كافية فى دحض الاحتمال الذى أورده الطبرى بأن يكون الذبح تم فى الشام. محل إقامة إسحاق. ثم نقل قرنا الكبش إلى مكة ونجمل هذه الأقوال كما يلى:

(١) رواية عن على بن أبى طالب. تقول: كان الكبش مربوطاً بسمرة فى ثبير. كان أبيض. أقرن. أعين.

(٢) وقال عبيد بن عمر: ذبح بالمقام.

(٣) وقال مجاهد: ذبح بمنى. فى المنحر.

(٤) وعن ابن عباس. قال: الكبش الذى ذبحه إبراهيم. هو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه.

(٥) وقال عكرمة: إن ابن عباس: كان أفتى الذى جعل عليه أن ينحر نفسه. فأمر بمائة من الإبل.

فقال ابن عباس بعد ذلك لو كنت أفديته بكبش لإجزاءه أن يذبح كبشاً فإن الله (تعالى) قال فى كتابه: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾

(٦) وعن عبد الله بن عباس أيضاً قال: خرج كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك. أربعين خريفا فأرسل إبراهيم ابنه. واتبع الكبش. فأخرجه إلى الجمرة الأولى. فرمى بسبع حصيات. فأفلته عنده... فجاء الجمرة الوسطى فأخرجه عندها.. فرماه بسبع حصيات.. ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى. فرماه بسبع حصيات. فأخرجه

عندها.. ثم أخذه فاتى به المنحر من منى فذبحه. فو الذى نفس ابن عباس. بيده لقد كان أول الإسلام. وأن رأس الكبش. لمعلق بقرنيه. عند ميزاب الكعبة. فدحس يعنى يبس.. (وفى رواية سبقت لابن عباس: وستأتى أن إبراهيم رمى الشيطان بسبع حصيات فى كل جمرة ولنا عليها تعليق آنذاك) وهذه الرواية عن ابن عباس. تكفى فى الرد. على من زعم: أن الذبيح إسحاق. وأن محاولة الذبح كانت فى الشام. حيث يقيم وأن الكبش ذبح فى الشام. ثم نقل قرناه إلى مكة..

(٧) وروى عن سعيد بن جبير. أنه قال. الكبش الذى ذبحه إبراهيم. رعى فى الجنة أربعين سنة وكان كبشاً أملح. صوفه مثل العهن الأحمر..

(٨) وروى عن السدى قوله: إلتفت إبراهيم فإذا بكبش فأخذه وخلى عنه ابنه..

(٩) وروى عن ابن زيد: أن الذبح العظيم الكبش الذى فدى الله بإسحاق..

(١٠) ويروى عن ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن: أنه كان يقول: (مافدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثبير) وهذه الرواية عن الحسن تؤكد أن الذبح كان فى مكة وتصرح بأن الذبيح إسماعيل..

(١١) وقال آخرون كان ذلك الذبح وعلاً...

ويقول الطبرى - فى توضيح الأسباب التى وصف القرآن الكريم. (الذبح) بأنه عظيم: واختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله قيل للذبح الذى فدى به إسحاق: عظيم وقال بعضهم:

قيل ذلك: لأنه رعى فى الجنة. أربعين خريفاً...

وقال آخرون: قيل له عظيم. لأنه كان ذبحا متقبلاً..

وقال آخرون: قيل له ذلك. لأنه ذبح بالحق... وذلك ذبحه بدين إبراهيم.. وروى عن الحسن: أنه كان يقول: ما يقول الله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ لذبيحته التى ذبح فقط ولكنه الذبح على دينه.. فتلك السنة إلى يوم القيامة. فاعلموا أن الذبيحة تدفع ميتة السوء.. فضحوا عباد الله..

وقوله (تعالى): ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ يقول فيه الطبرى: يقول (تعالى) ذكره: (وبشرناه بإسحاق نبيا شكراً له على إحسانه وطاعته) وهذه هى نهاية الكلام للطبرى فى هذا الموضوع. ومع أنه يحمل الانطباع بأنه فى النهاية تخلى عن القطع بأن الذبيح إسحاق. فى بداية تفسيره لكل آية. فقد كان من المحتمل أن يفسر هذه الآية. كما روى تفسيرها قتادة بقوله: (بشر به بعد ذلك نبيا. بعد ما كان هذا من أمره. لما جاد بنفسه) أو كما روى تفسيرها عن ابن عباس فى إحدى الروايات عنه. بقوله: (بشر به نبيا. حين فداه من الذبح. ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده)..

وهاتان الروايتان. عن قتادة وابن عباس. توضحان كما قررنا أكثر

من مرة . أن البشارة بإسحاق كانت ثلاث مرات بعد البشارة الأولى بإسماعيل بشارة أولى بمولده من سارة فكانت لإبراهيم بغلام . عليم .. وبشارة ثانية لسارة بإسحاق ومن وراء بإسحاق يعقوب .. ثم كانت البشارة الثالثة لإبراهيم بنبوة إسحاق ... وتظل أول بشارة بالغلام الحليم . الذى رأى إبراهيم أنه يذبحه . وكان أول مولود وهبه الله لإبراهيم . كان من زوجه هاجر : ولدهما البكر الوحيد إسماعيل ...

الفتوحات الإلهية . بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان بن معمر الشهير بالجمل ويقال فيها اختصاراً «حاشية الجمل على الجلالين» . . . نقل منها ما يلي[1] :

يقول عند تفسير قوله (تعالى) : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ . أى : فاستجبنا له فبشرناه بغلام حليم . . . أى على لسان الملائكة . الذين جاءوا له فى صورة أضياف . فبشروه بالغلام . ثم انتقلوا من قريته . إلى قرية لوط لإهلاك قومه . كما تقدم فى هود . ويأتى فى الذاريات أ.هـ . قرطبى .

والآية الكريمة فى سورة الصافات حيث يقول الله (تعالى) : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين.رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم.فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ فهى تبشر بغلام حليم . هو الذى رأى والده فى المنام : أن يذبحه . . ولا تذكر هذه الآيات أنها كانت على لسان الملائكة أضياف إبراهيم الذين جاءوا أيضاً لإهلاك قرية لوط . .

أما البشارة التى يتحدث عنها الجمل . وكانت على لسان الملائكة . الذين جاءوا إبراهيم فى صورة أضياف . لإهلاك قرية لوط . فهى

(١) الفتوحات الإلهية ـ المجلد الثالث ص ٥٤٦ ـ ٥٤٩ .

بشارة بغلام عليم. ولم تذكر الآيات أنه الذى رأى إبراهيم فى المنام أن يذبحه... وكانت فى سورة أخرى. هى سورة الذاريات فى قوله (تعالى): ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾

وقد فسرت سورة أخرى هى سورة هود الغلام العليم بأنه إسحاق فى قوله (تعالى):

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ.فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط.وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب.قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد.فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ﴾.

وهذا هو الخطأ أو اللبس الذى وقع فيه الجمل ووقع فيه القرطبى والطبرى وابن كثير. فقد جعل البشارة بالغلام الحليم فى سورة الصافات لإبراهيم وسارة على لسان الملائكة الأضياف الذين جاءوا لإهلاك قوم لوط... مع أن هذه البشارة كانت البشارة الأولى لإبراهيم من هاجر بعد هجرة إبراهيم وكانت بالغلام الحليم. بكره إسماعيل..

أما بشارة إبراهيم من زوجه سارة. التى يتحدث عنها الجمل. فكانت بشارة أخرى بالغلام العليم الذى فسرته آيات أخرى بأنه إسحاق. كما هو واضح وصريح فى آيات القرآن الكريم...

ثم ينبه الجمل فى الفتوحات الإلهية. إلى تعليل لطيف لأمر الله إلى إبراهيم بذبح ابنه البكر الوحيد. فيقول: (لما كانت العادة البشرية أن بكر الأولاد. أحب إلى الوالدين ممن بعده.. وكان إبراهيم قد سأل ربه الولد. ووهب له.. تعلقت شعبة من قلبه بمحبته والله (تعالى) قد اتخذ إبراهيم خليلاً.. والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة. وأن لا يشارك فيها... فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد. جاءت غيرة الخلة. تنتزعها من قلب الخليل.. فأمر بذبح المحبوب... فلما قدم على ذبحه. وكان محبة الله أعظم عنده من محبة الولد.. خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة فلم يبق فى الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة. إنما هى فى العزم. وتوطين النفس. وقد حصل المقصود ونسخ الأمر وفدى الذبح. وصدق الخليل الرؤيا)..

وسبق أن أوضحنا أن عبارة (ونسخ الأمر)[1] غير مناسبة فى هذا المقام...

ويقول الجمل: (قوله: أنى أذبحك): وروى أنه رأى ليلة التروية أن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك.. فلما أصبح فكر فى نفسه: أنه من الله. أو من الشيطان؟ فلما أمسى رأى مثل ذلك.

---

(١) مرت بنا هذه العبارة مع التعليل المذكور فى كلام ابن قيم الجوزية فى كتابه (زاد المعاد).

فعرف أنه من الله (تعالى) . . . ثم رأى مثله في الليلة التالية فهم بنحره . فقال له : يابني إني أرى في المنام . . . الخ ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفه . والنحر) . . .

ويقول (قوله : وتله للجبين) أي صرعه . وأسقطه على شقه . قال ابن عباس :

(أضجعه على جنبه . . فلما فعل ذلك قال الابن : يا أبت اشدد رباطي كيلا أضطرب واكفف ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شئ . فينتقص أجري وتراه أمي فتحزن . .

واستحد شفرتك . وأسرع بها على حلقي يكون أهون عليّ . . وإذا أتيت أمي فأقرأ عليها السلام مني . . . وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل . فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني . فقال إبراهيم : نعم العون أنت يابني على أمر الله . . . ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه . . . ثم أقبل عليه وهو يبكي . والابن يبكي . فلما وضع السكين على حلقه . لم تؤثر شيئاً . فاشتدها بالحجر مرتين أو ثلاثاً . كل ذلك لا تستطيع أن تقطع شيئاً . فمنعت بقدرة الله (تعالى) . . . وقيل ضرب الله صفيحة من نحاس على حلقه . . . والأولى أبلغ في القدرة الإلهية . وهو منع الحديد عن اللحم فعند ذلك . قال الابن : يا أبت كبني لوجهي على جبيني فإنك إذا نظرت في وجهي . رحمتني فأدركتك رأفة . تحول بينك وبين أمر الله . وأنا أنظر إلى الشفرة . فأجزع منها . . . ففعل ذلك إبراهيم . ثم وضع السكين على قفاه . فانقلبت . . . فنودي : يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا الخ . .

ورواية ابن عباس هذه - في تفاصيل محاولة الذبح - تذكر لفظ (أمي) ولفظ (ابنه، الابن) .. وقد مرت بنا رواية أخرى لابن عباس أيضاً . صرحت باسم إسماعيل . وأنه كان عليه قميص أبيض . . .

ورواية عن السدي : ذكرت اسم إسحاق . واسم سارة . . .

ورواية لكعب الأحبار . ذكت اسم إسحاق . واسم سارة . سجلها كل من القرطبي والطبري تقول هذه الرواية : (حدثني يونس . قال أخبرنا ابن وهب . . قال أخبرني يونس . . عن ابن شهاب . . أن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن حارثة الثقفي . أخبره أن كعباً قال لأبي هريرة ألا أخبرك عن إسحاق بن إبراهيم النبي ؟ . . . قال أبوهريرة بلى . . قال كعب . . . لما رأى إبراهيم ذبح إسحاق . قال الشيطان . . والله لئن لم أفتن عند هذا . آل إبراهيم . لا أفتن أحداً منهم أبدا فتمثل الشيطان لهم رجلاً يعرفونه . فأقبل حتى إذا خرج إبراهيم بإسحاق ليذبحه دخل على سارة امرأة إبراهيم . فقال لها : أين أصبح إبراهيم غادياً بإسحاق ؟ قالت سارة غداً لبعض حاجته . . قال الشيطان . لا والله ما لذلك غدا به . . . قالت سارة : فلم غدا به ؟ قال غدا ليذبحه . . قالت سارة : ليس من ذلك شئ لم يكن ليذبح ابنه . . قال الشيطان بلى والله . . قالت سارة : فلما يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . . قالت سارة فهذا أحسن . بأن يطيع ربه . إن كان أمره بذلك . . فخرج الشيطان من عند سارة . حتى أدرك إسحاق . وهو يمشي على آثار أبيه . فقال : أين أصبح

أبوك : غاديا بك ؟ . . قال : غدا بى لبعض حاجته . . قال الشيطان : لا والله ما غدا بك لبعض حاجته . ولكن غدا بك ليذبحك قال إسحاق : ما كان أبى ليذبحنى . . قال بلى . . قال : لم ؟ قال : زعم ربه أمره بذلك قال إسحاق : فوالله لئن أمره بذلك . ليطيعنه . . قال : فتركه الشيطان . وأسرع إلى إبراهيم فقال : أين أصبحت غاديا بابنك ؟ . . قال : غدوت به لبعض حاجتى . . قال : أما والله ما غدوت به . إلا لتذبحه . . قال : لما أذبحه ؟ قال : زعمت أن ربك أمر بذلك . . قال : فو الله لئن كان أمرنى بذلك لأفعلن . . قال : فلما أخذ إبراهيم إسحاق ليذبحه . وسلم إسحاق أعفاه الله . وفداه بذبح عظيم . قال إبراهيم لإسحاق : قم يا بنى . فإن الله قد أعفاك . وأوحى الله إلى إسحاق : أنى قد أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها . . قال إسحاق : اللهم إنى أدعوك أن تستجيب لى . أيما عبد لقيك . من الأولين والآخرين . ولا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة) .

وقد قصدت من تسجيل هذه الرواية تفصيلاً . إلى أمور عدة (أولها) أن أنبه القارئ إلى ملاحظة أن هذه الرواية استوعبت واستقصت كل تفاصيل الحوار الممكنة ؟ والتى يمكن الاستغناء عنها دون إخلال بالسرد المعقول والمفهوم لهذه المحاولة . مما ترتب عليه تكرار اسم إسحاق . واسم سارة مرات عديدة . أعتقد أنها مقصودة . . مع إظهار مدى حرص إسحاق وسارة على تنفيذ أمر الذبح وطاعة الله به . . (وثانيها) أن يقارن القارئ بين كلام إسحاق هنا . . وكلامه فى رواية السدى التى يقول فيها إبراهيم لإسحاق (قم بنا نقرب قربانا . . ويقول إسحاق لأبيه : (يا أبى أين

قربانك) مما يبطل الادعاء بأن إبراهيم كان نذرًا لله نذرًا . .

وثالثها) . أن هذه الرواية تشبه تلك القصص المصنوعة المخترعة . .

دون مراعاة لصدق الحقائق فيها . . وبخاصة عند قول إبراهيم للشيطان الذى تمثل له فى صورة رجل يعرفه . (غدوت به لبعض حاجته . . وقوله : ولم أذبحه؟) . . وعند قول الرواية (فأوحى الله إلى إسحاق أنى قد أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها) وقول إسحاق : اللهم أنى أدعوك أن تستجيب لى . أيما عبد لقيك . من الأولين والآخرين . ولا يشرك بك شيئاً . فأدخله الجنة) . .

(ورابعها) : أنها تذكرنا بتفاصيل قصة الذبح البالغة العنف والقسوة . والتى تعمد قائلوها أن يستدروا بها العطف والشفقة على إسحاق . وعلى أبيه إبراهيم . لأنها هنا . تحاول أن تضع لإسحاق فى قلوب الناس مكانة كبيرة . وإسحاق (عليه السلام) لا يحتاج إلى أن يكون هو الذبيح . ليضع الناس فى قلوبهم . له كل التقدير والحب والاحترام . لأنه نبى من أنبياء الله الصالحين . وللأنبياء جميعًا . فى قلوب المسلمين . كل الحب والتقدير والاحترام . (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) . . .

ثم نضيف إلى كل روايات محاولة الذبح التى ذكرناه . رواية مجاهد . التى ذكرت اسم إسحاق فى أولها - وفى تعليق كل من القرطبى والطبرى عليها . ذكر اسم إسماعيل . وأنه هو الذبيح فإذا أضفنا إلى هذه الروايات . رأى المؤرخين . بأن اسم إسحاق قد أقحمه اليهود فى روايات السدى وكعب الأحبار فإن حصيلة الروايات كلها ترجح أن يكون الذبيح هو إسماعيل . .

وعند تفسير قوله (تعالى) ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾. جاء فى أصل الفتوحات الإلهية (وهو تفسير الجلالين). قولهما: (وفديناه) أى المأمور بذبحه. وهو إسماعيل أو إسحاق قولان.. (بذبح): بكبش.. (عظيم) من الجنة.. هو الذى قربه هابيل. جاء به جبريل (عليه السلام). فذبحه السيد إبراهيم مكبرا)؟. ومما لا شك فيه أن كلمة (السيد). هاهنا. يقصد بها إبراهيم الخليل نبى الله.. ولكنها غير مناسبة. وهى أقل تقديرا من الوصف بالخليل ونبى الله وهى تشعر أنهما يتحدثان عن شخص أجنبى وليس عن خليل الله. الشخصية الأساسية فى القصة كلها. ولسنا ندرى لما اختارها (الجلالان). بدلا من إبراهيم الخليل. أو من سيدنا إبراهيم؟

ثم بعد أن سجل الجمل. أقوال من يرى أن الذبيح إسماعيل. ومن يرى أن الذبيح إسحاق نقلا عن القرطبى. والبيضاوى. والخازن وأبو السعود قال: نعم ورد عن النبى (ﷺ) أن الذبيح إسماعيل وتقدم أن الأول أولى عن النبى (ﷺ)...

ونقل عن الزجاج قوله: (الله أعلم أيهما الذبيح). وهذا مذهب ثالث. وهو الوقف عن الجزم بأحد القولين. وتفويض علم ذلك إلى الله (تعالى).. فإن هذه المسألة ليست من العقائد التى كلفنا بمعرفتها فلا نسأل عنها يوم القيامة. فهى مما ينفع علمه. ولا يضر جهله.. انتهى بتصرف)..

(رابعاً) عند ابن كثير

أما ابن كثير فكان على العكس من القرطبى والطبرى . . كان أشد يقينا بأن الذبيح إسماعيل . . ومع عنايته بتسجيل أسماء أصحاب الرأى الآخر فقد كانت أدلته ووجهة نظره غاية فى الصواب والإقناع وسوف أعرض كل ما جاء فى تفسيره مما يرتبط بهذا الموضوع .

أولا : يقول فى تفسيره لقوله (تعالى) من سورة الأنعام الآيات[1] ٨٣ - ٨٦

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كل هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ .

يذكر (تعالى) : أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن فى السن . وأيس هو وامرأته سارة من الولد فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحاق فتعجبت المرأة (يعنى سارة زوجة إبراهيم) من ذلك وقالت :

(١) تفسير القرآن العظيم / المجلد الثانى / الجزء السابع ص ١٤٧ - ١٤٩ .

﴿ قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذ لشئ عجيب.قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾[1].

فبشروهما ـ مع وجوده ـ بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً كما قال (تعالى):

﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ الآية ١١٢ من سورة الصافات. وهذا أكمل فى البشارة. وأعظم فى النعمة..

وقال: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ الآية ٧١ من سورة هود.

أى: ويولد لهذا المولود ولد فى حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده.. فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب.

ولما كان ولد الشيخ والشيخة (يعنى بهما إبراهيم وسارة) قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده يعقوب الذى فيه اشتقاق العقب والذرية.. وكان هذا مجازاة لإبرهيم (عليه السلام) حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله فى الأرض فعوضه الله (عز وجل) عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه. كما قال (تعالى) فى سورة مريم الآية ٤٩:

﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق

---

(١) الآيتان ٧٢ ـ ٧٣ من سورة هود.

ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾ وقال ههنا ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ﴾.

ولم يذكر ابن كثير في تفسيره لبقية آيات الأنعام هذه مايكن أن نستفيد منه في موضوع الذبح ولكنني أنبه إلى الأمور التالية:

(الأول): أن ابن كثير بلا شك قد التبس عليه الأمران: الهجرة والاعتزال، كما التبس على كل من القرطبي والطبري فوصف الأمرين معاً بالاعتزال فهما عندهم شئ واحد هو الاعتزال. والقوم الذين هجرهم ورحل عنهم إبراهيم هم القوم الذين اعتزلهم فلم يفرق ابن كثير بين القوم الذين هجرهم إبراهيم في (بابل) بالعراق والقوم الذين اعتزلهم في (حران) بالأرض المقدسة بالشام ولأنه جعل الهجرة اعتزالاً فقد جعل البشارة بإسحاق جزاء لإبراهيم من الله (سبحانه وتعالى) عن (هجرته) لقومه التي عبر عنها بالاعتزال في بابل بالعراق وعن اعتزاله للقوم في مهجره في (حران) بالأرض المباركة بالشام مع أن البشارة بإسحاق لم تكن إلا في نهاية المطاف بعد أن اعتزل القوم وما يعبدون من كواكب في (حران) بالأرض المباركة بالشام وكانت بالغلام العليم: إسحاق أما البشارة التي كانت جزاء من الله لإبراهيم كما هو تعبيرابن كثير حين هجر قومه وعشيرته في بابل بالعراق بعد محاولة إحراقه فقد كانت للمولود الأول قبل إسحاق وكانت استجابة من الله (عز وجل) لدعوة إبراهيم ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ وكانت بالغلام الحليم: إسماعيل.

(الثاني) أن ترتيب الأسماء في آيات الأنعام هذه ليس ترتيباً زمنياً تاريخياً كما هو واضح في الكثير منها وبالتالي فإن ذكر إسحاق قبل إسماعيل في هذه الآيات لا يعد دليلا على أن إسحاق أسبق في الوجود من إسماعيل وقد ذكرنا من قبل الأدلة على هذا مع الآيات الكريمة الموضحة لهذا الدليل.

(الثالث) أن إسحاق كما ذكر ابن كثير وهبه الله لإبراهيم وسارة بعد أن هاجر إبراهيم مع لوط إلى الأرض المباركة وبعد أن اعتزل إبراهيم قومه أيضاً أما إسماعيل فقد وهبه الله لإبراهيم بعد الهجرة أيضاً ولكن قبل الاعتزال فهو أسبق من إسحاق وابن كثير يؤكد هذه الأسبقية عند تفسيره لقوله (تعالى) في سورة مريم الآية (٧): ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾ حيث يقول: وهذا دليل على أن زكريا (عليه السلام) كان لا ولد له وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها بخلاف إبراهيم وسارة (عليهما السلام) فأنهما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل من (هاجر) بثلاث عشرة سنة.

ثانياً: ويقول في تفسيره لقوله (تعالى) من سورة هود الآيات من ٦٩ - ٧٣. ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾[1] يقول (تعالى): ﴿ ولقد جاءت رسلنا ﴾ وهم

(١) تفسير القرآن العظيم / المجلد الثاني / الجزء الثالث عشر ص ٤٣٥، ٤٣٦.

الملائكة (إبراهيم بالبشرى) قيل تبشره بإسحاق وقيل بهلاك قوم لوط ويشهد للأولى قوله (تعالى) ﴿ ولما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ ﴿ قالو سلاما قال سلام ﴾ أي: عليكم قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام (وأوجس منهم خيفة) وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه لهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ ﴿ قالوا لا تخف ﴾ أي: قالوا لا تخف منا إنا الملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ﴿ فضحكت ﴾ سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد اليأس وقال قتادة ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم في غفلة وقيل ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا وقال ابن حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا نصر بن علي حدثنا نوح بن قيس عن عثمان بن محيصن في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل ورفائيل قال: نوح بن قيس فزعم نوح بن شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرب إليهم العجل مسحه جبريل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال الحوفي عن ابن عباس فضحكت أي حاضت وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط وقول الكلبي: إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم ضعفا ووجدا

وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحاق يعقوب) أي: يولد لها ولد يكون له ولد وعقب ونسل. فإن يعقوب ولد إسحاق ومن هنا استدل - من استدل - بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل. وأنه يمتنع أن يكون إسحاق. لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه فيتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ولله الحمد.

ثالثاً: ويقول في تفسيره لقوله (تعالى) من سورة إبراهيم ٣٧-٣٩.

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء.الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾[1]

هذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها أي أنه يستجيب لمن دعاه وقد استجاب لي فيما سألته من الولد...

(١) تفسير القرآن العظيم / المجلد الثاني / الجزء الثالث عشر ص ٥٢٣.

ولم يقل ابن كثير شيئاً يمكن أن نستعين به فى قضية الذبيح وهو يفسر هذه الآيات ولكن كلام سيدنا إبراهيم ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ يتوافق مع كلامه فى أول الآيات ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ أفلا يؤكد هذا التوافق أن إسماعيل كان أسبق فى الوجود من إسحاق وأنه كان أول هبة الله بالولد لإبراهيم فكان أول ما بشر به من الأبناء؟

رابعـاً: ويقول فى تفسيره لقوله (تعالى) من سورة الحجر الآيات٥١: ٥٦

﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[1]

يقول (تعالى) وأخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ (قالوا لا توجل) أى لا تخف. ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ أى إسحاق (عليه السلام) كما تقدم فى سورة هود ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبما تبشرون ﴾ فأجابوا مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا

(١) تفسير القرآن العظيم/ المجلد الثانى/ الجزء الرابع عشر ص ٥٣٦.

تكن من القانطين ﴾ فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد وإن كان قد كبر واسنت أمرأته فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك) ..

أرجو أيها القارئ أن تحفظ هذا الكلام من تفسير ابن كثير حول الحوار الذى دار وكان بين إبراهيم والملائكة وبين سارة والملائكة حول البشارة بالغلام العليم إسحاق فسوف يأتى البشارة بالغلام الحليم لإبراهيم فقط وبدون حوار أو مناقشة بين إبراهيم أو أى أحد فما سر هذه الرغبة العظيمة من إبراهيم أن يهبه الله ولدا آخر مادام قد وهبه من قبل ابنا هو الغلام الحليم إسماعيل أفلا يكون توضيح أفلا يكون توضيحاً للسر فى هذا أن إسماعيل الغلام الحليم كان من هاجر وليس من سارة وكان بمكة وليس فى الشام وكان إبراهيم قد تركه فى مكة مع أمه وظل إبراهيم مع سارة فى الشام فهو من زوجة أخرى وبعيد عنه وكانت زوجه الأولى سارة تعانى من عدم الإنجاب أفلا يكون من المعقول أن يشتاق إبراهيم إلى وجود ابن آخر يكون بجواره فى الشام وتتوافق هذه الرغبة مع شدة شوق سارة إلى الولد ؟

خامساً : ويقول فى تفسير قوله (تعالى) من سورة مريم ٥٤ :

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾(١)

هذا ثناء من الله (تعالى) على إسماعيل بن إبراهيم الخليل

---

(١) تفسير القرآن العظيم / المجلد الثالث / الجزء السادس عشر ص ١٢٠، ١٢١.

(عليهما السلام) وهو والد عرب الحجاز كلهم . بأنه صادق الوعد قال ابن جريج لم يعد ربه عدة إلا أنجزها يعنى ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها وقال ابن جرير حدثنى يونس . أنبأنا ابن وهب . أخبرنى عمرو بن الحارث : أن سهل بن عقيل حدثه : أن إسماعيل النبى (عليه السلام) وعد رجلاً مكاناً . أن يأتيه فيه فجاء ونسى الرجل فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال ما برحت من ههنا ؟ قال : لا قال : إنى نسيت قال : لم أكن لأبرح حتى تأتينى فلذلك (كان صادق الوعد) وقال سفيان الثورى : بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه وقال ابن شوذب : بلغنى أنه اتخذ ذلك المكان مسكناً وقال بعضهم : إنما قيل له (صادق الوعد) لأنه قال لأبيه : ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق فى ذلك وقوله ﴿ وكان رسولا نبيا ﴾ فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة وقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله (ﷺ) قال : [إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل] وذكر تمام الحديث فدل على صحة ما قلناه .

وإذا كان ابن كثير لم يوضح المقصود من قول بعضهم : (إنما قيل له (صادق الوعد) لأنه قال لأبيه : ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ فإنه دل بهذا الصنيع على أن الذبيح هو إسماعيل حيث أن الآيات القرآنية الكريمة توضح أن هذا كان جواباً على سؤال إبراهيم لابنه :

﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ فكانت إجابة الابن: ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ وكأن ابن كثير يرى أن هذا أمر مسلم لا يحتاج إلى توضيح كما يذكر فى الآيات التالية:

سادساً: ويقول ابن كثير فى تفسير قوله (تعالى) من سورة الصافات الآيات من ٩٩ - ١١٣

﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين·رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم·فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين·فلما أسلما وتله للجبين·وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين·إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم·وتركنا عليه فى الآخرين·سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين·إنه من عبادنا المؤمنين·وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين·وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾[1].

يقول (تعالى) مخبرا عن خليله إبراهيم (عليه السلام) أنه بعدما نصره الله (تعالى) على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم. وقال: ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين ﴾ يعنى أولادا مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم قال الله (تعالى):

(١) تفسير القرآن العظيم / المجلد الرابع / الجزء الثالث والعشرون ص ١٥، ١٦، ١٧.

﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل (عليه السلام) فإنه أول ولد بشر به إبراهيم (عليه السلام) وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب بل فى نص كتابهم أن إسماعيل (عليه السلام) ولد ولإبراهيم (عليه السلام) ست وثمانون سنة وولد إسحاق وعمر إبراهيم (عليه السلام) تسع وتسعون سنة وعندهم أن الله (تبارك وتعالى) أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة أخرى: بكره فأقحموا ههنا - كذباً وبهتاناً - إسحاق ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم. وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا (وحيدك) بمعنى الذى ليس عندك غيره فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة. وهو تأويل وتحريف باطل فإنه لا يقال (وحيدك). إلا لمن ليس له غيره وأيضاً فإن أول ولد. له معزة ماليس لمن بعده من الأولاد. فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار.

ويقول ابن كثير وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكى ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة (رضى الله عنهم) أيضاً وليس ذلك فى كتاب ولا سنة وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب. وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل. فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح ثم قال بعد ذلك: ﴿ وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ وقال (تعالى):

﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أى : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل وقد قدمنا هناك : أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير لأن الله (تعالى) قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل . فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرًا . وإسماعيل وصف ههنا بالحليم . لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله (تعالى) : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه . وقد كان إبرهيم (عليه السلام) يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران (مكة) وينظر في أمرهما وقد ذكر : أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك والله أعلم . وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخرساني وزيد بن أسلم وغيرهم (فلما بلغ معه السعي) بمعنى شب وارتجل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) قال عبيد بن عمير رؤيا الأنبياء وحى ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه (قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى امض لما أمرك الله فى ذبحى ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ أى : سأصبر وأحتسب ذلك عند الله (عز وجل) وصدق (صلوات الله عليه) فيما وعد ولهذا قال الله (تعالى) ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا واذكر

(١) تفسير القرآن العظيم / المجلد الرابع / الجزء الثالث والعشرون ص ١٥، ١٦، ١٧.

فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ الآيات ٥٤ ـ ٥٦ من سورة مريم.

قال (تعالى) : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ أى فلما تشهدا وذكرا الله (تعالى) : إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت وقيل ﴿ أسلما ﴾ يعنى استسلما وانقادا : إبراهيم امتثل لأمر الله (تعالى) وإسماعيل طاعة لله وأبيه. قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن إسحاق وغيرهم : ومعنى (وتله للجبين) أى : صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه. قال ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد وسعيد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ﴿ وتله للجبين ﴾ أكبه على وجهه وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح ويونس : قالا : حدثنا حماد بن سلمة عن بن عاصم الغنوة عن أبى الطفيل عن ابن عباس (رضى الله عنهما) : أنه قال لما أمر إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) بالمناسك عرض له الشيطان عند السعى فسابقة فسبقه إبراهيم (عليه السلام) ثم ذهب به جبريل (عليه السلام) إلى جمرة العقبة. فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات. وثمَّ تله للجبين وعلى إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) قميص أبيض فقال له يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره فأخلعه حتى تكفننى فيه فعالجه ليخلعه فنودى من خلفه : (أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس : لقد رأيتنا

نتتبع ذلك بالضرب من الكباش. وذكر هشام الحديث عن المناسك بطوله، ثم رواه أحمد بطوله عن يونس عن حماد بن سلمة. عن عطاء بن السائب. عن سعيد بن جبير. عن ابن عباس (رضى الله عنهما) فذكر. إلا أنه قال: إسحاق. فعن ابن عباس (رضى الله عنهما) فى تسمية الذبيح روايتان والأظهر عنه إسماعيل. لما سيأتى بيانه إن شاء الله (تعالى).

وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار عن قتادة عن جعفر ابن إياس. عن ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قوله (تبارك وتعالى): ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً فأرسل إبراهيم (عليه السلام) ابنه واتبع الكبش فأخرجه إلى الجمرة الأولى. فرماه بسبع حصيات. ثم أفلته فعندها. فجاء إلى الجمرة الوسطى فأخرجه عندها. فرماه بسبع حصيات. ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى. فرماه بسبع حصيات. فأخرجه عندها. ثم أخذه فأتى به المنحر من منى فذبحه فوالذى نفس ابن عباس بيده: لقد كان أول الإسلام. وأن رأس الكبش. لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة حتى وحش. يعنى يبس)... هذا الكلام عن رمى الكباش بسبع حصيات. عند كل جمرة من الجمرات الثلاث... وإفلات الكبش من إبراهيم عند كل جمرة. عجيب غريب وغير معقول. لأن الذى رماه إبراهيم بسبع حصيات عند كل جمرة. هو الشيطان وليس الكبش... ولأن الكبش أرسله الله إلى إبراهيم ليذبحه ويفتدى به ابنه. ولا بد - تنفيذاً لأمره - أن لا يفلت الكبش من إبراهيم عند ذبحه. بل



يستسلم تنفيذا لأمر الله وأغلب الظن أن الأمر التبس على راوى الحديث أو حدث اضطراب فى سياق الروايات عند طبع الكتاب والله أعلم[1].

وقال عبدالرزاق : أخبرنا معمر عن الزهرى : أخبرنا القاسم . قال : اجتمع أبو هريرة وكعب فجعل أبو هريرة (رضى الله عنه) يحدث عن النبى (ﷺ) وجعل كعب يحدث عن الكتب وذكر الحديث كما مر بنا فى الفتوحات الإلهية للجمل .

يقول ابن كثير : (وقال ابن حاتم : حدثنا عبدالرحمن بن زيد بن أسلم من أبيه . عن عطاء بن يسار . عن أبى هريرة . قال رسول الله (ﷺ) : [إن الله (تبارك وتعالى) خيرنى بين أن يغفر لنصف أمتى . وبين أن يجيب شفاعتى . فاخترت شفاعتى ، ورجوت أن تكفر الجم لأمتى ، ولولا الذى سبقنى إليه العبد الصالح ، لتعجلت فيها دعوتى ، إن الله (تعالى) لما فرّج عن إسحاق ، كرب الذبح ، قيل له يا إسحاق سل تعط فقال : أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها ، قبل نزغات الشيطان ، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاغفر له ، وأدخله الجنة] . هذا حديث غريب منكر . وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث وأخشى أن يكون فى الحديث زيادة مدرجة . وهى قوله : إن الله (تعالى) لما فرج عن إسحاق إلى آخره . والله أعلم . فهذا إن كان محفوظـاً . فالأشبه أن السياق إنما هو عن

---

(١) انظر رواية ابن عباس التى ذكرها القرطبى فى المجلد ٨ جـ١٥ ص ١٠٦ والتى رواها الطبرى فى المجلد ١٠ جـ ٢٣ ص ٥١ وانظر رواية ابن عباس أيضا التى ذكرها الطبرى فى المجلد ١٠ جـ ٢٣ ص ٥٦ .

إسماعيل وإنما حرفوه بإسحاق. حسداً منهم كما تقدم وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة حيث كان إسماعيل لا إسحاق فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله (تعالى): ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ أى قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدى وغيره: أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ونودى إبراهيم (عليه الصلاة السلام) عند ذلك ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل. خلافا لطائفة من المعتزلة. والدلالة من هذا ظاهرة. لأن الله (تعالى) شرع لإبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ذبح ولده. ثم نسخه عنه[1] وصرفه إلى الفداء وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده. وعزمه على ذلك. وقوله (تعالى): ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ يعود إليه ابن كثير مرة أخرى. فيذكر لابن عباس أربع روايات هي:

١ ـ وقال الثورى أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير. عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: كبش قد رعا في الجنة أربعين خريفا.

٢ ـ وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا يوسف بن يعقوب

(١) مر الحديث عن هذا وتوضيح المراد به فيما سبق.

الصنار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: الصخرة بمنى. بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه. هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق.

٣ - وقال هشيم عن يسار عن عكرمة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفديه بكبش لأجزاه أن يذبح كبشاً. فإن الله (تعالى) قال في كتابه: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾.

٤ - وقال الثورى عن رجل عن أبى صالح عن ابن عباس في قوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال: وعل...

ويضيف ابن كثير إلى روايات ابن عباس. روايات أخرى. هى:

١ - قال سفيان الثورى عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي (رضي الله عنه) ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل: وجدوه مربوطاً بسمرة في ثبير.

٢ - وروى أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر.

٣ - وعن الحسن البصري. أنه قال: كان اسم كبش إبراهيم (عليه الصلاة والسلام): جرير.

٤ ـ وقال ابن جريج : قال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام .

٥ ـ وقال مجاهد : ذبحه بمنى عند المنحر .

٦ ـ وقال محمد بن إسحاق . عن عمرو بن عبيد عن الحسن : أنه كان يقول : مافدى إسماعيل (عليه السلام) إلا بتيس من الأروى . أهبط عليه من ثبير .

٧ ـ وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان حدثني منصور . عن خاله مسافع . عن صفية بنت شيبة . قال : أخبرتني امرأة من بنى سليم . ولدت عامة أهل دارنا : أرسل رسول الله (ﷺ) إلى عثمان بن طلحة (رضى الله عنه) وقالت مرة أنها سألت عثمان : لم دعاك النبى (ﷺ) قال : قال لى رسول الله (ﷺ) : [إنى كنت رأيت قرنى الكبش، حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرها فخمرها، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شئ يشغل المصلى] قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا . وهذا دليل مسقل . على أنه إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) فإن قريشاً . توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم خلفا من سلف . وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله (ﷺ) .

بعد هذا كله ذكر ابن كثير الآثار الواردة عن السلف فى أن الذبيح إسحاق . يقول : ذكر من قال هو إسحاق (عليه الصلاة والسلام) :

قال حمزة الزيات عن أبى ميسرة (رحمه الله) قال قال يوسف (عليه الصلاة والسلام) للملك فى وجهه : ترغب أن تأكل معى

وأنا والله يوسف بن يعقوب نبى الله ابن اسحاق ذبيح ابن إبراهيم خليل الله .

وقال الثورى عن أبى سنان . عن ابن أبى الهذيل : أن يوسف (عليه السلام) قال للملك كذلك أيضاً ـ وفيما أرى فإن يوسف لا يقول بمثل هذا الكلام نظراً إلى ما يحمله من مشاعر التعالى والتكبر ـ وقال سفيان الثورى عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير . عن أبيه . قال : قال موسى (عليه الصلاة والسلام) : يارب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بى شئ قط إلا اختارنى عليه . وإن إسحاق جادلنى بالذبح وهو بغير ذلك أجود . وإن يعقوب كلما زدته بلاء . زادنى حسن ظن .

وقال شعبة عن أبى إسحاق . عن أبى الأحوص . قال : افتخر رجل عند ابن مسعود (رضى الله عنه) فقال : أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام . فقال عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله وهذا صحيح عن ابن مسعود (رضى الله عنه) وكذا روى عكرمة عن ابن عباس (رضى الله عنهما) : أنه إسحاق .

وعن أبيه العباس مثل ذلك . وعلى ابن أبى طالب . وكذا قال عكرمة . وسعيد بن جبير ومجاهد . والشعبى . وعبيد بن عمير وأبوميسرة . وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق . والزهرى .

والقاسم بن أبي بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدى. والحسن وقتادة. وأبو الهزيل. وابن سابط.

وهذا اختيار جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار: أنه إسحاق. وهكذا روى ابن إسحاق. عن ابن العلاء بن جارية عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن كعب الأحبار: أنه قال: هو إسحاق. يقول ابن كثير: وهذه الأقوال. والله أعلم. مأخوذة عن كعب الأحبار. فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر بن الخطاب عن كتبه قديماً فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ماعنده ونقلوا ما عنده عنه: غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة. والله أعلم. حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

وقد حكى البغوى: القول بأنه إسحاق. عن عمر وعلى. وابن مسعود والعباس (رضى الله عنهم) ومن التابعين: عن كعب بن الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهرى والسدى قال وهى إحدى الروايتين عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وقد ورد في ذلك حديث. لو ثبت لقلنا به على الرأس ولكن لم يصح سنده قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب. حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن على بن زيد بن جدعان. عن الحسن. عن الأحنف بن قيس. عن العباس بن عبدالمطلب (رضى الله عنه) عن النبى (ﷺ) فى حديث ذكره قال: (هو إسحاق) ففى سنده ضعيفان وهما. الحسن بن دينار البصرى (متروك). وعلى بن زيد بن جدعان. (منكر الحديث). وقد رواه ابن أبى حاتم

عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس (رضى الله عنه) وهذا أشبه وأصح والله أعلم.

ثم ذكر ابن كثير الآثار الواردة بأنه إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) ويقول فى بدايتها (وهو الصحيح المقطوع به) يقول ابن كثير: قد تقدمت الرواية عن ابن عباس (رضى الله عنهما): أنه إسحاق (عليه الصلاة والسلام) والله (تعالى) أعلم.

وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبى. ويوسف بن مهران. ومجاهد. وعطاء. وغير واحد. عن ابن عباس (رضى الله عنهما) هو إسماعيل (عليه الصلاة والسلام).

وقال ابن جرير: حدثنى يونس. أخبرنا ابن وهب. أخبرنى عمرو ابن قيس. عن عطاء بن أبى رباح.

عن ابن عباس: أنه قال: المفدى إسماعيل (عليه السلام). وزعمت اليهود. أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن عمر (رضى الله عنهما). قال الذبيح إسماعيل.

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد: هو إسماعيل (عليه الصلاة والسلام). وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبى: هو إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) وقد رأيت

قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق البصري : أنه كان لايشك في ذلك : أن الذى أمر بذبحه . من ابني إبراهيم . إسماعيل (عليه السلام) قال ابن إسحاق : وسمعت محمد بن كعب القرظي . وهو يقول : إن الذى أمر الله (تعالى) إبراهيم بذبحه من ابنه : إسماعيل . وأنا لنجد ذلك في كتاب الله (تعالى) . وذلك أن الله (تعالى) حين فرغ من قصة المذبوح . من ابني إبراهيم قال الله (تعالى) : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ويقول الله (تعالى) : ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ يقول بابن وابن ابن . فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل . قال ابن إسحاق : سمعته يقول ذلك كثيراً وقال ابن إسحاق . عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي : أنه حدثهم : أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز . (رضى الله عنه) . وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال لعمر : إن هذا لشئ ماكنت أنظر فيه . وأنى لأراه كما قلت . ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى : أنه من علمائهم . فسأله عمر بن عبدالعزيز (رضى الله عنه) عن ذلك قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر عبدالعزيز . فقال له عمر : أى ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله ياأمير المؤمنين . وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب . على أن يكون أباكم . الذى كان من أمر الله فيه . والفضل الذى ذكر (تعالى) منه . لصبره لما أمر به . فهم يجحدون ذلك . ويزعمون أنه إسحاق . لأن إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان

وكل قد كان طاهراً طيبًا مطيعًا لله (عز وجل).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله): سألت أبي عن الذبيح؟ هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال لإسماعيل. ذكره في كتاب الزهد.

وقال ابن حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل (عليه الصلاة والسلام).

قال (ابن أبي حاتم): وروى عن علي وابن عمر. وأبي هريرة. وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر. محمد بن علي. وأبي صالح (رضي الله عنهم) أنهم قالوا الذبيح إسماعيل. وقال البغوي. في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر. وسعيد بن المسيب. والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع ابن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس. وحكاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

معنى هذا كله: أن جميع من قالوا أن الذبيح إسحاق روى عنهم أنهم قالوا: إنه إسماعيل وابن كثير لم ينبه إلى هذ وترك للقارئ أن يلاحظ بنفسه. مايريد أن يثبته من أن الرأي بأن الذبيح إسماعيل هو الأقوى والأصح وهو المقطوع به كما قال ابن كثير في بداية كلامه. ثم يقول (وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي. حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبدالرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد

العتبى من ولد عتبة بن أبى سفيان عن أبيه . حدثنى عبد الله بن سعيد الصناجى قال كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال : على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله (ﷺ) فجاءه رجل . فقال يا رسول الله عد على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين . فضحك رسول الله (ﷺ) فقيل له يا أمير المؤمنين . وما الذبيحان ؟ فقال : إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم . نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه . ليذبحن أحد ولده . قال : فخرج السهم على عبد الله . فمنعه أخواله . وقالوا : افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل . والثانى إسماعيل).

يقول ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً . وقد رواه الأموى فى مغازيه : حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبى كريمة . حدثنا عمرو بن عبدالرحمن القرشى . حدثنا عبيد الله بن محمد العتبى من ولد عتبة بن أبى سفيان . حدثنا عبد الله بن سعيد . حدثنا الصناجى . قال حضرنا مجلس معاوية (رضى الله عنه) فتذكر إسماعيل أو إسحاق . وذكره . كذا كتبته من نسخة مغلوطة . وإنما عول جرير فى اختياره أن الذبيح إسحاق . على قوله (تعالى) : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ فجعل هذه البشارة . هى البشارة بإسحاق . قوله (تعالى) : ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ . وأجاب عن البشارة بيعقوب : بأنه قد كان بلغ معه السعى . أى : العمل . ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد . مع يعقوب أيضاً قال : وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة . فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان . قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق . هناك . . .

هذا ما اعتمد عليه فى تفسيره. وليس إلا بمذهب. ولا لازم. بل هو بعيد جداً. والذى استدل به محمد كعب القرظى. على أنه إسماعيل. أثبت وأصح. وأقوى والله أعلم.

يقول ابن كثير: وقوله (تعالى): ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل. عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق. وقوله ﴿ نبيا ﴾ حال مقدرة. أى سيصير منه نبى صالح. وقال ابن عباس. فيما رواه عكرمة. بشر بنبوته. وفى رواية أخرى عن ابن عباس قال: بشر به حين ولد. وحين نبئ...

خامساً: عند فخر الدين الرازى

أما كتاب «مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازى. فقد كان أكثر إنصافا لمن يقول بأن الذبيح إسماعيل..

يقول عند تفسير قوله (تعالى) فى سورة مريم[1] ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ : اعلم أن إسماعيل هذا هو إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) واعلم أن الله (تعالى) وصف إسماعيل (عليه السلام) بأشياء: أولها قوله (تعالى): إنه كان صادق الوعد. وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد منه. فيما بينه وبين الله (تعالى) ويمكن أن يكون المراد منه فيما بينه وبين الناس... أما الأول. فهو أن يكون المراد. أنه كان لا يخالف شيئـاً. مما يؤمر به. من طاعة ربه... أما الثانى: فهو أنه (عليه السلام) كان إذا وعد الناس بشئ. أنجز وعده. وأيضـاً وعد من نفسه الصبر على الذبح. فوفى به. حيث قال «فى سورة الصافات» ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾...

ويقول. عند تفسير قوله (تعالى) فى سورة الأنبياء[2]: ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ : اعلم أنه (تعالى) لما ذكر صبر أيوب (عليه السلام) وانقطاعه إليه اتبعه بذكر هؤلاء. فإنهم كانوا أيضـاً. من الصابرين على الشدائد

(١) مفاتيح الغيب/ سورة مريم/ الآية ٥٤.
(٢) مفاتيح الغيب/ سورة الأنبياء/ الآية ٨٥.

والمحن. والعبادة. أما إسماعيل (عليه السلام) فلأنه صبر على الانقياد والذبح. وصبر على المقام ببلد. لا زرع فيه. ولا ضرع. ولا بناء.. وصبر فى بناء البيت الحرام. فلا جرم أكرمه الله (تعالى) وأخرج من صلبه خاتم النبيين..

ويقول عند تفسيره لقوله (تعالى) فى سورة الصافات: ﴿وقال: إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم﴾: قيل: إن المقصود من هذه الآية. بيان مهاجرته إلى أرض الشام... فإن قيل إبراهيم (عليه السلام) جزم فى هذه الآية. بأنه (تعالى) سيهديه. وأن موسى (عليه السلام) لم يجزم به. بل قال: ﴿عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل﴾ فى سورة القصص. قلنا: العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله. فقد يجزم بحصول المقصود.. وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن الصالحين. فحينئذ يستحقر نفسه. فلا يجزم. بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع. ويقول واعلم أنه (صلوات الله عليه) لما هاجر إلى الأرض المقدسة. أراد الولد. فقال: ﴿هب لى من الصالحين﴾ أى: هب لى بعض الصالحين. يريد الولد. لأن لفظ الهبة تغلب فى الولد.. واعلم أن هذا الدعاء. اشتمل على ثلاثة أشياء: على أن الولد. غلام. ذكر. وأنه يبلغ الحلم.. وأنه يكون حليماً... وأى حلم يكون أعظم من ولد. حين عرض عليه أبوه الذبح. فقال: ﴿ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ سورة الصافات. ثم استسلم لذلك..

وقوله (تعالى): ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾. اعلم أنه (سبحانه

وتعالى). لما قال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ اتبعه بما يدل على حصول ما بشر به. وبلوغه فقال: ﴿فلما بلغ معه السعى﴾ ومعناه: فلم أدرك وبلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى. قال بعضهم: كان في ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة والمقصود من هذا الكلام. أن الله (تعالى) لما وعده فى الآية الأولى يكون ذلك الغلام حليما بين فى هذه الآية مايدل على كمال حلمه. وذلك لأنه كان من كمال الحلم وفسحه الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة والإتيان بذلك الجواب الحسن ثم يقول الرازى: اختلفوا فى أن هذا الذبيح من هو؟

فقيل إنه إسحاق. وهذ قول عمر. وعلى. والعباس بن عبدالمطلب وابن مسعود. وكعب الأحبار. وقتادة. وسعيد بن جبير. ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل (رضى الله عنهم).

وقيل إنه إسماعيل وهو قول: ابن عباس وابن عمر وسعيد ابن المسيب والحسن والشعبى ومجاهد والكلبى.

واحتج القائلون بأنه إسماعيل. بوجوه:

(الأول) أن رسول الله (ﷺ) قال: [أنا ابن الذبيحين].

وقال له أعرابى: [يا ابن الذبيحين. فتبسم. فسئل عن ذلك فقال: [إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم. نذر لله. لئن سهل الله له أمرها. ليذبحن أحد ولده. فخرج السهم على عبد الله. فمنعه أخواله. وقالوا له: افد ابنك مائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والذبيح الثانى إسماعيل].

(الحجة الثانية) نقل عن الأصمعي: أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء. عن الذبيح فقال: يا أصمعي أين عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه. والمنحر بمكة؟

(الحجة الثالثة) أن الله (تعالى) وصف إسماعيل بالصبر. دون إسحاق فى قوله ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾ فى سورة الأنبياء. وهو صبره على الذبح ووصفه أيضا بصدق الوعد فى قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ فى سورة مريم لأنه وعد أباه من نفسه البر على الذبح فوفى.

(الحجة الرابعة) قوله: ﴿فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ من سورة هود الآية ٧١.

فنقول لو كان الذبيح إسحاق. لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه. أو بعد ذلك. فالأول باطل. لأنه (تعالى) لما بشره بإسحاق. وبشرها معه. بأنه يحصل منه يعقوب. فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه وإلا حصل الخلف فى قوله: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ والثانى باطل لأن ﴿فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك﴾ يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعى ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله (تعالى) إبراهيم بذبحه. وذلك ينافى وقوع هذه القصة فى زمان آخر. فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحاق.

(الحجة الخامسة) : حكى الله (تعالى) عنه. أنه قال: ﴿إني ذاهب إلى ربى سيهدين﴾ ثم طلب من الله (تعالى) ولداً. يستأنس به فى غربته. فقال: ﴿رب هب لى من الصالحين﴾. وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد. لأنه لو حصل له ولد واحد. لما طلب الولد الواحد. لأن طالب الحاصل محال... وقوله: ﴿هب لى من الصالحين﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد. فثبت أن هذا السؤال. لا يحسن. إلا عن عدم كل الأولاد. فثبت أن هذ السؤال وقع حال طلب الولد الأول. وأجمع الناس. عل أن إسماعيل. متقدم فى الوجود على إسحاق. فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء. هو إسماعيل..

ثم إن الله (تعالى) ذكر عقيبه. قصة الذبيح. فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل.

(الحجة السادسة) الأخبار الكثيرة. فى تعليق قرنى الكبش بالكعبة. فكان الذبح بمكة. ولو كان الذبيح إسحاق. لكان الذبح بالشام.

واحتج من قال: إن ذلك الذبيح هو إسحاق. بوجهين:

(الوجه الأول) أن أول الآية وآخرها. يدل على ذلك.. أما أولها. فإن الله (تعالى) حكى عن إبراهيم (عليه السلام) قبل هذه الآية - أى أنه قال: ﴿إنى ذاهب إلى ربى سيهدين﴾ وأجمعوا على أن المراد منه. مهاجرته إلى الشام. ثم قال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ فوجب أن يكون هذ الغلام. ليس إلا إسحاق. ثم قال

بعده: ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ وذلك يقتضى أن يكون المراد من هذا الغلام. الذى بلغ معه السعى. هو ذلك الغلام الذى حصل فى الشام.، فثبت أن مقدمة الآية. تدل على أن الذبيح هو إسحاق...
وأما آخر الآية. فهو أيضاً يدل على ذلك. لأنه (تعالى) لما تمم قصة الذبيح. قال بعده: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾.
ومعناه: أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين.

وذكر هذه البشارة. عقيب حكاية تلك القصة. يدل على أنه تعالى. إنما بشره بهذه النبوة. لأجل أنه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبح.. فثبت بما ذكرنا: أن أول الآية وآخرها. يدل على أن الذبيح هو إسحاق (عليه السلام).

(الوجه الثانى) ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف (عليه السلام) وجاء فيه: من يعقوب إسرائيل نبى الله. ابن إسحاق ذبيح الله. ابن ابراهيم (خليل الله) فهذه جملة الكلام فى هذا الباب...
وهذا ماقصدت إليه. حين قلت فى بداية كلام الفخر الرازى أنه كان أكثر إنصافاً لمن يقول إن الذبيح إسماعيل بينما عرض لحجتين فقط. لمن قال أن الذبيح إسحاق. ومع أن دمغ هاتين الحجتين أمر ميسور للغاية. إلا أن الرازى لم يرد عليهما. واكتفى عن الرد بتوضيح لمعنى قوله (تعالى) ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾.. مما يعد حجة سابعة لمن يقول بأن الذبيح إسماعيل.
يقول: فقوله: ﴿ نبيا ﴾ حال مقدرة. أى بشرناه بوجود إسحاق مقدرة نبوته ولمن يقول: الذبيح هو إسماعيل أن يحتج بهذه الآية

لأن البشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبح فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق.

هذا جميع ما ورد في كتاب «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي.

ولقد رأيت إلى جانب ما ذكره الرازي أن أرد على الحجتين اللتين ساقهما لمن يقول: إن الذبيح إسحاق.

يقول في الحجة الأولى: حكى عن إبراهيم أنه قال: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ واجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام. ثم قال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وذلك يقتضي أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق.

ولم يقل أصحاب هذه الحجة لماذا يقتضي ذلك أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق؟ ونقول لهم كذلك: ولم لا يقتضي أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسماعيل؟ لقد طلب إبراهيم من ربه أن يهبه ولدا من الصالحين. عقب قوله (إني مهاجر إلى ربي سيهدين).. وكان أن بشره الله بغلام حليم. فلماذا يكون مقتضى هذا أن يكون الغلام الحليم هو إسحاق. ولا يكون إسماعيل؟ ما الذي حتم أن يكون المقتضي لذلك أن يكون الغلام الحليم هو إسحاق؟ لم يخبرنا أحد من أصحاب هذه الحجة بهذا. وذلك في تقديرنا لأنهم لم يجدوا شيئا مقنعا يوثقون به حجتهم. بل العكس هو الصحيح. لأن إسماعيل هو الذي بشر الله به إبراهيم أولاً. وهو أسبق في الوجود من إسحاق فينبغي أن يكون هو الغلام الحليم ويتعين أن يكون هو الذبيح لا إسحاق. وقد بطل لدى جميع المؤرخين والمفسرين والمحدثين. أن يكون الغلام الذي بشر به إبراهيم

أول بشارة هو إسحاق حتى بعض كتب اليهود تقرر ذلك . كما مر بنا أكثر من مرة .

هذا بالنسبة لأول الآية كما يقولون أما عن آخر الآية فإنها حجة عليهم وليست حجة لهم وباعترافهم هم أنفسهم . حيث قالوا : (لأنه تعالى لما تمم قصة الذبح) قال بعده : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ فإن محاولة الذبح تحتاج إلى ذبيح والبشارة بعد هذه المحاولة بغلام . تحتاج إلى مولود جديد . هذا غلام وذلك غلام الغلام الذبيح غير الغلام الذى بشر الله به إبراهيم ثانياً . والأول هو الذى كان أسبق في الوجود . لأنه أول ما بشر به إبراهيم لقد حدثت قصة الذبح أولا . ثم بشر الله إبراهيم بإسحاق ثانيا أى : أن إسحاق لم يولد إلا بعد قصة الذبح . وعليه . فإن الذبيح لا بد أن يكون موجودا قبل ميلاد إسحاق وليس ذلك إلا إسماعيل . أما الحجة الثانية التى تعتمد على ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف . . وجاء فيه : من يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ، فإن المشتهر لاينهض دليلا يقينا لمجرد أنه اشتهر ، ويحتاج إلى أن يكون موجودا فى سجل المؤرخين والمفسرين والرواة . وليس الأمر هكذا فى الكتاب . .

ثم إن كلام الفخر الرازى فى (الحجة الخامسة) .

(حكى الله (تعالى) عنه - أى : إبراهيم - أنه قال : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ . ثم طلب من الله (تعالى) ولدا يستأنس به فى غربته . فقال : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ .

هذ الكلام يدل على أن الفخر الرازى . قد تنبه ـ على العكس من القرطبى والطبرى وابن كثير والجمل ـ إلى أن هجرة إبراهيم . كانت أول تصرف منه . لمفارقة وطنه . فى بابل بالعراق . ومفارقة قومه وعشيرته فيها . إلى وطن آخر جديد . فى (حران) بالأرض المباركة . فى الشام . ليس له فيه أنيس يأنس إليه . مما جعله يتوجه إلى الله بالدعاء . أن يهبه من الصالحين . ولدا يستأنس به . فى غربته .

وهو بهذا . يكون قد وضح لديه . أن هذه الهجرة . وما تبعها من البشارة بالغلام الحليم ـ بعد فترة من الزمن ـ كانت أسبق من اعتزال إبراهيم لقومه . فى وطنه الجديد . وما تبعه من البشارة بالغلام العليم . بعد فترة من الزمن . .

وما دام الغلام الحليم . هو الذى رأى والده إبراهيم أن يذبحه .

وما دامت البشارة بالغلام العليم كانت متأخرة عن البشارة بالغلام الحليم . وما دام الغلام العليم هو إسحاق .

فإنه يتعين أن يكون إسماعيل هو الغلام الحليم .

ويتعين أن يكون الذبيح هو إسماعيل .

كذلك . فإن قول الفخر الرازى . فى تلك الحجة الخامسة :

(وهذا السؤال : ﴿رب هب لى من الصالحين﴾ . إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد . لأنه لو حصل له ولد واحد . لما طلب الولد الواحد . لأن طلب الحاصل محال) . . .

هذا الكلام للفخر الرازى . يؤكد ما قلناه ـ فيما سبق ـ من أن

إبراهيم. لو كان قد أنجب (إسحاق) من (سارة) قبل أن ينجب (إسماعيل) من (هاجر). فإنه لن يكون هناك ما يدعو (سارة) إلى أن تتآمر مع إبراهيم. لكي يدخل بهاجر. أملاً في أن تنجب من إبراهيم ولدا تقر به عين سارة وإبراهيم، ولن تكون هناك - أيضاً - ضرورة - ملحة. في أن يتوجه إبراهيم إلى الله بالدعاء لكي يهبه ولدا من الصالحين...

كما يؤكد هذا الكلام. مرة ثانية. أن هذا الدعاء. كان أول توجه من إبراهيم. إلى الله. أن يهبه الولد.. وأنه - في هذا الوقت - الذى توجه فيه إلى الله بهذا الدعاء - لم يكن قد أنجب إسحاق.. لأن البشارة بإسحاق. كانت بالغلام العليم. وهى متأخرة عن البشارة بالغلام الحليم...

فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء. هو إسماعيل..

ووجب أن يكون الذبيح إسماعيل.. كما يقول الفخر الرازى.. والله أعلم...

وهذا الكتاب يجمع بين المأثور . والمعقول . والمستمد من أوثق كتب التفسير .

وجاء اختياره . لما جاء فى هذا الكتاب . مدعماً بالتسلسل التاريخى . للأحداث . فى حياة إبراهيم . كما جاء فى القرآن الكريم من سورة الصافات هكذا [1] :

(١) قال (تعالى) : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ لما نجاه الله من النار وخلصه من كيد الفجار . هجر قومه واعتزلهم . والمعنى إنى مهاجر من بلد قومى إلى حيث أمرنى ربى .

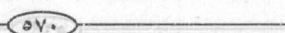
قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق . مع سارة إلى أرض الشام . كما جاء فى تفسير القرطبى .

(٢) وقال (تعالى) : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ أى : ارزقنى ولداً من الصالحين . يؤنسنى فى غربتى قال ابن كثير .

يريد أولاداً مطيعين يكونوا عوضاً عن قومه وعشيرته . الذين فارقهم .

(٣) وقال (تعالى) : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ أى : فاستجبنا دعاءه . وبشرناه بغلام يكون حليماً فى كبره .

قال أبو السعود فى تفسيره : جمع الله فيه بشارات ثلاث : بشارة


(١) صفوة التفاسير / الجزء الثالث والعشرون ص ٣٩ : ٤١ .



أنه غلام. وأنه يبلغ أوان الحلم. وأنه يكون حليماً. لأن الصغير لا يوصف بذلك. وأى حلم يعادل حلمه (عليه السلام) حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ وجمهور المفسرين كما يقول صفوة التفاسير على أن هذا الغلام المبشر به هو إسماعيل. لأن الله (تعالى) قال بعد تمام قصة الذبح: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل.

(٤) وتأتى قصة الذبح بعد قوله (تعالى): ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ هكذا[١].

(أ) ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾.

(ب) ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾.

(ج) ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾.

(د) ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾.

(هـ) ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾.

وينقل صفوة التفاسير عن حاشية الصاوى على الجلالين:

قال الصاوى: والحكمة فى هذه القصة: أن إبراهيم اتخذه الله

(١) الآيات ١٠٢ - ١٠٧ من سورة الصافات.

(تعالى) خليلاً فلما سأل ربه الولد . ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده . فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة .

فامتثل لأمر ربه . وقدم محبته على محبة ولده .

(٥) ثم تأتى بعد هذا التسلسل الزمنى التاريخى : البشارة بإسحاق . ذلك حيث يقول الله (تعالى) : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ يقول فى صفوة التفاسير . كما ينقل عن مختصر ابن كثير : (وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة هو إسحاق الذى سيكون نبياً) قال ابن عباس :(بشر بنبوته حين ولد وحين نبئ) وتكاد الآية صريحة فى أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق . . .

بعد ان استعرضنا أقوال بعض المؤرخين . وبعض المفسرين . وشرح ابن حجر فى صحيح البخارى نستطيع أن نقرر :

أن ماذهب إليه ابن كثير . والفخر الرازى . هو أصح وأصدق . وأقوى . هذه الأقوال . . وأولاها بالرضا . والإقناع . والقبول . .

وخلاصة ما أثير وما نقلنا عن هؤلاء جميعاً :

أن الناس انقسموا إلى فريقين :

(١) فريق يرى أن الذبيح إسماعيل .

(٢) وفريق يرى أن الذبيح إسحاق .

والفريقان ـ فى المحصلة النهائية لا يتساويان ولا يتعادلان . .

لأنـه ـ من الواضـح الجلى ـ أن حجـج الفـريق الأول أقـوى . . وأكثر . . وأوضح . . وقد استندت على نصوص القرآن الكريم . . وعلى روايات حديث عن رسول الله (ﷺ) وعلى ماجاء فى كتب أهل الكتاب .

إلى جانب أن الفريق الثانى يرى معظم أصحابه ـ فى رواية ثانية لأكثرهم ـ أن الذبيح إسماعيل . . إلى جانب أن مصادر آرائهم وأقوالهم كانت روايات مدسوسة ملفقة لبعض أهل الكتاب .

وعلى هذا . . فإن القول : بأن الذبيح هو إسماعيل . يكون أكثر رجحانا . من القول الثانى . . .

وكما قلنا . فنحن لا نتهم أحداً من المؤرخين . أو المحدثين . أو المفسرين . بتعمد ـ التحيز ـ أو تعمد إخفاء الحقائق . أو طمس معالم الصواب .. فليست قضية للفوز والامتياز . لأنها بين نبيين لله (تعالى) لهما فى نفوسنا ـ نحن المسلمين ـ كل الإجلال والتقدير . والتوقير ، والتكريم .. وما ينقص من مقدار ما تكنه نفوسنا نحن المسلمين . من الحب والتبجيل لهما .. والإيمان بهما وبدعوتهما ورسالتهما .. أن يكون أحدهما هو الذبيح .. وإنما هى محاولة للوصول إلى الحقيقة فى هذا الموضوع .

لا ندعى أبداً أننا استطعنا بها أن تصل إلى فصل الخطاب . فى تحديد اسم الذبيح .. لأن ذلك أولاً وأخيرا .. فى علم الله وحده . لا شريك له .. ولكننا رجحنا أن يكون هو إسماعيل . أبو العرب والمسلمين . للأسباب والأدلة التالية :

الدليل الأول : اعتمد عليه جميع المفسرين . والمحدثين . والمؤرخين حسب ترتيب الأحداث كما جاءت فى الآية الكريمة . من سورة الصافات (من ٨٣ إلى ١١٣) يقول الله (تعالى) : ﴿ وإن من شيعته ـ أى : من شيعة نوح ـ لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ... إلى قوله (تعالى) ... ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .. فالبشارة بإنجاب (إسحاق) من (سارة) . إنما جاءت بعد أن أنجبت (هاجر) (إسماعيل) وبعد أن رأى إبراهيم فى المنام : أنه يذبح ابنه ولم يكن له أبناء حينئذ إلا إسماعيل واستجاب هذا الابن لرؤيا أبيه وذهب معه إلى الجبل فى مكة لتنفيذ هذه الرؤيا فافتدى الله هذا

الابن من الذبح بكبش عظيم مما يستحيل معه أن يكون هذا الابن الذبيح إسحاق ويتعين أن يكون إسماعيل.

الدليل الثاني: استنبطه الشيخ عبدالوهاب النجار وفيه يقول[1]:

(ولا شك أن الضمير في (عليه) من قوله (تعالى): ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ (راجع إلى الذبيح) فالإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر القصة صريح في أن إسحاق غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم بذبحه وعود الضمير إلى الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق معه صريحاً يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق. أما هذه القصة في التوراة فبطلها عند اليهود إسحاق وفي اعتقادي أن لفظ إسحاق حشر حشراً في غضون القصة. وذلك حرصاً منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حالة صغره).

ويقول: (وفي رأيي أن مسألة الذبح كانت قبل ولادة إسحاق).

وأن إبراهيم أسكن إسماعيل وأمه مكة قبل مسألة الذبح وأنها حصلت بنواحي مكة لا في جبل الموريا في أرض الموريا شليم كما في التوراة في بلاد الشام حيث كان يقيم إسحاق. ويقول: (وتحريف أهل التوراة لتوراتهم أمر معلوم كثير الوقوع ومن شاء شيئاً عن ذلك فليراجع (إظهار الحق) لرحمة الله الهندي. صفحات ١٢٦ إلى ١٩٦ من الجزء الأول.

ثم يقول: (ودليلي على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة

(١) قصص الأنبياء ص١٠٢، ١٠٣ مع هامش ١٠٢.

نفسها: أن الذبيح وصف بأنه ابن ابراهيم الوحيد أي الذي ليس له سواه وإذا رجعنا إلى إسحاق. لم نجده وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام لأن إسحاق ولد ولإسماعيل نحو أربعة عشر سنة كما هو صريح التوراة وبقي إسماعيل إلى أن مات إبراهيم وحضر إسماعيل وفاته ودفنه. وأيضا فإن ذبح إسحاق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم أن إسحاق سيكون له نسل ومسألة الذبح وقعت في مكة لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعا كما في حديث البخاري).

الدليل الثالث: هذه الآية القرآنية الكريمة في سورة الصافات مع قوله (تعالى) في سورة هود: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام... إلى قوله... إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ يدل سياقهما كما في شرح ابن حجر لصحيح البخاري[1]: على أنهما قصتان مختلفتان. وفي زمانين مختلفين الأولى: عن طلب إبراهيم من ربه أن يهبه من الصالحين. حين عزم على الهجرة ومفارقة وطنه وقومه وعشيرته. وقال: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ ﴿فلم بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ إلى آخر القصة. كما أسلفنا..

أما القصة الثانية فكانت بعد هذا بوقت طويل. حين جاءت الملائكة لإهلاك قوم لوط فمروا على إبراهيم وبشروه بإسحاق الغلام العليم. وكان ذلك بعد أربعة عشرة سنة من البشارة الأولى بالغلام الحليم.

(١) فتح الباري: شرح صحيح البخاري الجزء ١٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

ومما يتعين معه أن تكون البشارة الأولى بالغلام الحليم الابن الأول البكر الوحيد فى هذا الوقت وهو إسماعيل ويؤيد ذلك ما جاء فى كتب اليهود ـ التوراة ـ كما أشار الشيخ عبدالوهاب النجار.

الدليل الرابع: أن الذبيح بنص القرآن الكريم هو الغلام الحليم كما جاء فى سورة الصافات وإسحاق بنص القرآن الكريم هو الغلام العليم كما جاء فى سورة الحجر قالوا: ﴿لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ وفى سورة الذاريات: ﴿قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم﴾ وإذن يكون إسماعيل هو الغلام الحليم وهو الذبيح.

الدليل الخامس: بشر الله إبراهيم بغلام حليم من زوجته الثانية (هاجر) الذى دخل بها بعد أن اتفق مع زوجته الأولى العاقر العقيم (سارة) أملاً فى أن تنجب له (هاجر) ما عجزت عنه (سارة) وظلت سارة بعد ميلاد إسماعيل ورحيل أبيه به هو وأمه (هاجر) بناء على رغبة (سارة) تدعو الله أن يمنحها القدرة على الإنجاب. فلما يئست استجاب الله لها ووهبها (إسحاق) الغلام العليم. وإذن يكون الغلام الحليم أسبق فى الوجود من الغلام العليم ولما كان الذبيح هو الغلام الحليم وإسحاق هو الغلام العليم فإن إسماعيل يكون الغلام الحليم ويكون هو الذبيح.

الدليل السادس: أن محاولة الذبح والفداء تمتا فى مكة بإجماع آراء المفسرين والمحدثين والمؤرخين ولا يضعف من هذه الحقيقة تلك المحاولات الإسرائيلية لإدعاء وإثبات أنها حدثت فى بيت المقدس لسبب بسيط جدا لا ينكره أى إنسان وهو أن مشاعر الحج التى

ارتبطت بمحاولة الذبح والفداء موجودة فى مكة ومنى وعرفات والمزدلفة حيث كان يعيش إسماعيل وحجاج بيت الله الحرام فى مكة يؤدون هذه المشاعر منذ فرض الله الحج على المسلمين حتى الآن. ولم يقل أحد أن الحجاج يؤدون هذه المشاعر فى بيت المقدس حيث كان يقيم إسحاق لأنه لا يوجد أى من هذه المشاعر. ولا توجد الكعبة المشرفة فى بيت المقدس وهذا أمر طبيعى جداً ومعقول جداً اختاره الله (عز وجل) كما اختار إسماعيل المقيم فى مكة ليشارك أباه إبراهيم فى بناء وتطهير البيت الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود. ولم يقل أحد ولم يجرؤ أى إنسان أن يقول: إن إسحاق هو الذى شارك أباه إبراهيم فى بناء الكعبة المشرفة بيت الله الحرام لأن الله (سبحانه وتعالى) حسم هذا الموضوع بقوله (تعالى) فى سورة البقرة الآيات ١٢٥-١٢٨.

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود... إلى قوله (تعالى)... وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

وإذا كان إسماعيل هو الذى شارك فى بناء وتطهير البيت الحرام بمكة لأنه الابن المقيم فى مكة فلما لا يكون هو الذبيح الذى تمت محاولة ذبحه وافتدائه بمكة لأنه هو كذلك الذى يقيم فى مكة؟

الدليل السابع: إن ميلاد إسماعيل من هاجر كان أسبق من ميلاد



إسحاق من سارة هذا واقع ثابت لا مجال لإنكاره أو التشكيك فيه وادعاء اليهود بما يخالف هذا الواقع الثابت المؤكد ثبوته فى كتابهم التوراة افتراء على الكتاب المقدس وتزييف لما ورد فيه لا يغير من الواقع التاريخي الثابت عند جميع المفسرين والمحدثين والمؤرخين لسبب واضح وقوى وهو ـ بهذا التسلسل التاريخي الواقع الثابت الذى لا شك فيه ـ:

أ ـ أن سارة كانت عقيماً لم تنجب منذ تزوجها إبراهيم.

ب ـ وحين وهبها ملك مصر (هاجر) رأت أن هاجر يمكن أن تعوضها هي وإبراهيم عما عجزت عنه سارة من الإنجاب.

جـ ـ فاتفقت مع إبراهيم على أن يدخل بهاجر فولدت هاجر إسماعيل.

د ـ عند ذلك ملكت الغيرة سارة فطلبت من إبراهيم أن يبعد هاجر وإسماعيل إلى مكان بعيد.

هـ ـ فرحل إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى موقع مكة قرب مكان البيت الحرام وإسماعيل طفل رضيع.

و ـ حتى ذلك الوقت لم تكن سارة قد أنجبت.

ز ـ وأراد الله أن يستجيب لدعائها وتضرعها وأن يعوضها على صبرها فى نهاية المطاف حين اعتزل إبراهيم قومه وما يعبدون.

حـ ـ بذلك أرسل الله ملائكته لإهلاك قوم لوط وتبليغ سارة وإبراهيم بالبشارة وهبة الله لهما بالغلام العليم إسحاق.

ط ـ وإذا كانت رؤيا الذبح للابن الوحيد البكر لإبراهيم وكان إسحاق الابن الثانى بعد إسماعيل. ولم يكن الابن الوحيد البكر فى أى يوم. فإنه يتعين أن يكون الذبيح هو إسماعيل..

الدليل الثامن: قوله (تعالى) فى سورة إبراهيم الآية ٣٩ ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ يؤكد أن إسماعيل كان هبة الله لإبراهيم من هاجر قبل أن يهب الله لإبراهيم إسحاق من سارة وإلا فما الحكمة من تقديم اسم إسماعيل على اسم إسحاق فى حمد إبراهيم لله الذى وهب له أولاً إسماعيل ثم وهبه إسحاق؟

مع ملاحظة أن هذا كلام إبراهيم يحكيه الله (سبحانه وتعالى) وإبراهيم والذى توجه إلى الله بالدعاء أن يرزقه ولداً من الصالحين فوهبه الله ولدين: الغلام الحليم (إسماعيل) أولاً ثم الغلام العليم (إسحاق) ثانياً وحينما يتوجه هذا الوالد خليل الرحمن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بالحمد والشكر إلى الله على مضاعفة هبته له فإنما يبدأ بمن وهبه الله أولاً ثم يثنى بمن وهبه الله ثانياً أى: أن صدق الحمد والشكر أن يبدأ بما بدأه الله به. بل إن إبراهيم كان أوضح من هذا وأكبر حينما جمع بين الاسمين إسماعيل وإسحاق فى لفظ الحمد والهبة ثم ذكر اسم الموهوب الأول وهو إسماعيل وعطف عليه اسم الموهوب الثانى وهو إسحاق.

وإذن يتعين أن يكون إسماعيل هو الابن البكر الوحيد ويكون هو الذبيح.

الدليل التاسع: أنجبت هاجر إسماعيل قبل أن تنجب سارة إسحاق بل إن هاجر أنجبت إسماعيل حينما كانت سارة عاقراً عقيماً لا تلد.

وجاءت البشارة بميلاد إسماعيل ابن هاجر. وسارة تكاد يصيبها اليأس والقنوط من عدم الإنجاب ووصف القرآن الكريم الابن الذى بشر به إبراهيم من هاجر وهو إسماعيل بالغلام الحليم وسارة ما تزال فى قمة العقم والحرمان.

ثم استجاب الله لتضرع سارة فوهبها وإبراهيم الهبة الثانية إسحاق بعد أربع عشرة سنة من ميلاد ابن هاجر الهبة الأولى إسماعيل. جاءت البشارة بميلاد إسحاق من سارة فى نهاية المطاف وحين فقدت هى وإبراهيم أى أمل فى الإنجاب كما جاء فى الآية السابقة رقم ٢٩ من سورة الذاريات والآية رقم ٧٢ من سورة (هود). فى نفس الوقت الذى كان فيه إسماعيل يعيش حياته فى مرحلة البلوغ فى رحاب مكة وربوعها. بعد تعرضه لأن يذبحه أبوه إبراهيم وبعد مشاركته لأبيه فى بناء البيت الحرام. ووصف القرآن الكريم. (الابن الذى بشر به إبراهيم من سارة وهو (إسحاق) بالغلام العليم. فهما هبتان وهما بشارتان.. وهما غلامان: الغلام الحليم أولاً... والغلام العليم ثانياً....

وما دامت الهبة الأولى كانت البشارة بالغلام الحليم دون ذكر اسمه فى القرآن صريحاً بأنه الغلام الحليم...

وما دامت الهبة الثانية كانت البشارة بالغلام العليم مع ذكر اسمه فى القرآن الكريم صريحاً وهو إسحاق.

فلا بد أن تكون الهبة الأولى فى البشارة بالغلام الحليم متعينة وخاصة بإسماعيل..

فإن كانت هبة الله (فى سورة إبراهيم) اشترك فيها إسماعيل وإسحاق. أفلا يشتركان أيضا فى البشارة؟ وكما كانت البشارة بالغلام العليم لإسحاق فلم لا تكون البشارة بالغلام الحليم لإسماعيل. وإذن فإن إسماعيل هو هبة الله الأولى لإبراهيم وهو الغلام الحليم والابن البكر الوحيد لإبراهيم ويكون هو الذبيح.

الدليل العاشر: كانت هبة الله لإبراهيم بإسماعيل من هاجر. وهبة الله لإبراهيم بإسحاق من سارة حين كبر إبراهيم فى السن. كما جاء فى قوله (تعالى) من سورة إبراهيم الآية ٣٩: ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾.

ولكن هبة الله بإسماعيل كانت وإبراهيم مع كبر سنه قادر على السعى لم يمسه الكبر أو يصيبه بالعجز البدنى وحين بلغ إسماعيل ﴿الغلام الحليم﴾ السعى مع والده. كانت رؤيا ذبحه. ذلك قوله (تعالى) فى سورة الصافات الآيتان ١٠٠: ١٠١: ﴿فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك﴾.

أما هبة الله بإسحاق فقد كانت وإبراهيم مع كبر سنه قد مسه الكبر وصار شيخا وأصبحت سارة العقيم. عجوزا.. ذلك قوله (تعالى) فى سورة (هود) الآية ٧٢:

﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا﴾..

وقوله (تعالى) فى سورة الذاريات الآية ٢٩ : ﴿فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾ .. وقوله (تعالى) فى سورة الحجر الآية ٥٤ : ﴿قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر﴾ وهكذا يكون إسماعيل الابن البكر الوحيد لإبراهيم ويكون هو الغلام الحليم. ويكون هو الذبيح .

وهذا الدليل على من الشكل فى قوله (تعالى) : ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ . مع القول بأن إبراهيم أنجب إسماعيل وهو فى بداية أمره وقوته ومما هو جدير بالذكر فى هذا الدليل وفى قصة إبراهيم كلها أن سارة كانت عقيماً منذ تزوجها إبراهيم وحين شاء الله أن يجازيها على صبرها بعد أن ولدت هاجر إسماعيل بأربعة عشر عاماً وكاد يصيبها اليأس من عدم الإنجاب أذهب عنها العقم وهى عجوز وولدت إسحاق أما إبراهيم فلم يكن عقيماً فى أى يوم من الأيام فأنجب إسماعيل من هاجر وهو كبير فى السن ولكنه قادر على السعى ولم يفقد القدرة على الإنجاب حتى بعد أن كبر فى السن وضعفت فيه القدرة على السعى ومسه الكبر وصار شيخاً بدليل أنه أنجب إسحاق من سارة وهو كذلك ... وتزوج بعد موت سارة (قطورة أو قنطوراً . فولدت له ستة أولاد)(١) (ثم تزوج بعدها «حجورة» فولدت له خمسة أولاد)(٢) مع ملاحظة : أن الفارق الزمنى بين مولد إسماعيل

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص١٦٦، ١٦٩، قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص١٠٩.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص١٦٦،١٦٩، قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص١٠٩

ومولد إسحاق وهو أربعة عشر عاماً. كانت السبب غالباً فى أن يمس الكبر إبراهيم. ويصل به إلى مرحلة الشيخوخة إلا أن هذه المرحلة بالنسبة لطول أعمار الناس فى ذلك الزمن تضعف القدرة الجسدية. والقدرة على الإنجاب ولكن لا تفقد فيها القدرة الجسدية. أو القدرة على الإنجاب فقد قيل إن إبراهيم عاش حتى بلغ مائة وخمساً وسبعين. أو خمساً وتسعين عاماً.. وورد ما يدل على أنه عاش مائتى سنة [1].. والله أعلم.

الدليل الحادى عشر: وأخيراً. فإن موضوع اعتزال سيدنا إبراهيم وقومه.

قد يكون حاسماً فى أن الذبيح إسماعيل.. لأن رؤيا إبراهيم بذبح ولده البكر الوحيد وهَمَّهُما بتنفيذ هذه الرؤيا. وافتداء الله هذا الابن. بالذبح العظيم. إنما حدث قبل أن يعتزل إبراهيم أباه وقومه. وقبل أن يولد إسحاق - كما أشرنا إلى ذلك. فى ردنا على أقوال القرطبى. فى هذا الموضوع - فى ذلك الوقت. لم يكن لإبراهيم ابن بكر وحيد إلا إسماعيل. أما إسحاق. فقد وهبه الله لإبراهيم وسارة. بعد هذا الاعتزال. كما جاء فى قول الله (تعالى) من سورة مريم. الآية ٤٩: ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾. والله أعلم.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص١٦٩،١٦٦، قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص١٠٩

حفلت حياة سيدنا إبراهيم فى أحداثها التى مرت بنا بألوان عديدة من الابتلاء الذى يناسب مقام الخلة والنبوة والرسالة.

وكانت قمة الابتلاء فى حياته استجابته لتنفيذ أمر الله بأنه يذبح ابنه البكر الوحيد (إسماعيل) الذى طالما تمناه ورزقه الله بعد طول انتظار وبعد أن وصل إلى مرحلة الشيخوخة. قد وصف الله هذه الاستجابة بالبلاء المبين فى قوله (تعالى) من سورة الصافات الآية ١٠٦: ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾.

ولكن بعض ما ذكره المفسرون فى تفسير قوله (تعالى) من سورة البقرة: الآية ١٢٤:

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما ﴾.

يثير العجب ولا يرقى إلى مستوى البلاء بل ولا يندرج تحت مسمى الابتلاء لأن الابتلاء أمر عظيم وهو امتحان من الله (سبحانه وتعالى) واختبار منه سبحانه لعباده يترتب عليه أجر عظيم وما ذكروه لايمكن أن يكون محل ابتلاء واختيار.

ولقد قرأت لفضيلة الشيخ محمد متولى شعراوى فى خواطره عن الآية الكريمة ما يلى [١]:

(١) الجزء السابع من تفسير الشعراوى ص ٥٨٤ : ٥٨٨.

: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر . ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك . لأن الابتلاء هو امتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فهو شر فالابتلاء ليس شراً ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . . الذى ابتلى هو الله (سبحانه) هو الرب والرب معناه : المربى الذى يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه ومن أساس التربية أن يمتحن المربى من يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟

والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة والكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد والكلمة المرادة فى هذه الآية هى التكليف من الله .

قوله (سبحانه وتعالى) : افعل ولا تفعل .

فكان التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدى مطلوبها أولاً تؤديه وقد اختلف العلماء حول الكلمات التى تلقاها إبراهيم من ربه .

نقول لهم إن هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبى الأنبياء إنها ابتلاء يجعله أهلا لحمله الرسالة أى : لابد أن يكون الابتلاء كبيراً .

ولقد قال العلماء : إن الابتلاءات كانت عشرة . وقالوا : أربعين : منها عشرة فى سورة التوبة وهى قوله (تعالى) من الآية ١١٢

: ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴾ .

وهذه رواية عبد الله ابن عباس :

وعشرة ثانية فى سورة المؤمنون فى قوله (تعالى) الآيات من ١ - ١٠ ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون ﴾.

وفى سورة الأحزاب يذكر منها قوله (جل جلاله) الآية ٣٥ : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾.

وفى سورة المعارج يقول : الآيات من ٢٢ - ٣٤ : ﴿ إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون.والذين فى أموالهم حق معلوم.للسائل والمحروم.والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون.إن عذاب ربهم غير مأمون. والذين هم لفروجهم حافظون.إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين.فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون.والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾.

نخرج من هذا الجدل بأن نقول: إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية: افعل كذا ولا تفعل كذا وابتلاه بأن ألقى فى النار وهو حى فلم يجزع ولم يتراجع ولم يتجه إلا لله. وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه.

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليها من جنسها. وكونه يلقى فى النار ولا يبالى يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة؟ فيرد إبراهيم أما إليك فلا. وأما إلى الله فعلمه بحالى يغنيه عن سؤالى. وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ «الآيتان ٣٦ - ٣٧ من سورة النجم» أى: وفى كل ماطُلب منه. وأداه بعشق للمنهج ولابتلاءات الله.

لقد نجح إبراهيم (عليه السلام) فى كل ما ابتلى به واختبره به والله كان أعز عليه من أهله ومن نفسه ومن ولده ماذا كافأه الله به؟ قال: ﴿ قال إنى جاعلك للناس إماما ﴾ الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

أى: أن الحق (تبارك وتعالى) ائتمنه أن يكون إماماً للبشر والله (سبحانه وتعالى) كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفى الله (تعالى) عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور...

ولعلنا نضيف إلى ما ذكر فضيلة الشيخ الشعراوى من ابتلاءات الله لسيدنا إبراهيم:

(١) ابتلاء الله له بموقف أمه وأبيه من دعوته ومن محاولات الاعتداء عليه بإلقائه في النار فأى ابتلاء أكثر من أن يظل كل منهما على كفره وإشراكه بالله ويريا ولدهما البكر الوحيد إبراهيم وهو يلقى فى النار دون أن يفتدياه بنفسيهما.

(٢) ابتلاء الله لإبراهيم بما يقال إنه روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : بأنه لم يكذب سوى ثلاث كذبات ونخص من هذه الكذبات ما تعرضت له زوجه سارة من محاولة الجبار اغتصابها والاستيلاء عليها لولا أن تداركها الله برحمته ونجاها منه (فكشف الله الحجاب فيما بين إبراهيم وبينها وكان مشاهداً لها وهى عند الملك الجبار فعصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر كما ذكر ابن كثير فى قصص الأنبياء[١].

هى إذن فى رأى الشيخ الشعراوى ابتلاءات تناسب مقام إبراهيم أبى الأنبياء وتجعله أهلاً لحمل الرسالة أى لابد أن يكون الابتلاء كبيراً وبأمور عظيمة ولهذا كان مما يدعو إلى العجب ما ذكره بعض المفسرين لهذه الكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم مما لا يعقل أن يكون سبباً للابتلاء والامتحان والاختيار ولا يعقل أن تكون مؤهلاً لحمل الرسالة الإلهية ولا أن تكون سبباً فى أن يجعله الله (سبحانه وتعالى) إماماً للناس مكافأة له على صبره وتحمله لهذه الابتلاءات.

يقول ابن كثير فى تفسيره[٢]:

---

(١) قصص الأنبياء ص١٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم / الجزء الأول ص ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩.

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾.

يقول (تعالى) منبهاً على شرف إبراهيم خليله (عليه السلام) وأن الله (تعالى) جعله إماما للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله (تعالى) به من الأوامر والنواهي ولهذا قال: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ أى: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما للذى عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين أذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أى اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهى ﴿ فأتمهن ﴾ أى: قام بهن كلهن كما قال (تعالى) ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ [(١)] أى: وفى جميع ما شرع له فعمل به (صلوات الله عليه) وقال (تعالى): ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان المشركين ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[(٣)].

وقال: ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه

(١) الآية ٣٧ من سورة النجم.
(٢) الآيات ١٢٠ : ١٢٣ من سورة النحل.
(٣) الآية ١٦١ من سورة الأنعام.

وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾[1].

وقوله (تعالى) : ﴿ بكلمات ﴾ أى بشرائع وأوامر ونواه. فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله (تعالى) عن مريم (عليها السلام) ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾[2] وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله (تعالى) : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾[3] أى كلماته الشرعية ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ أى قام بهن ﴿ قال إنى جاعلك للناس إماما ﴾ أى : جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه.

وهذا تفسير لابن كثير معقول مقبول وجميل لا نعترض عليه ولكن غير المعقول وغير المقبول ماذكره بعد هذا فيما يلى :

(وقد اختلف فى تعين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل (عليه السلام) فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات فقال عبدالرازق عن محمد عن قتادة قال ابن عباس (ابتلاه الله بالمناسك) وكذا رواه أبو إسحاق السبيعى عن التميم عن ابن عباس وقال عبدالرازق أيضاً : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ قال : ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس. وفى

(1) الآيتان ٦٨،٦٧ من سورة آل عمران.
(2) الآية ١٢ آخر سورة التحريم. (3) الآية ١١٥ من سورة الأنعام.

الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء قال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد ابن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك)[1].

يقول ابن كثير (قلت): وقريب من هذا ماثبت في صحيح مسلم عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ): [عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء] قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة قال وكيع انتقاص الماء يعني الاستنجاء وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) قال: [الفطرة خمس: الختان والإستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط] ولفظه في مسلم وقال ابن أبي حاتم أنبأنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا ابن لهيعة عن أبي هريرة عن ابن حنش بن عبد الله الصنعاني عن ابن عباس: أنه كان يقول في تفسير هذه الآية ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قال عشر: ست في الإنسان وأربع في المشاعر فأما التي في الإنسان: حلق العانة ونتف الإبط والختان). وكان أبوهريرة يقول هؤلاء الثلاثة واحد: (وتقليم الأظافر وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة) والأربع في المشاعر: (الطواف والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والإفاضة)... فأي ابتلاء يناسب مقام سيدنا إبراهيم في قص الشارب أو المضمضة أو الاستنشاق أو السواك أو فرق الرأس أو

(١) تفسير القرآن العظيم / الجزء الأول ص١٥٧.

تقليم الأظافر أو حلق العانة أو الختان أو نتف الإبط أو غسل أثر الغائط والبول ؟!!

وليس ما ذكره - مما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة (رضى الله عنها) عن رسول الله (ﷺ) قريباً من هذا. فإن رسول (ﷺ) لم يقل إنها ابتلاءات الله لإبراهيم وإنما الذى جاء فى الحديث أنها من الفطرة.

ثم يتابع ابن كثير تفسيره فيقول: وقال داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم. قال (تعالى): ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قلت له: وما الكلمات الذى ابتلى بها الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال الإسلام ثلاثون سهماً منها عشرة آيات فى (براءة) ﴿التائبون العابدون﴾ إلى آخر الآية ١١٢ وهى ﴿الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنون﴾ وعشر آيات فى أول سورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ و﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ وسورة المؤمنون وسورة المعارج. وعشر آيات فى الأحزاب ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة قال الله ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾[1] هكذا رواه الحاكم وأبوجعفر بن جرير وأبو محمد بن حاتم بأسانيدهم إلى داود بن أبى هندية. وهذا لفظ ابن أبى حاتم. وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: الكلمات التى ابتلى الله بهن

(١) الآية ٣٧ من سورة النجم.

إبراهيم فأتمهن : فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم . ومحاجته (نمرود) فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه . وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من إبراهيم . والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنه . وما أمره به من الضيافة والصبر عليه بنفسه وماله . وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه .

فلما مضى على ذلك كله . وأخلصه للبلاء . قال الله له : ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[1] على ما كان من خلاف الناس . وفراقهم .

وقال ابن أبى حاتم (عن الحسن البصرى) : ابتلاه الله بالكوكب . فرضى عنه .. وابتلاه بالشمس . فرضى عنه .. وابتلاه بالهجرة فرضى عنه .. وابتلاه بالختان فرضى عنه وابتلاه بابنه فرضى عنه ..

وقال ابن جرير : (عن قتادة) . كان الحسن يقول : أى والله . لقد ابتلاه بأمر . فصبر عليه . ابتلاه بالكوكب . والشمس . والقمر . فأحسن فى ذلك . وعرف أن ربه دائم . لا يزول . فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفاً . وما كان من المشركين . ثم ابتلاه بالهجرة . فخرج من بلاده وقومه . حتى لحق بالشام . مهاجراً إلى الله . . ثم ابتلاه بالنار ـ قبل الهجرة ـ فصبر على ذلك . . . وابتلاه الله بذبح ابنه . والختان . فصبر على ذلك . .

وقال عبدالرازق : أخبرنا معمر . عن سمع الحسن يقول فى قوله

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(تعالى) : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ قال : ابتلاء الله بذبح ولده.. وبالنار.. وبالكوكب.. والقمر.. والشمس...

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ فمنهن : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماما ﴾.. ومنهن : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾.. ومنهن الآيات في شأن المنسك.. والمقام الذي جعل لإبراهيم والرزق الذي رزق ساكنو البيت.. ومحمد بعث في دينهما ولعله يقصد بهذه الآيات قوله (تعالى) في سورة البقرة الآيتان ١٢٨ - ١٢٩ - بعد الآية السابقة رقم ١٢٧ : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾.

وقبلهما - في نفس السورة من الآية ١٢٦ :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات ﴾.

وقبلهما - من الآية ١٢٥ :

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾.

وقال سفيان الثورى . عن أبى نجيح . عن مجاهد : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ . قال ابتلى بالآيات التى بعدها : ﴿ قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ . . .

وقال أبو جعفر الرازى . عن الربيع بن أنس : الكلمات : ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ وقوله : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ - جزء من الآية ١٢٥ بعد الآية السابقة ١٢٤) . . . قال : فذلك كله . من الكلمات التى ابتلى بهن إبراهيم . .

وقال السدى : الكلمات التى ابتلى بهن إبراهيم ربه : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ من الآية ١٢٧ . وصدر الآية ١٢٨ . ثم صدر الآية ١٢٩ من سورة البقرة : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ . . ولأن بعض ما جاء فى هذه الأقوال عجيب . غريب . غير معقول . ولا يرقى إلى مستوى الابتلاء الذى يليق بمقام سيدنا إبراهيم . فقد ختم ابن كثير تفسيره بقوله : قال أبو جعفر بن جرير . ما حاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات . جميع ماذكر . . وجائز أن يكون بعض ذلك . . ولا يجوز الجزم بشئ منها . أنه المراد - على التعيين - إلا بحديث أو إجماع . . قال : ولم يصح - فى ذلك - خبر . بنقل الواحد . ولا بنقل الجماعة . الذى يجب التسليم له . ثم قال ابن جرير : ولو قال قائل : إن الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس . أولى بالصواب . من القول

الذى قاله غيرهم . كان مذهبـاً . لأن قوله : ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ وقوله : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين... ﴾ الآية وسائر الآيات التى هى نظير ذلك . كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم . (قلت) : والذى قاله أولاً . من أن الكلمات تشمل جميع ماذكر . أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد . ومن قال مثله.. لأن السياق يعطى غير ماقالوه . والله أعلم(١) .

(١) تفسير القرآن العظيم / الجزء الأول ص ١٠٩ .



ثم يقول ابن كثير في «قصص الأنبياء»[1]

(قال عبدالرزاق: عن ابن عباس في قوله (تعالى): ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قال: ابتلاه الله. بالطهاره: خمس في الرأس. وخمس في الجسد: في الرأس: قص الشارب.. والمضمضة.. والسواك.. والاستنشاق.. وفرق الرأس[2]..

وفي الجسد: تقليم الأظافر.. وحلق العانة.. والختان.. ونتف الإبط.. وغسل أثر الغائط والبول. بالماء.. رواه ابن أبي حاتم قلت: وفي الصحيحين. عن أبي هريرة. عن النبي. (ﷺ) قال (الفطرة خمس: الختان (الختان - هو في الذكر قطع جميع الجلدة حول الحشفة حتى تنكشف جميع الحشفة.. وفي الأنثى قطع أدنى جزء من الجلدة التي في أعلى الفرج) والاستحداد (الاستحداد: هو حلق العانة.. سمى استحداد لاستعمال الحديدة. وهو الموس.. والمراد بالعانة: الشعر الذي فوق ذكر الرجل وحواليه. وكذا الشعر الذي حوالي فرج المرأة) وقص الشارب.. وتقليم الأظافر.. ونتف الإبط).. وفي صحيح مسلم. وأهل السنن. من حديث وكيع. عن عبد الله بن الزبير. عن عائشة. قالت: (قال رسول الله (ﷺ): [عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم (البراجم: هي جمع برجمة وهي عقد الأصابع ومفاصلها كلها) ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء] (يعني: الاستنجاء).

---

(1) قصص الأنبياء ص١٦٢، ١٦٣.

(2) تفسير القرآن العظيم/ الجزء الأول ص١٠٩.

وقد ذكر ابن كثيرهذين الحديثين فى تفسيره. كما مر بنا: على أن ماورد فيهما. قريب مما ذكره المحدثون. عن ابن عباس. وقلنا: إن ذلك غير قريب. ولا يدل على أن ما جاء فيهما. إخبار من رسول الله (ﷺ) أنهما مما ابتلى به إبراهيم (عليه السلام) ولعلى أضيف ههنا: أن هذه أمور فى الطهارة البدنية. لاتحتاج إلى تكليف من الله (عزل وجل). ولا تكون من الله (سبحانه وتعالى) محل ابتلاء واختبار. وإنما هي أمور يعرف الإنسان بفطرته التي فطره الله عليها. أنها مطلوبة. لاستكمال طهارة جسده. ولا تستحق أن يجتمع لها هذا العدد الوافر. من الرواه والمحدثين والمفسرين. ولعل ابن كثير استشعر القصور فى هذا التفسير للكلمات التى ابتلى الله بهما إبراهيم. فاستدرك بقوله: والمقصود: أنه (عليه السلام) يعنى: سيدنا إبراهيم. كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله. (عز وجل) وخشوع العبادة العظيمة. عن مراعاة مصلحة (بدنه). وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين. وإزالة ما يشينه من زيادة شعر أو ظفر. أو وجود وسخ. فهذا من جملة قوله (تعالى). فى حقه. من المدح العظيم

(وإبراهيم الذى وفى﴾[1] الآية ٣٧ من سورة النجم.

أما القرطبى. فيقول فى تفسيره للآية الكريمة[2]:

الابتلاء: الامتحان. والاختبار... ومعناه: أمر وتعبد...

---

(١) قصص الأنبياء ص ١٦٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الأول / الجزء الثانى ص ٩٧،٩٦.

قوله (تعالى) ﴿ بكلمات ﴾. الكلمات جمع كلمة. وترجع حقيقتها إلى كلام البارى (تعالى) لكنه عبر بها عن الوظائف التى كلفها إبراهيم (عليه السلام) ولما كان تكليفها بالكلام. سميت به. كما سمى عيسى كلمة. لأنه صدر عن كلمة. وهى «كن».

واختلف العلماء فى المراد بالكلمات. على أقوال:

(أحدها) شرائع الإسلام. وهى ثلاثون سهماً. عشر منها فى سورة براءة «التائبون العابدون» إلى آخرها... وعشر فى الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخرها.. وعشر فى المؤمنين ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ إلى قوله: ﴿ الذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾..

قال ابن عباس (رضى الله عنهما): ما ابتلى الله أحداً بهن. فقام بها كلها. إلا إبراهيم (عليه السلام). ابتلى بالإسلام.. فأتمه فكتب الله له البراءة. فقال: ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾.

(ثانيهما): وقال بعضهم: بالأمر والنهى...

(ثالثهما) وقال بعضهم: بذبح ابنه.

(رابعهما) وقال بعضهم: بأداء الرسالة..

والمعنى متقارب.

وقال مجاهد: هو قوله (تعالى): (إنى مبتليك بأمر. قال: تجعلنى للناس إماما؟.. قال: نعم..

قال: ومن ذريتى؟.. قال: لا ينال عهدى الظالمين..

قال : تجعل البيت مثابة للناس وأمنا ؟ .. قال : نعم ..

قال : وترينا مناسكنا وتتوب علينا ؟ .. قال : نعم ..

قال : وترزق أهله من الثمرات ؟ .. قال : نعم ..

وعلى هذ القول . فالله (تعالى) : هو الذى أتم ..

هكذا ذكر القرطبى . عن مجاهد . ولست أدرى . من أين أتى مجاهد بهذا الحوار بين الله (سبحانه وتعالى) . وسيدنا إبراهيم ؟ فليس هكذا (فيما عدا قول إبراهيم : ومن ذريتى ؟ وقول الله (عز وجل) : ﴿ لاينال عهدى الظالمين ﴾ يكون الحوار مع الله (سبحانه وتعالى) .

يقول القرطبى[1] : (وأصح من هذا ما ذكره عبدالرازق . عن معمر . عن ابن طاوس . عن ابن عباس : قال : ابتلاه الله بالطهارة خمس فى الرأس .. وخمس فى الجسد : قص الشارب .. والمضمضة .. والاستنشاق .. والسواك .. وفرق الشعر .. وفى الجسد : تقليم الأظافر .. وحلق العانة .. والإختتان .. ونتف الإبط .. وغسل مكان الغائط والبول بالماء .. وعلى هذا القول . فالذى أتم . هو إبراهيم . وهو ظاهر القرآن الكريم .

وروى مطرف . عن أبى الجلد . أنها عشر أيضـا . إلا أنه جعل موضع الفرق . غسل البراجم .. وموضع الاستنجاء (غسل مكان الغائط والبول بالماء) الاستحداد ..

وقال قتادة : هى مناسك الحج . خاصة ..

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الأول / الجزء الثانى ص ٩٧ ، ٩٨ .

وقال الحسن: هي الخلال الست: الكوكب. والقمر. والشمس. والنار. والهجرة. والختان..

وقال أبو إسحاق الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة. لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم (عليه السلام).

وهذا عجيب. أن يساوى الزجاج. بين إلقاء إبراهيم فى النار. وبين فرق الرأس. مثلاً. (وأن يغفل الحسن. محاولة ذبح إبراهيم لابنه البكر الوحيد. فى هذه الرواية).

وأعجب من هذا أن يكون ابتلاء الله لإبراهيم بالسواك مثلاً أصح عند القرطبى من شرائع الإسلام!! أو مما ذكره مجاهد!!. مع ملاحظة أن هذه الرواية التى ذكرها القرطبى. عن الحسن. هى التى أغفلت ذكر محاولة الذبح. ضمن ابتلاءات الله لإبراهيم. على العكس من تلك الرواية التى ذكرها ابن كثير. والرواية التى سوف يذكرها الطبرى. فيما يلى:

يقول الطبرى[1]: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾: يعنى (جل ثناؤه) بقوله ﴿وإذ ابتلى﴾ وإذا اختبر.. وكان اختبار الله (تعالى) إبراهيم. اختباراً بفرائض فرضت عليه.. وأمر أمره به. وذلك هو الكلمات التى أوحاهن إليه. وكلفه العمل بهن. امتثالاً منه له. واختباراً..

ثم اختلف أهل التأويل فى صفة الكلمات التى ابتلى الله بهما إبراهيم نبيه وخليله. (صلوات الله عليه). فقال بعضهم (وحدث

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن/ المجلد الأول/ الجزء الأول ص٤١٤ إلى ص٤١٦.



بما نقلناه عن ابن كثير والقرطبى. وأضاف إليه عدداً كبيراً من المحدثين. بأحاديث مماثلة لما نقلناه).

ثم قال[1]: (والصواب من القول. فى ذلك. عندنا: أن يقال. إن الله (عز وجل) أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه. وأمره أن يعمل بهن.. وأتمهن. كما أخبر الله (جل ثناؤه) عنه: أنه فعل...

وجائز أن تكون تلك الكلمات. جميع ماذكره من ذكرنا فى تأويل الكلمات... وجائز أن تكون بعضه. لأن إبراهيم (صلوات الله عليه) قد كان امتحن - فيما بلغنا - بكل ذلك. فعمل به. وقام فيه بطاعة الله وأمره. الواجب عليه فيه. وإن كان ذلك كذلك. فغير جائز لأحد. أن يقول - عنى الله بالكلمات التى ابتلى بهن إبراهيم. شيئاً من ذلك بعينه. دون شئ.. ولا عنى به كل ذلك - إلا بحجة يجب التسليم لها. من خبر عن الرسول (ﷺ) أو إجماع من الحجة - ولم يصح فى شئ من ذلك - خبر عن الرسول. بنقل الواحد. ولا بنقل الجماعة. التى يجب التسليم لما نقلته... غير أنه روى عن النبى (ﷺ) فى نظير معنى ذلك - خبران. لو ثبتا. أو أحدهما. كان القول به. فى تأويل ذلك. هو الصواب:

(أحدهما): ماحدث به سهل بن معاذ بن أنس. عن أبيه قال: كان النبى (ﷺ) يقول: ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم. خليله الذى وفى؟ لأنه كان يقول - كلما أصبح. وكلما أمسى - :

(1) جامع البيان فى تفسير القرآن / المجلد الأول / الجزء الأول ص ٤١٦، ٤١٧.

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ .. حتى يختم الآية... (هذه الآية رقم ١٧ من سورة الروم. وهي آية كاملة. والآيات التالية. ربما قصد الطبري أنها ختام لها. وكان ينبغي أن يقول (حتى يختم الآيات) بدلاً من قوله: (حتى يختم الآية).. والآيات رقم ١٨، ١٩ هي: ﴿ وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾.

والآخر منهما: ماحدث به عن أبي أمامة: قال: قال رسول الله (ﷺ) ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال: أتدرون ما وفى؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.. قال: ﴿ وفى ﴾ عمل يومه. أربع كعات. في النهار.

فلو كان خبر سهل بن معاذ عن أبيه. صحيحاً سنده. كان بيِّناً أن الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم. وهو قوله كلما أصبح وأمسى: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾ اقتصر على الآية ١٨ مع الآية ١٧.

أو كان خبر أبي إمامة. عدولاً نقلته.. كان معلوماً أن الكلمات التي أوحين إلى إبراهيم فابتلى بالعمل بهن: أن يصلي كل يوم أربع ركعات.. غير أنهما خبران. في أسانيدهما نظر..

والصواب من القول: في معنى الكلمات. التي أخبر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم - ما بينا أنفا - ولو قال قائل في ذلك: أن الذي قاله

مجاهد. وأبو صالح. والربيع بن أنس. أولى بالصواب من القول الذى قاله غيرهم كان مذهبا.. لأن قوله ﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾.. وقوله: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين﴾.. وسائر الآيات التى هى نظير ذلك. كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم..

أما «صفوة التفاسير». فقد اقتصر على المعقول المقبول. من تفسير الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم. نقلا عن «الدرر المنثور».

يقول[1]: اذكر يا محمد. حين اختبر الله عبده إبراهيم. عليه السلام. وكلفه بجملة من التكاليف الشرعية: «أوامر ونواه».. فقام بهن خير قيام.. واختلف المفسرون فى الكلمات التى اختبر الله بهن إبراهيم (عليه السلام). وأصح هذه الأقوال ما روى عن ابن عباس. أنه قال: الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم. فأتمهن: فراق قومه فى الله. حين أمر بمفارقتهم.. ومحاجاة نمرود. فى الله.. وصبره على قذفهم إياه فى النار ليحرقوه. ،والهجرة من وطنه. حين أمر بالخروج عنهم.. وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه... ويلاحظ فى النهاية: أن فارس هذه المعانى كلها. للكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم. هو الصحابى الجليل: (ابن عباس) رضى الله عنهما.. وقد كان لكل رواية من الروايات التى نقلت عنه ظروفها الخاصة بها. وزمانا ومكانا مختلفا.. ونحن لا نستبعد أن يكون قد قصها كلها... ولكننا نستبعد أن يكون قد

(١) صفوة التفاسير / الجزء الأول ص ٩٣ - ٩٥.

اقتصر منها على ما قرنا أنه يثير العجب. من غير المعقول.. لأنه ذكر المعقول والمقبول..

وكما ذكرنا عن أبي جعفر بن جرير: فلا يجوز الجزم بشئ منها. أنه المراد على التعيين إلا بحديث. أو إجماع... ولم يصح ـ في ذلك ـ خبر يجب التسليم له...

والله أعلم.

إن إبراهيم كان أمة

لكل ما سبق من صفات.. وأحداث.. وابتلاءات. لأبي الأنبياء. خليل الرحمن.. سيدنا إبراهيم. (عليه السلام).

ولأمور أخرى. قد تكون في كتب التفسير. أو الحديث. أو التاريخ. التي لم أطلع عليها..

ولغير هذا. وذاك. مما لا يعلم إلا الله..

كان إبراهيم. أمة.. قانتاً لله.. حنيفاً.. ولم يك من المشركين..

وكان شاكراً لأنعم الله... واجتباه الله.. وهداه إلى صراط مستقيم.. وآتاه في الدنيا حسنة.. وجعله في الآخرة لمن الصالحين... ثم أوحى الله. إلى خاتم الأنبياء والمرسلين: سيدنا محمد رسول الله (ﷺ). وحفيد سيدنا إبراهيم:

﴿أن اتبع ملة إبراهيم﴾.

ذلك قوله (تعالى) في سورة النحل: الآيات من ١٢٠ إلى ١٢٣:

﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾.

يقول القرطبي. في تفسير هذه الآيات:

(دعا سيدنا محمد (ﷺ) مشركى العرب إلى ملة إبراهيم: إذ كان أباهم.. وبانى البيت. الذى به عزهم).

والأمة: الرجل الجامع للخير[1].

وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: بلغنى أن عبد الله بن مسعود قال: (يرحم الله معاذاً كان أمة قانتاً).. فقيل له: يا أبا عبدالرحمن. إنما ذكر الله (عز وجل) بهذا إبراهيم (عليه السلام). فقال ابن مسعود: إن الأمة الذى يعلم الناس الخير..

وإن القانت هو المطيع [2] وحنيفا أى: مائلا إلى الحق[3] اجتباه: اختاره..

﴿ وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ قيل الولد الطيب..

وقيل: الثناء الحسن.. وقيل: النبوة.. وقيل: الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد (عليه السلام) فى التشهد..

وقيل: إنه ليس أهل أهل دين إلا وهم يتولونه.. وقيل: بقاء ضيافته.. وزيارة قبره.. وكل ذلك أعطاه الله.. وزاده (ﷺ): ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾. أى مع الصالحين.. لأنه كان فى الدنيا - أيضاً - مع الصالحين..

وقوله (تعالى): ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الخامس / الجزء العاشر ص ١٩٧
(٢) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الخامس / الجزء العاشر ص ١٩٧، ١٩٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الرابع / الجزء السابع ص ٢٨.

قال ابن عمر: أمر باتباعه فى مناسك الحج. كما علَّم إبراهيم جبريل. (عليهما السلام). وقال الطبرى: أمر باتباعه. فى التبرؤ من الأوثان. والتزين بالإسلام..

وقيل: أمر باتباعه فى جميع ملته. إلا ما أمر بتركه. قاله بعض أصحاب الشافعى.. والصحيح: الاتباع فى عقائد الشرع دون الفروع. لقوله (تعالى): ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾.

الآية ٤٨ من سورة المائدة.

ويقول القرطبى فى موضع آخر: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ يدل على عدم التعلق بشرائع الأولين.. والشرعة والشريعة: الطريقة الظاهرة. التى يتوصل بهما إلى النجاة.. والشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين..

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ (بعد قوله السابق من الآية ٤٨ من سورة المائدة) أى: لجعل شريعتكم واحدة فكنتم على الحق.. فبين أنه أراد بالاختلاف: إيمان قوم. وكفر قوم[1]

وما قاله بعض أصحاب الشافعى ـ هذا الذى ذكره القرطبى ـ أقرب تلك الأقوال. إلى الصواب..

وهو أيضاً موافق لما رآه القرطبى صحيحاً... إلا أنه فى تفسيره ـ فى العبارة الأخيرة ـ لا يستقيم مع مارآه صحيحاً. لأن الاختلاف بين الشرائع.. هو اختلاف فى الفروع والتفاصيل. ومنهج التطبيق.

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الخامس / الجزء العاشر ص ١٩٨.

كما يقول القرطبي. وكما هو نص القرآن الكريم. الذى استشهد به القرطبي.

والمقصود بـ: ﴿ شرعة ومنهاجا ﴾ هو ما شرعه الله لعباده - وذلك أيضا قول القرطبي - أما الكفر فليس شريعة شرعها الله.. وليس بين الكفر والإيمان اختلاف في الفروع. ولكنه اختلاف في كل الأصول والفروع. لا يرضى به الله في أصول العقيدة ولا فروعها.. ولا يختاره شريعة لأى من عباده. (سبحانه وتعالى) عما يشركون. (وتعالى) الله عن ذلك علواً كبيراً. وصدق (سبحانه) ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ﴾. صدر الآية ٧ من سورة الزمر..

أما (ابن كثير) فيقول فى تفسيره للآية الكريمة:

يمدح الله (تعالى) عبده ورسوله وخليله إبراهيم. إمام الحنفاء. ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين. ومن اليهودية والنصرانية. فقال: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ فأما الأمة: فهو الذى يقتدى به... والقانت: هو الخاشع المطيع.. والحنيف: المنحرف قصدا عن الشرك إلى التوحيد... ولهذا قال: ﴿ ولم يك من المشركين ﴾.

قال سفيان الثورى. عن سلمة بن كهيل. عن مسلم البطين. عن أبى العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود. عن الأمة القانت؟ فقال: الأمة: معلم الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله..

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الثالث / الجزء السادس ص ٢١١.

وعن مالك . قال : قال ابن عمر : الأمة : الذى يعلم الناس دينهم . .

وقال الأعمش . عن يحيى بن الجزار . عن أبى العيدين : أنه جاء إلى عبد الله . فقال من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رق له . . فقال : أخبرنى عن الأمة ؟ فقال : الذى يعلم الناس الخير . .

وقال الشعبى : حدثنى فروة بن نوفل الأشجعى . قال : قال ابن مسعود : إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفـاً . فقلت فى نفسى غلط أبوعبدالرحمن . . وقال : إنما قال الله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ . فقال : تدرى ما الأمة ؟ . وما القانت ؟ . . قال الله أعلم . . فقال : الأمة : الذى يعلم الخير . . والقانت : المطيع لله ورسوله . وكذلك كان معاذ . .

وقال مجاهد : أمة أيضاً : أمة وحده . . والقانت : المطيع . .

وقال مجاهد أيضاً : (كان إبراهيم أمة . أى مؤمنا وحده . والناس كلهم إذ ذاك كفار) .

وقال قتادة : كان إمام هدى . . والقانت : المطيع لله .

وإذا كان ماقاله بعض أصحاب الشافعى . الذى ذكره القرطبى . فى تفسير قوله (تعالى) ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ هو أولى الأقوال بالصواب لما ذكرنا فى تقديرنا فإن أقوال مجاهد . هذه التى ذكرها ابن كثير . فى تفسير قوله (تعالى) ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ . هى فى تقديرنا كل الحق والصواب . لأن الإيمان شريعة شرعها الله للأمة والجماعة . وليس شريعة شرعها الله

للفرد الواحد فإن كانت قد تحققت فى فرد واحد هو سيدنا إبراهيم. مقابل كفر الناس كلهم... فإن إبراهيم يكون وحده أمة الإيمان. مقابل أمة الكفر. والله أعلم.

ثم يمضى ابن كثير فى تفسيره. فيقول[1]:

وقوله ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾. أى: قائما بشكر نعم الله.. كقوله ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾. أى: قام بجميع ما أمره الله (تعالى) به.

وقوله: ﴿ اجتباه ﴾ أى: اختاره واصطفاه. كقوله: ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾..

ثم قال: ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾. وهو عبادة الله وحده. لا شريك له. على شرع مرضى...

وقوله: ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾. أى: جمعت له خيرات الدنيا. من جميع ما يحتاج المؤمن إليه. فى إكمال حياته الطيبة.. ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾..

وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة). أى: لسان صدق...

وقوله: ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾. أى: ومن كماله. وعظمته. وصحة توحيده وطريقه: أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ كقوله فى الأنعام (الآية ١٦١): ﴿ قل إننى هدانى ربى

(١) تفسير القرآن العظيم / الجزء الثانى ص ٥٧٢.

إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[1].

ويقول الطبرى: يقول (تعالى): إن إبراهيم (خليل الله) كان معلم خير. يأتم به أهل الهدى.. ﴿قانتا﴾ مطيعاً لله.. ﴿حنيفا﴾ مستقيما على دين الإسلام... ﴿ولم يك من المشركين﴾... ولم يشرك بالله شيئا. فيكون من أولياء أهل الشرك به.. وهذا إعلام من الله (تعالى) لأهل الشرك به. من قريش: أن إبراهيم منهم برئ.. وأنهم منه برآء.. ﴿شاكرا لأنعمه﴾. كان يخلص الشكر لله. فيما أنعم عليه. ولا يجعل معه فى شكره. على نعمه عليه شريكا من الآلهة والأنداد وغير ذلك. وأرشده إلى الطريق المستقيم. وذلك دين الإسلام. لا اليهودية ولا النصرانية..

وحدث عن أبى العبيدين. أنه جاء إلى عبد الله. فقال: من نسأل. إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعود رق له. فقال: أخبرنى عن الأمة. قال: الذى يعلم الناس الخير... ثم حدث ثانية عن أبى العبيدين. أنه سأل عبد الله بن مسعود. عن الأمة القانت؟ قال: الأمة: معلم الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله...

وحدث عن فروة بن نوفل الأشجعى. قال: قال ابن مسعود: إن معاذا كان أمة. قانتا لله. حنيفا.. فقلت فى نفسى: غلط أبوعبدالرحمن. إنما قال الله (تعالى): ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا﴾. فقال: تدرى ما الأمة؟.. وما القانت؟ قلت: الله أعلم.

(1) تفسير القرآن العظيم / الجزء الثانى ص ٥٧٢

قال: الأمة الذى يعلم الخير.. والقانت: المطيع لله ولرسوله. وكذلك كان معاذ بن جبل. كان يعلم الخير. وكان مطيعا لله لرسوله..

وحدث عن قتادة: قوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله﴾ قال: كان إمام هدى. مطيعا. تتبع سنته وملته..

وحدث عن شهر بن حوشب. قال: لم تبق الأرض. إلا وفيها أربعة عشر. يدفع الله بهم. عن أهل الأرض. وتخرج بركاتها. إلا زمن إبراهيم. فإنه كان وحده [1]:

وهذا ملحظ دقيق. فى أصح وأصوب الأقوال. التى قيلت فى تفسير قوله (تعالى): ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾. يضاف إلى ما قاله مجاهد. الذى مر بنا فى تفسير ابن كثير..

ثم يتابع (الطبرى) تفسيره. فيقول:

وقوله (تعالى): ﴿وآتيناه فى الدنيا حسنة﴾. يقول (تعالى): وآتينا إبراهيم. على قنوته لله.. وشكره له على نعمه.. وإخلاصه العبادة له. فى هذه الدنيا - ذكرا حسنا. وثناء جميلا. باقيا على الأيام... ﴿وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾. وإنه فى الدار الآخرة. يوم القيامة. لمن صلح أمره وشأنه عند الله. وحسنت فيها منزلته وكرامته..

﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم﴾. يقول (تعالى) لنبيه

(١) جامع البيان / المجلد السابع / الجزء الرابع عشر ص ١٢٨ مابعدها.

محمد (ﷺ) : ثم أوحينا إليك يا محمد. وقلنا لك اتبع ملة إبراهيم. الحنيفة. المسلمة (حنيفاً). مسلماً. على الدين. الذى كان عليه إبراهيم. بريئاً من الأوثان. والأنداد التى يعبدها قومك. كما كان إبراهيم تبرأ منها..

وجاء فى الفتوحات الإلهية[1] :

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ إماماً. قدوة. جامعاً لخصال الخير.. وإنما سمى إبراهيم (ﷺ). أمة. لأنه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير. والأخلاق الحميدة ما اجتمع فى أمة.

وهذا رأى سديد. لصاحب الفتوحات الإلهية.

ثم للمفسرين فى معنى هذه النقطة. أقوال:

(أحدها) : قول عبد الله بن مسعود: الأمة: معلم الخير. يعنى أنه كان معلما للخير يأتم به أهل الدنيا.

(الثانى) قال مجاهد: إنه كان مؤمناً وحده.. والناس كلهم كفار. فلهذا المعنى كان أمة وحده.. ومنه قوله (ﷺ) فى زيد بن عمرو بن نفيل: (يبعثه الله. أمة وحده).. وإنما قال فيه هذه المقالة. لأنه كان فارق الجاهلية. وما كانوا عليه من عبادة الأصنام..

(الثالث) : قال قتادة: ليس من أهل دين. إلا وهم يتولونه. ويرضونه..

(الرابع) : وقيل الأمة: الذى يؤتم به.. كان إبراهيم (عليه الصلاة والسلام). إماماً يقتدى به.

---

(١) الفتوحات الإلهية/ المجلد الثانى ص ٦٠٤، ٦٠٥.



دليله قوله (تعالى): ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ «من الآية ١٢٤ من سورة البقرة».

(الخامس): وقيل: إنه (عليه الصلاة والسلام) هو السبب الذى لأجله جعلت أمته. ومن تبعه. ممتازين. عمن سواهم. بالتوحيد لله. والدين الحق..

(السادس): وقيل: إنما سمى (إبراهيم عليه السلام) أمة لأنه قام مقام أمة. فى عبادة الله.

وحاصل ما ذكر له. من صفات. هنا. تسعة (كما جاءت فى الآيات الكريمة). بل عشرة إذ قوله: ﴿ ثم أوحينا إليك... الخ ﴾ يرجع لوصف إبراهيم وتعظيمه. بأن محمداً (ﷺ) أمر باتباعه.

﴿ قانتا ﴾ مطيعاً لله.. ﴿ حنيفا ﴾ مائلاً إلى الدين القيم..

﴿ ولم يك من المشركين ﴾ شاكراً لأنعمه اجتباه اصطفاه للنبوة.

﴿ وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ هى الثناء الحسن. فى كل أهل الأديان. أى السيرة الحسنة. عند كل أهل الأديان. فجميع الملل يرتضون عن إبراهيم. ولا يكفر به أحد..

ولعله من المناسب هنا ـ تأييداً. وتوكيداً. لما ذكرته (الفتوحات الإلهية.. وما ذكره القرطبى) ـ أن نقرأ قوله (تعالى) فى سورة البقرة: (من دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل):

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك.. ﴾ من الآية ١٢٨.

وقوله (تعالى) : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه... ﴾ من الآية ١٣٠.

وقوله (تعالى) : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ الآية ١٣٢.

وقوله (تعالى) : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ الآية ١٣٣.

وقوله (تعالى) : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ الآية ١٣٦..

وقوله (تعالى) : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ من الآية ١٤٠.

ونذكر أيضاً قوله (تعالى) فى سورة آل عمران:

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ من الآية ١٩.

وقوله (تعالى) : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ الآية ٦٥..

وقوله (تعالى) : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان

حنيفا مسلما وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ الآيتان ٦٧، ٦٨.

وقوله (تعالى) فى سورة النساء: من الآية ١٢٥:

﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾.

وقوله (تعالى) فى سورة المائدة: الآية ١١١:

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾

وقوله (تعالى) فى سورة يوسف: (الآية ٣٨ على لسان سيدنا يوسف):

﴿ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾.

وقوله (تعالى) فى سورة القصص: الآيتان ٥٢، ٥٣:

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذ يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ثم الآية ٧٢ من سورة يونس ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾.

ثم يقول صاحب الفتوحات الآلهية [1] وعبارة البيضاوى:
﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ بأن حببه إلى الناس. حتى أن أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه.. ورزقه أولادا طيبة وعمرا طويلا فى السعة والطاعة..

﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾. لمن أهل الجنة. الذين لهم الدرجات العلى..

﴿ ثم أوحينا إليك ﴾ يا محمد ﴿ أن اتبع ملة ﴾ دين ﴿ إبراهيم ﴾.. قال أبو السعود: والمراد بالاتباع: الاتباع فى الأصول والعقائد. وأكثر الفروع. دون الشرائع المتبدلة بتبدل الأعصار..

قال الزمخشرى:

فى ﴿ ثم ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله (ﷺ) وإجلال محله.. والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) من الكرامة.. وأجل ما أوتى من النعمة: إتباع رسول الله (ﷺ).

ملته والملة: أسم لما شرعه (تعالى) لعباده. على لسان الأنبياء (عليهم السلام). وهو الدين بعينه. ولكن باعتبار الطاعة له.. وتحقيق ذلك: أن الوضع الإلهى. مهما نسب إلى من يؤديه. عن الله (تعالى) يسمى (ملة).. ومهما نسب إلى من يقيمه ويعمل به يسمى (دينا).. قال الراغبى: الفرق بينهما. أن الملة لا تضاف إلا إلى النبى (عليه السلام) ولا تكاد مضافة إلى الله (تعالى) ولا إلى

آحاد الأمة.. ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها..

والمراد بملته (عليه السلام): (الإسلام). الذي عبر عنه آنفاً. بالصراط المستقيم (١).

وهذا التفسير من «الفتوحات الإلهية» تؤكده النصوص القرآنية التالية.

قوله (تعالى) في سورة البقرة: الآية ١٣١.

﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾

وقوله (تعالى) في سورة آل عمران: الآية ٦٧:

﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ وقوله (تعالى) في سورة الأنعام: الآية ٧٩:

وقوله (تعالى) في سورة الأنعام الآية ٧٩. ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾.

ثم لعله من المفيد في هذا الموضوع أن أضيف إلى ماذكره هؤلاء المفسرون: أن كلمة (أمة) وردت في القرآن الكريم في سبعة وأربعين موضعاً:

(أ) في سورة البقرة:

(١) قوله (تعالى): ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ - من الآية ١٢٨..

(١) الفتوحات الإلهية / المجلد الثاني ص ٦٠٥.

(٣،٢) قوله (تعالى): ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ ـ من الآية ١٣٤ والآية ١٤١.

(٤) قوله (تعالى): ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ ـ من الآية ١٤٣

(٥) قوله (تعالى): ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ ـ من الآية ٢١٣.

(ب) في سورة آل عمران:

(٦) قوله (تعالى): ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ ـ من الآية ١٠٤.

(٧) قوله (تعالى): ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ـ من الآية ١١٠.

(٨) قوله (تعالى): ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ ـ الآية ١١٣

(جـ) وفي سورة النساء:

(٩) قوله (تعالى): ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ ـ من الآية ٤١

(د) وفي سورة المائدة:

(١٠) قوله (تعالى): ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ ـ من الآية ٤٨.

(١١) قوله (تعالى) ﴿ منهم أمة مقتصدة ﴾ - من الآية ٦٦.

(هـ) وفى سورة الأنعام:

(١٢) قوله (تعالى): ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ - من الآية ١٠٨.

(و) وفى سورة الأعراف:

(١٣) قوله (تعالى): ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ - الآية ٣٤.

(١٤) قوله (تعالى): ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ - من الآية ٣٨.

(١٥) قوله (تعالى): (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ﴾ - من الآية ١٥٩.

(١٦) قوله (تعالى): ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم ﴾ - من الآية ١٦٤.

(١٧) قوله (تعالى): ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ﴾ - من الآية ١٨١.

(ز) وفى سورة يونس:

(١٨) قوله (تعالى): ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ - من الآية ١٩.

(١٩) قوله (تعالى): ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ - من الآية ٤٧.

(٢٠) قوله (تعالى) : ﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ - من الآية ٤٩ .

(حـ) وفى سورة هود :

(٢١) قوله (تعالى) : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ﴾ - من الآية ٨ .

(٢٢) قوله (تعالى) : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ - الآية ١١٨ .

(ط) وفى سورة يوسف :

(٢٣) قوله (تعالى) : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة ﴾ - من الآية ٤٥ .

(ى) وفى سورة الرعد :

(٢٤) قوله(تعالى) : ﴿ كذلك أرسلنا فى أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ - من الآية ٣٠ .

(ك) وفى سورة الحجر :

(٢٥) قوله (تعالى) : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ - الآية ٥ .

(ل) وفى سورة النحل :

(٢٦) قوله (تعالى) : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ - من الآية ٣٦ .

(٢٧) قوله (تعالى) : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ﴾ ـ من الآية ٨٤ .

(٢٨) قوله (تعالى) : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ﴾ ـ من الآية ٨٩ .

(٢٩) قوله (تعالى) : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ ـ من الآية ٩٢ .

(٣٠) قوله (تعالى) : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ ـ من الآية ٩٣ .

(٣١) قوله (تعالى) : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ ـ الآية ١٢٠ .

(م) وفى سورة الأنبياء :

(٣٢) قوله (تعالى) : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدونى ﴾ ـ الآية ٩٢ .

(ن) وفى سورة الحج :

(٣٣، ٣٤) قوله (تعالى) : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ﴾ ـ من الآية ٣٤ ، ﴿ لكل أمة جعلنا منسكا ﴾ ـ من الآية ٦٧ .

(س) وفى سورة المؤمنون :

(٣٥) قوله (تعالى) : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ ـ الآية ٤٣ .

(٣٦) قوله (تعالى) : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كل ما جاء أمة رسولها كذبوه ﴾ ـ من الآية ٤٤ .

(٣٧) قوله (تعالى) : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ـ الآية ٥٢ .

(ع) وفي سورة النمل :

(٣٨) قوله (تعالى) ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ ـ الآية ٨٣ .

(ف) وفي سورة القصص :

(٣٩) قوله (تعالى) : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ ـ من الآية ٢٣ .

(٤٠) قوله(تعالى) : ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ ـ من الآية ٧٥ .

(ص) وفي سورة فاطر :

(٤١) قوله (تعالى) : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ـ الآية ٢٤ .

(ق) وفي سورة غافر :

(٤٢) قوله (تعالى) : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ ـ من الآية ٥ .

(ر) وفي سورة الشورى :

(٤٣) قوله (تعالى) : ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ - من الآية ٨ .

(ش) وفي سورة الزخرف :

(٤٤، ٤٥) قوله (تعالى) : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ - من الآية ٢٢ . ومن الآية ٢٣ .

(٤٦) قوله (تعالى) : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ - من الآية ٣٣ .

(ت) وفي سورة الجاثية :

(٤٧) قوله (تعالى) : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ - الآية ٢٨ .

ولم تخرج معاني هذه الكلمة . في تلك المواضع . عما ذكره القرطبي بقوله[1] .

والأمة (الجماعة) هنا يعني في قوله (تعالى) من سورة البقرة من الآية ١٢٨ .

وتكون واحداً . إذ كان يقتدى به في الخير . ومنه قوله (تعالى) : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾ وقال (ﷺ) في زيد بن عمرو بن نوفل : [يبعث أمة وحده ، لأنه لم يشرك في دينه غيره] والله أعلم .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / المجلد الأول / الجزء الثاني ص ١٢٧ .

وقد يطلق لفظ الأمة على غير هذا المعنى.. ومنه قوله (تعالى): ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ من الآية ٢٢-٢٣ من سورة الزخرف. أى: على (دين وملة) ومنه قوله (تعالى): (إن هذه أمتكم أمة واحدة) من الآية ٩٢ من سورة الأنبياء. وقد تكون بمعنى (الحين والزمان)..

ومنه قوله (تعالى) ﴿واذكر بعد أمة﴾ من الآية ٤٥ من سورة يوسف أى: بعد حين وزمان.

ويقال هذه أمة زيد. أى: (أم زيد).. والأمة أيضاً: (القامة) يقال: فلان حسن الأمة. أى: حسن القامة.. وقيل الأمة: (الشجة التى تبلغ أم الدماغ) يقال: رجل مأموم وأميم)[1].

وكما رأينا - فى مواضع هذه الكلمة. فى سياق الآيات القرآنية الكريمة - فلم يوصف بها واحد فرد. إلا سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لأنه - كما قال المفسرون - جمع كل صفات الخير والكمال.. ولأنه كان يقتدى به.. فى الخير..

ولكنى أضيف إلى هذا المعنى فى صفة سيدنا إبراهيم بأنه كان أمة.. أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) استحق أيضاً هذ الوصف بالأمة. لأن أصول الشرائع السماوية اجتمعت له. فكانت شريعته. التى جمعت أصول الشرائع: شريعة الإسلام..

ووصى بهما إبراهيم بنيه ويعقوب. بقوله:

(١) الجامع لأحكام القرآن/ المجلد الأول/ الجزء الثانى ص ١٢٧.

﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾

ذلك قول الله (تعالى) فى سورة البقرة الآيات ١٣٠ ـ ١٣٣ .

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم. قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾

ثم كانت هذه الشريعة شريعة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ﷺ) حفيد سيدنا إبراهيم. وصدق الله العظيم :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد.

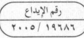
كما صليت ـ يا الله ـ على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

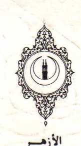


الأزهــر

مجمع مطابع الأزهر الشريف

مقاس الكتاب	١/١٦ / ٥٧×٨٢سم	ورق المتن	٦٠/جم أبيض
ورق الغلاف	٢٥٠/جم ـ بندكوت	ألوان الغلاف	٢ لـون
عدد الملازم	١٠ ملـزمة	نوع التجليد	بشر آلي





الأزهـــر

مجمع مطابع الأزهر الشريف

الثمن : جنيهان